الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

MAG-953-14/
P2

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبوبكر بلقايد - تلمسان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم الثقافة الشعبية
شعبة الفنون الشعبية

الموضوع :

مدارس السلطان أبي الحسن علي
مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا
دراسة أثرية و فنية

رسالة لنيل شهادة : الماجستير

إعداد الطالب :
العربي لقريز

إشراف الأستاذ، الدكتور :
عبد الحميد حاجيات

السنة الجامعية : 2001/2000

بسم الله الرحمن الرحيم

معهد الثقافة الشعبية
383
رقم الجرد
تاريخ الوصول
ATM 106
رقم الترتيب
C 2

الإهـــــداء

إلى من قال فيهما الحق تعالى :

" وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا "
(الإسراء الآية 23).

* إلى أمي التي حملتني وهنا على وهن و منحتني العطف و الحنان.

* إلى أبي الذي تكبد مشاق الغربة من أجل أن أكون.

* إلى روح الجدة الطاهرة التي طالما تمنت أن تقاسمني ثمرة نجاحي ولكن تشاء الأقدار أن ترحل.

* إلى إخوتي الذين يرونني قدوة لهم.

* إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل المتواضع.

شكر وَ تقدير

أشكر **الله العلي القدير** الذي وفقني في إنجاز هذا العمل راجيا منه أن يجعله نافعا في الدنيا، و أن يكسبني ثوابه في الآخرة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل، **الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات** الذي قبل الإشراف على هذا البحث و لم يبخل علي بتوجيهاته القيمة.

و أشكر **كل الأساتذة** الذين لم يبخلوا علي بتوجيهاتهم و نصحهم، و أخص بالذكر **أستاذي الدكتور عبد العزيز لعرج** الذي لم يتوان عن تقديم المساعدة و متابعته لجميع مراحل بحثي رغم إنشغالاته.

و أتوجه بالعرفان إلى **أستاذي معروف بلحاج** الذي شجعني في اختيار هذا الموضوع و الذي وضع مكتبته الخاصة تحت تصرفي دون تردد.

و أتقدم بجزيل الشكر إلى السيد **مدير الثقافة**، و السيد **رئيس الدائرة الأثرية بتلمسان** على التسهيلات المادية و المعنوية في إنجاز هذا البحث.

و أتقدم بالشكر إلى طاقم مديرية الثقافة و أخص بالذكر **بن عبد الله بن عمر** وَ **قوسطو الجيلالي** وَ **بن صالح أحمد** وَ إلى **بـ..علي** و إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد لإخراج هذا العمل إلى النور.

المقدمة

إن اهتمامي في التطلع إلى ثرات الأجداد و ما نوصلوا إليه من رقي و حس فني عال، و لما كانت العمارة أكبر و أقرب شاهد على هذا التطور إذ لازلنا نتنفس هواء المدينة القديمة من خلال معالمها الموروثة، من مساجد و مدارس و قصور و حمامات و أسواق شعبية، و صناعات و حرف تقليدية فهي باقية على أصالتها العريقة و امتداد جذورها إلى الماضي البعيد.

و الواقف أمام أحد هذه المعالم التاريخية، كمدرسة سيدي أبي مدين " العباد " تبدي لنا ماكان للعلم من قدر و قيمة و تخبرنا بالتطور الذي عرفه الأسلاف في هذا الميدان فهي تشبه إلى حد بعيد المدارس المتخصصة الحالية، و هذا يدعو للتأمل و التفكير في هذا النوع من المؤسسات الذي يختلف عن المسجد و الزاوية و الرباط و غيره من المنشآت الأخرى ، فما أصل تفردها بهذا التصميم و ما هي خصوصيتها، و ما هو الهدف من انشائها.

و عند ذكرنا مدرسة سيدي أبي مدين يتبادل إلى أذهاننا الكثير من التساؤلات، كتحديد شخصيتها التي تميزها ضمن المدارس المغاربية و ما مدى تأثرها بالتيارات الفنية السائدة آنذاك، و لا يتأتى هذا إلا بدراسة ميدانية لهذا المعلم .

إن اعتمادي على الجانب التطبيقي في هذه الدراسة أفسح أمـــامي المجال للتحليل، و المقارنة، خاصة بين مدارس السلطان أبي الحســن الموجود بالمغرب الأقصى و مدرسة العباد التي تنتمي لهذه المجموعة إلا أنها وجدت بعيدة عن هذه المدارس و بإنتمائها إلــى قطــر آخــر (المغرب الأوسط) عرف حركة ثقافية و عمرانية، موازية لما شهده المغرب الأقصى من عمائر دينية و مدنية، و في هذا المجال عملــت على أن أعطى المميزات المعمارية و الفنية لكل مدرسة على حــدى و ذلك بعرض المخطط العام و وصفه مركزا على أهــم العنــاصر المعمارية، و شرح الخصائص الفنية و المواد التــي اســتعملت فــي الزخرفة إلى جانب التعرض إلى الزخارف الفنيــة ســواء الكتابيــة أو الهندسية و النباتية.

و باتخاذي لمدرسة سيدي أبي مدين عينة للبحث، كان لزاما علــي أن أجري جميع الأعمال التطبيقية من مخططات و صور فوتوغرافية و مقاسات مع العناية الكبرى للجانب التاريخي الذي أنار لي الطريــق في تحديد مسار رحلة التغيرات و التأثيرات المعمارية و الفنية هــذا، و رصد حركتها و ذلك بتحديد دور المدرسة و الهدف الذي أنشــأت من أجله و أهم التطورات التي طرأت عليها منذ ظهور أول مدرســة بالمغرب الإسلامي إلى إنشاء مدرسة العباد، محاولا في ذلك تحديــد معالم و هوية هذه المدرسة و ذلك للإجابة على تساؤلات عديدة منــها هل أن مدارس السلطان أبي الحسن حافظت على طابعها المعمــاري و الزخرفي الذي عرفت به في المغرب الأقصى، و بما أن مدرسة

سيدي أبي مدين بالعباد هي الوحيدة الباقية التي تمثل الفئـــة المبنيـة خارج هذه المنطقة، فهي المعلم الوحيد الذي نستطيع من خلاله الإجابة عن هذه الأسئلة قدر المستطاع.

و اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الذي اعتمدت فيه علـى تقصي نشأت المدرسة في بلاد المغرب و مراحل تطورها في هـــذه المنطقة، و المنهج الوصفي التحليلي و المنهج المقارن و ذلك للتعمـق في كشف أوجه التشابه و الإختلاف، و قد قسمت بحثي إلى مدخـــل و أربعة فصول .

أتعرض في **المدخل** إلى نشأت المدرسة في المغرب الإسلامي من القرن السابع إلى الثامن الهجري .

أما **الفصل الأول** فعنونته بمدارس السلطان أبي الحسن، و أتطرق فيه إلى أهم المدارس التي بناها و كذا النظام الداخلي التي كانت تسير عليه هذه المدارس، و في هذا تعرضت إلى جميع المدارس الباقية إلى اليوم، والتي تعود إلى فترة هذا السلطان، و كذا الخصـــائص العامـة بمدارس السلطان أبي الحسن بما في ذلك مدرسة سيدي أبـــي مديـن " العباد " .

و **الفصل الثاني** خصصته لدراسة مدرسة سيدي أبي مدين (العباد) و عنوانه " مدرسة سيدي أبي مدين "، أتعرض فيه إلى الدراسة الوصفية للمدرسة و عناصرها المعمارية مرورا بتاريخ تأسيسها و موقعها و كذا تسميتها، إضافة إلى الترميمات التي أجريت على المدرسة عبر مراحل تاريخية مختلفة إلى اليوم .

أما **الفصل الثالث** فكان للدراسة التحليلية للعناصر المعمارية الزخرفية و أتعرض فيه إلى أهم العناصر المعمارية و الزخرفية الموجودة في المدرسة، كما تطرقت إلى مواد البناء المستعملة في المدرسة . و ختمت هذا الفصل بمقارنة بين مدرسة العباد و المدرسة التاشفينية بتلمسان التي تمثل الطراز المحلي للمنطقة .

و قد ذيلت بحثي هذا بخاتمة و ملحق للأشكال و الصور التوضيحية و كذا بعض النصوص التي تخدم موضوع البحث .

المـــــــــدخـــل

نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي

ومراحل تطورها من القرن (07-08هـ/13-14م)

- التعريف بالمدرسة .
- البدايات الأولى لنشأة المدرسة بالمغرب الإسلامي .
- المدرسة و الزاوية و الرباط .
- دور المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي .
- تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي .

أ - تونس الحفصية .

ب - المغرب الأقصى .

جـ - المغرب الأوسط .

ظهرت المدرسة في القرن الخامس الهجري بالمشرق الإسلامي[1] نتيجة لظروف سياسية و دينية أملتها أحوال تلك الفترة، فقبلها كان التعليم مقتصرا على المساجد، وجاءت المدرسة لتسد الفراغ التعليمي و تبعث الحركة العلمية و هي عبارة عن مؤسسة تعليمية تشرف عليها الدولة، فكانت تغطي مصاريف الطلبة، و إيوائهم، و صرف مرتبات المدرسين و القائمين عليها.

و يعرف المقريزي المدرسة في كتابه الخطط بقوله : " قال ابن سيدة : درس الكتاب درسا، و دراسة، و دارسه من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه ... و المدرس الموضع الذي يدرس به".[2] و هي ذات ابتكار إسلامي فلم تكن معروفة من قبل على هذا الشكل[3]، فدور العلم التي سبقتها كانت قد مهدت لظهورها. هذا إلى جانب إزدهار الحياة العلمية و تشعب العلوم، فالمسجد الذي أصبح لا يفي متطلبات الحياة العلمية الجديدة، و التخصصات المتشعبة للعلوم، لكونه مؤسسة مفتوحة على عامة الناس، و لم تكن دروسه تصل إلى حد المناظرة و الجدل

---

(1) – عن انتشار المدرسة و تطورها بالمشرق الإسلامي أنظر/ المقريزي تقي الدين أحمد الخطط و الآثار في مصر و القاهرة، و النيل و ما يتعلق بها من الأخبار و المعروف بكتاب المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، دار الطباعة المصرية بولاق القاهرة 1270 هـ، ص،ص.362. و ما بعدها، أنظر أيضا/ أحمد فكري، مساجد القاهرة و مدارسها، ج2، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة،1965. محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان–المغرب،1953، وكذلك أنظر/ أوقطاي أصلان آبا، فنون الترك و عمائرهم، ترجمة أحمد و محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون الثقافية، اسطنبول،1987 و أنظر أيضا/ ـ

Criswell A.C, Muslim Architecture of Egypt,Vol II Ayyubids and early Mamluks, Oxford London 1960.

Van Berchem, Matériaux pour un corpus 1er partie, Egypte .

(2) – المقريزي ، مصدر سابق، ص.362 .

(3) – نفسه، ص. 362.

الذي قد يخرج بصاحبه أحيانا عن الأدب الذي يجب مراعاتـــه داخـــل المسجد.[1]

و أول المشيدين للمدارس أهل نيسابور بخرسان، وأشهر مدرســـة بنيت في عهدهم تلك التي بناها نظـــام الملـــك الســـلجوقي [2] ببغـــداد سنة 459 هـــ/ 1064 م، و أخذت اسمه " المدرسة النظامية " و بَنيَ العديد من المدارس في كل من إيران و بغداد و عرفت أيضا باسمه، فكان هذا الوزير مراعيا لتكوين العلماء و الإداريين في هذه المـــدارس بتوفـــيره شروط التعليم فيها من إجراء الرواتب للعلماء و صرف المنح للطلبـــة مع ضمان إيوائهم و مأمنهم.[3]

ثم انتقلت حركة بناء المدارس إلى الشام في عـــهد نـــور الديـــن زنكي،[4] ثم إلى مصر على يد صلاح الدين الأيوبـــي[5]، و منـــها إلـــى المغرب الإسلامي.

* مدارس المغرب الإسلامي:

لم تعرف المدرسة في المغرب الإسلامي إلا بعد ســـقوط الدولـــة الموحدية سنة 668 هـــ / 1269 م، وبدايـــة الدويـــلات المســـتقلة عنـــها

---

(1) – آدم متز، الحضارة الإسلامية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي 1971 ج1 ، ص.329.

(2) – المقريزي، مصدر سابق، ص. 362 .

(3) – D et J Sourdel , la civilisation de l'islam classique , artaud, Paris, 1976, P.112.

(4) – كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط11، بيروت–لبنان، 1988، ص. 434 .

(5) – نفسه، ص. 435 .

فنقل حكام هذه الدويلات نظام المدارس عن الأيوبيين بمصر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.[1]

إلا أن ابن أبي زرع صاحب القرطاس يذكر تسمية " المدرسة " في نص كان يعدد فيه خصال الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (555 - 595 هـ / 1160 - 1195 م) في قوله : " ... و حصن البلاد و ضبط الثغور، و بنى المساجد، و المدارس في بلاد المغرب و إفريقية، و الأندلس، و بنى المارستان و أجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ... "[2]. فهذا النص يورد لنا مصطلح " المدرسة "، و كذلك عناية الخليفة بالطلبة و الفقهاء، و إجراء المرتبات عليهم مما يؤكد وجود المدرسة كمؤسسة ذات وظيفة رسمية. إلا أن الدلائل المادية التي تؤكد صحة هذا الكلام تكاد تكون منعدمة. لكنها تدعو إلى البحث خاصة في الميدان الأثري لإجلاء هذا الرأي .

و هناك آخرون يرجعون أصل المدرسة إلى أبعد من هذا العهد و في رأيهم أنها نشأت لأول مرة في عهد يوسف ابن تاشفين المرابطي

---

(1) - Marçais . G. L'art musulman, Presse Universitaire de France, Paris 1962, P.128.

(2) - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، نشر. C. J. Iornbergub Salire 1843، ص. 143 .

الذي بنى بمدينة فاس أولى المدارس المغاربية و بذلك تتزامن مع ظهور المدارس بالمشرق.[1]

فبعد دخول هذا الأمير إلى مدينة فاس حوالي (462 هـ / 1069 م) بنى بها مدرسة عرفت " بمدرسة الصابرين" [2] و مثلما يورد عبد الله علام عن الحلل الموشية حول خبر سقوط الدولة المرابطية على يد الموحدين، وفرار حاميتها عن مدينة فاس، إذ قاوم الأهالي و طلبة العلم باستماتة قوات عبد المؤمن بن علي، دفاعا عن المدينة، و بعد اقتحامها قتل عبد المؤمن جميع طلبة هذه المدرسة و فقهائها بإيعاز من الإمام ابن تومرت.[3]

و هذه الحادثة المرتبطة بالمدرسة و طلبتها وفقهائها لم تغفلها كتب التاريخ و التي تعطي بعدا آخر في بداية و أصل المدرسة في الغرب الإسلامي .

و هذا التضارب و الاختلاف في إرجاع التاريخ الأصلي لظهور المدارس في بلاد المغرب الإسلامي له مبررة،من حيث أنه ارتبط بنصوص تاريخية أشار فيها المؤرخون إلى المدرسة في هاتين الفترتين، لكنه من الصعب الحكم في ذلك، و إرجاع نشأتها إلى المرابطين أو الموحدين من بعدهم، و ذلك في غياب الشواهد المادية المدعمة

---

(1) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، أطروحة دكتوراء دولة، سنة 1999. مخطوط، مكتبة قسم الآثار جامعة الجزائر، ص. 306، 307 .

(2) – المرجع السابق، ص. 307 .

(3) – عبد الله علام، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف بمصر 1971، ص. 132 . *(مجهول، الحلل الموشية،ص،ص.101،103. نشر علواش الرباط،1932.) .

لهذه النصوص، و يبقى هذا من بين التساؤلات المطروحة و التي ربما تحجيب عنها الأبحاث و التقنيات الأثرية في المستقبل [1] .

و لعل هذا الاختلاف راجع إلى تعميم المؤرخين لمصطلح المدرسة على المؤسسات العلمية التي كانت سائدة في تلك الفترة كدور الحديث و الأربطة، و الزوايا و مقصدهم في ذلك الأماكن التي يتجمع فيها الطلبة للدرس و الإقامة [2] .

* علاقة المدرسة بالزاوية والرباط:

الرباط مؤسسة عسكرية بالدرجة الأولى و أصل الرباط من المرابطة، و ملازمة ثغر العدو [3]، و التصدي له، و يعود تاريخ ظهور الأربطة بداية إلى مصر العباسي، لضرورة حربية أملتها ظروف الجهاد، و عرف المغرب الإسلامي الأربطة و خاصة في العهد المرابطي، هذا لكون المرابطين من أكثر المشيدين لها. وَ اتخذوها حصونا و بثوا دعوتهم إنطلاقا منها و من ثم جاء تسميتهم مشتقة من الرباط و المرابطة و عمل الموحدون بعدهم على بنائها أيضا [4] .

لكن الإباطة في المغرب الإسلامي ترجع إلى العهد الأغلبي بتونس: فعملت هذه الدولة على بنائها و ما زالت لها آثار قائمة كما هو

---

(1) – Bel , Alfred, inscription arabes de fes, Extrait du journal asiatique (1917-1919), Paris 1919, P.87 .

(2) – W. G. Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Paris 1903, P.271 .

(3) – المقريزي، مصدر سابق، ص. 430.

(4) – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة 1968، ج3 ، ص. 437 .

الحال في رباط " المنستير " و رباط " السوس "[1]. و الأربطة معروفة قبل الإسلام، فقد عمل على بنائها المسيحيون من قبل و هي ذات أصل بيزنطي [2] .

و الرباط ذو طبيعة حربية مزجها المسلمون بوضعية دينية لطبيعة الحرب التي يقودونها، فالجهاد يحتاج إلى جانب الجيش دعاة و فقهاء فكانت تلك القلاع القوية (الأربطة) تضم المجاهدين و العلماء و الفقهاء [3] .

و بعد استتباب الأمن و اكتساب المسلمين القوة العسكرية و السياسية أخذت هذه الأربطة تتحول إلى مأوى للزهاد و المتصوفة، و أضحت تفقد مهمتها الحربية شيئا فشيئا. وربما كان هذا مقدمة لظهور الزاوية أو تحولها هي نفسها إلى زوايا [4] .

أما الزاوية فهي مكان يتخذ العباد و النساك الذين ينعزلون عن العالم، فيقيمون فيه شعائرهم الدينية منقطعين إلى حفظ القرآن و دراسة الفقه و العلوم الشرعية، و هي مفتوحة على كل قاصد في زيارتها أو البقاء فيها، و هي محج للطلبة و الزائرين، فكانت وفر لهم أسباب اللقاء و الإقامة من طعام و إيواء و حراسة. [5] و أغلب الزوايا بنيت إلى جانب ضريح إنسان صالح، أو عالم مشهور، أو ضريح مؤسسها، فلا نجدها بالقرب من أضرحة حكام أو أمراء،

---

(1) – **Dhina Attalah, les états de l'occident musulman aux XIII, XIV et XV siècles institutions gouvernementales et administratives O.P.U., Alger + E.N.A.L. 1984, P.303.**

(2) – **IBID, P.304 .**

(3) – عبد الله علام، مرجع سابق، ص. 292 .

(4) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، ص. 329 .

(5) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، ص.325.

الحال في رباط " المنستير " و رباط " السوس "[1]. و الأربطة معروفة قبل الإسلام، فقد عمل على بنائها المسيحيون من قبل و هي ذات أصل بيزنطي [2] .

و الرباط ذو طبيعة حربية مزجها المسلمون بوضعية دينية لطبيعة الحرب التي يقودونها، فالجهاد يحتاج إلى جانب الجيش دعاة و فقهاء فكانت تلك القلاع القوية (الأربطة) تضم المجاهدين و العلماء و الفقهاء [3] .

و بعد استتباب الأمن و اكتساب المسلمين القوة العسكرية و السياسية أخذت هذه الأربطة تتحول إلى مأوى للزهاد و المتصوفة، و أضحت تفقد مهمتها الحربية شيئا فشيئا. وربما كان هذا مقدمة لظهور الزاوية أو تحولها هي نفسها إلى زوايا [4] .

أما الزاوية فهي مكان يتخذ العباد و النساك الذين ينعزلون عن العالم، فيقيمون فيه شعائرهم الدينية منقطعين إلى حفظ القرآن و دراسة الفقه و العلوم الشرعية، و هي مفتوحة على كل قاصد في زيارتها أو البقاء فيها، و هي محج للطلبة و الزائرين، فكانت وفر لهم أسباب اللقاء و الإقامة من طعام و إيواء و حراسة. [5] و أغلب الزوايا بنيت إلى جانب ضريح إنسان صالح، أو عالم مشهور، أو ضريح مؤسسها، فلا نجدها بالقرب من أضرحة حكام أو أمراء،

---

(1) – **Dhina Attalah, les états de l'occident musulman aux XIII, XIV et XV siècles – institutions gouvernementales et administratives O.P.U., Alger + E.N.A.L. 1984, P.303.**

(2) – **IBID, P.304 .**

(3) – عبد الله علام، مرجع سابق، ص. 292 .

(4) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، ص. 329 .

(5) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، ص.325.

و شهدت الزاوية تطورا كبيرا مع تطور الحركة الصوفية في بداية القرن السابع الهجري [1] .

و يذهب مارسي إلى أن لزاوية في المغرب الإسلامي، ما هي إلا أربطة فقدت وظيفتها الحربية، و تمسكت بالجانب الديني التعبدي. هذا إلى أن معظم المصادر التي تتحدث عنها تجعلها في نفس الصنف مع الرباط [2] .

أما المدرسة ظهرت في ظل حكام تونس و فاس و تلمسان، و بعد سقوط الدولة الموحدية، و في هذه الفترة التي حكم فيها ورثة الموحدين، عرفت المدرسة إهتماما و رعاية خاصة من ملوك و أمراء هذه الدويلات فازداد عدد طلبه العلم بتوفير المأوى و الغذاء و إيجاد كل الأسباب لذلك، فكان الطلبة يعيشون مع بعضهم كما هو الحال في الزوايا[3]، و التي كانت تعتمد في إيراداتها على صدقات المحسنين، و عطايا الأثرياء، لكن لأمر يختلف في المدرسة، فكانت الدولة تتكفل بجميع المصاريف المترتبة عن طالب العلم طيلة الفترة الدراسية المحددة له، و في هذا يقول حسن الوزان : "... و كان الطالب من طلبة هذه المدارس في الزمن الماضي معفى من مصاريفه، و ملابسه لمدة سبع سنوات..." [4].

---

(1) – Marçais . G, L'art Musulman, P.129 .

(2) – Marçais. G. L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, P.284 .

(3) – Colvin Lucien, la mosquée, ses origines – samarphologie, ses diverse fonctions son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du nord Alger, 1960,P.117.

(4) – حسن الوزان، وصف إفريقيا، جزآن، ترجمة محمد حجي، و محمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط2، 1983، ج2 ، ص.27 .

ولا ينتسب إلى هذه المدارس منالطلبة إلابموافقة السلطان الشخصية ، و مراعاةالشروط العلمية، و الخلال التي يتحلى بها القاصد في الإنضمام إليها. و على عكس الزاوية فهي مؤسسة رسمية تكوينية يتخرج منها القاضي، و الكاتب، و الوزير... و حتى القنصل الذي يمثل البلاد في الخارج [1].

و إذا نظرنا إلى هذا التطابق الوظيفي، لنظام الخدمة التي تؤيدها المدرسة على غرار الزاوية، في نشر العلم، و التكفل بالطلبة و حمايتهم، فهذا تقليد مغاربي متأصل منذ نشأة الزاوية، و من قبلها الرباط الذي يعود إلى القرن الرابع الهجري كما ذكرنا. وهذا لا يعني أن المغرب الإسلامي لم يتأثر بالمدرسة النظامية المشرقية، و التي عرفت أيضا تطورا، وتأثرا بدور الكتب التي انبثقت عنها دور العلم، إلى أن ظهرت في شكلها المعروف بتكفل الدولة بها [2].

لكنه من الصعب أن نفصل في إرجاع أصل للمدرسة المغاربية إلى الزاوية، و الرباط في كونها زاوية أعطيت لها صبغة رسمية من طرف الدولة، أم أنها تقليد مشرقي صرف[3] ؟

و من الناحية المعمارية أعطى كل من الرباط و الزاوية للمدرسة، المخطط الذي عرفت به في المغرب الإسلامي[4]، و ليس غريبا أن تأخذ المدرسة شكلها العام و تخطيطها المعماري إيحاءًا من الزاوية التي

---

(1) – Marçais. W.G. les monument arabes de Tlemcen, P.271 .

(2) – آدم متز، مرجع سابق، ص. 329 .

(3) - يتفق كل من جورج مارسي و ألفرد بال على هذا الرأي ، أنظر/
Bel.Alfred, op.cit, pp.87,88.

(4) – Marçais. A.M.O, P. 293 .

أخذت بدورها عن الرباط، لأن الهدف من المدرسة هو التعليم و الإيواء في نفس الوقت، و هي نفس الوظيفة في الزاوية من حيث الإيواء و الإقامة و مع انه لا يوجد تطابق حرفي لمخططات الزوايا والمدارس المغربية، و اختلافها أيضا عن المخططات المشرقية للمدارس[1]. فقد حافظت هذه المدارس على الروح المغاربية التي مهد لها الرباط و الزاوية من قبل. و إنما كان جلب المدرسة كنظام تكوين و طريقة تدريس، و طبّق هذا النموذج الجديد حسب تقاليد المسلمين المغاربة.

* دور المدرسة في المغرب الإسلامي :

لما كان الهدف من إنشاء المدارس بالمشرق إحياءًا للمذهب المالكي، و التصدي للتشييع الذي حمل رايته الفاطميون، و غزوا بمذهبهم معاقل أهل السنة، و تهديدهم لبغداد عاصمة العباسيين السنيين نفسها[2].

و الغاية من بناء المدارس في المشرق هي تكوين علماء و أئمة و فقهاء للتصدي للفكر الشيعي في المشرق و للوعظ و الإرشاد و إصلاح المجتمع و تكوين فئة من الفقهاء لخدمة الحكام و البلاطات. و المدرسة

---

(1) – ظهر بالمشرق طرازين من المدارس، مدارس ذات الأواوين تقوم على مخطط مستطيل في الجهات الأربعة يحتوي على أواوين، و هي قاعات كبيرة فتحت إلى الصحن و هناك طراز ثانٍ عرفته منطقة الأناضول فيما بعد و سمي بالمدارس ذات القباب و تحوي صحنا مربعا مسقوفا بقبة عظيمة. أنظر في ذلك أوقطاي آصلان آبا، مرجع سابق، ص.95.

(2) – إبن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ج8 ، ص.83 .

النظامية ببغداد مثال ناجح لهذه الوحدة، فأصبحت تدرس بها المذاهب السنية الأربعة في نفس الوقت[1].

و على عكس المشرق التف المغربية حول مذهب الإمام مالك يقول ابن خلدون : " و أما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب و الأندلس و إن كان يوجد في غيرهم ... "[2]. و لهذا الإجماع على مذهب واحد أسبابه، فمن بينها أن رحلة أهل المغرب، غالبا ما كانت للحجاز لقصد الحج، و بذلك أخذوا عن العلماءبالمدينة المنورة منشأ الإمام مالك ودار مذهبه [3].

إنما كان المغرب الإسلامي يعرف صراعا من شاكلة أخرى فبعد سقوط الدولة الموحدية، وجد حكام الدويلات المستقلة عنها عائقا في التخلص من الفكر الموحدي المهدوي[4]، فكان العمل على محو هذا الفكر و إحياء مذهب مالك ونشره من الاهتمامات الكبرى، خاصة عند المرينيين، و الزيانيين ففي مطلع الدولة المرينية.

عمل حكامها على بناء المدارس، و تعليم المذهب المالكي محاولة منهم تحطيم الفكر الموحدي بعد القضاء على الخلافة الموحدية عسكريا،

---

(1) – **D et J. Sourdel, la sivilisation de l'islam, P.112 .**
Claude Cahem, l'islam des origines au début de l'empire ottanan, histoire universelle 14 : Paris 1970, P.216 .

(2) – ابن خلدون عبد الرحمان، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و المعجم و البربر، و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان 1999– ج7 ، ص.285.

(3) – أبو بكر جابر الجزائري، العلم و العلماء، دار الشهاب، الجزائر، 1985، ص.309.

(4) – عبد الله علام، مرجع سابق، ص.291.

و ذلك بإعداد و تكوين الفقهاء و العلماء و الإطـــارات، علـــى مذهـــب الإمام مالك[1].

و من الأهداف الموجودة من هذه المؤسسات التعليمية - أنـــذاك - فرض نوع من الرقابة على الحياة السياسية، و التحكـــم فـــي الحركـــة العلمية و الدينية التي كانت توازي الحياة العادية للدولة، كما هو الشـــأن في المساجد و الزوايا، التي لا تستطيع الدولة التحكـــم فيـــها مباشـــرة، و لهذا كانت تسهر على تكويـــن الأئمـــة و الفقـــهاء و المعلميـــن فـــي هذه المدارس[2] .

و ربما لهذه الأهداف االسياسية إنتقذ بعض العلماء في ذلك العصر نظام المدرسة، و عابوا على خريجيها بأنهم قاصرين على تأدية بعـــض المهام العلمية، كالفتوى و القضاء[3]، و كان العالم التلمســـاني الشـــهير " الآبلي "[4] أحد الناقدين للمدارس، فكان من رأيه أنها مقابر للعلم،فلم تكن إذا رعاية الأمراء و الملوك للمدارس و صرف المرتبات للأساتذة و التكفل كليا بالطلبة لتشتري روح الإنتقاء و الإحتجاج عند العلماء المغاربة ضد سلاطينهم .

---

(1) - MARGAIS,(G), A.M.O . P . 285

(2) - IBID, P . 286

(3) - عبد الله علام، مرجع سابق، ص . 291 .

(4) - عن حياة هذا العالم و ترجمته أنظر، إبن خلدون، العبر، ج7، ص . 377 . أيضا / إبن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، عن / النسخة التي نشرها محمد بن شنب سنة 1918، ص. 214 .

* تطور المدرسة بالمغرب الإسلامي :

يجمع أغلب المؤرخين على أن أول مدرسة بنيت بالمغرب الإسلامي تعود إلى العهد الحفصي (525-941 هـ/1218-1534م) و التي بناها أبو زكريا الأمير، في تونس حوالي سنة (636هـ/1238م)[1] ذلك بعد إستقلاله بإفريقية عن الموحدين، وعرفت هذه المدرسة بإسم " المدرسة الشماعية " نسبة لسوق الشماعين القريب منها، و هي قريبة من جامع الزيتونة أيضا خصصت بهذه المدرسة لتدرس المذهب الموحدي و تعاليم الإمام ابن تومرت [2] .

و كانت هذه المدرسة لبنة بناء مدارس عديدة عبر هذه الدويلة أشهرها " المدرسة التوفيقية " التي أشرفت على بنائها لأميرة " عاطفة " زوجة الأمير الحفصي أبو زكريا . في حدود (650هـ/1252 م)، و تلتها مدارس أخرى، ما زالت آثارها باقية إلى الآن كالمدرسة العنقية، و مدرسة ابن تافراكين التي تنسب إلى الإمام ابن تافراكين[3]، و تلت هذه الحركة المعمارية في تشييد المدارس توسعا نحو المغربين الأقصى و الأوسط، و الأندلس.

واصلت المدرسة رحلتها نحو الغرب لتظهر أول مرة في فاس في عهد السطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق

---

(1) - Golvin Lucien, la madrasa médiévale, Paris 1995, P. 175 .

(2) - لعرج عبد العزيز، المباني المرينية ، ص.310.

(3) - Golvin Lucien, la madrasa médievale, P.182 .

(657 -685 هـ/1258-1286م) الذي بنى مدرسة " الصفارين "[1] . نسبة إلى شارع الصفارين أو النحاسين صانعي الأدوات النحاسية،و هذا بعد حوالي ثلاثين سنة من بناء المدرسة الشماعية بتونس،وذلك في حدود 670 هـ/1271م، وهذه المدرسة الأولى في المغرب الأقصى[2] تلتها سلسلة من المدارس عبر المراحل التالية لهذا العهد من حكم الدولة المرينية. فشيدت العديد من هذه المؤسسات عبر ربوع المملكة و خارجها في المغرب الأوسط بعد بسط نفوذها عليه.

و من الحوافز التي شجعت المرينيين في الإقدام على بناء المدارس، و الاعتناء بها، توجههم السياسي و المذهبي الذي تبنوه، فمن خلال هذه المدارس عملوا على نشر المذهب المالكي الذي يلتف حوله أغلب المغاربة، و محو آثار المذهب الموحدي و لرغبة سلاطين هذه الدولة في نشر العلم و اتخاذه أحد مظاهر دولتهم في حين ملأ الفراغ العلمي الذي كان يعاني منه المغرب الإسلامي [3]، وخمول العلوم الدينية على مذهب مالك على الخصوص، وهذه الأسباب كانت دافعا لتحمس سلاطين هذه الدولة في تجنيد العلماء و الفقهاء و المعلمين .

كما أن فكرة بني مرين التوسعية، و محاولتهم بسط نفوذهم على جيرانهم و توحيد المغرب الإسلامي تحت رايتهم، جعلتهم لا يتأخرون في الترويج لسياستهم، و دعوتهم بأحقية الإرث الموحدي،

---

(1) – Marçais. G, A.O.M., P.285 .

(2) - Terrasse Charles, Mederssas du Maroc, Paris,1927, P.18 .

(3) – عن حالة العلم و التعليم لهذه الفترة، انظر ابن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الهلال 1988، ص. 274 .

فكان من ذلك إظهار القوة و العظمة في تشيد العمائر و المساجد و المدارس [1]. مظاهين في هذا سلاطين المشرق الذين تفننوا في بناء المدارس في هذه الفترة . فكانت الفترة المرينية زاخرة بهذا النوع من العمائر .

و بعد بناء " مدرسة الصفارين " في فاس العاصمة و بحوالي ثلاثين سنة عرفت فاس حركة نشيطة في بناء المدارس انطلاقا من عهد السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب (710-732 هـ/1310-1331م) الذي بنى مدرسة فاس الجديد و تعرف بدار المخزن سنة (720هـ /1320م) [2] أشرف عليها الأمير أبو الحسن في ولاية عهد أبيه و هي بفاس أيضا كم باشر هذا الأمير بناء مدرسة السبعين المجاورة لمدرسة الصهريج، و بناء مدرسة العطارين بفاس أيضا، في هذه الفترة سنة (723 هـ/1323م) [3] .

و بعد أن تولى السلطان أبو الحسن الحكم (732-749 هـ/1331-1348) واصل جهوده في العناية ببناء المدارس عبر مدن مملكته فأشهر مدارسه " مدرسة سلا "، و " المدرسة المصباحية " بفاس و مدرسة العباد و يعتبر هذا السلطان أكثر السلاطين المرينيين تحمسا لبناء هذه المدارس و امتياز فترة حكمه بالنشاط المعماري الواسع و القوة التي تلتها فترة حكم أبي عنان فارس (المتوكل) سنة (749 -759هـ/1348-1357م)، التي امتازت بالإزدهار

---

(1) - Dhima (A), OP.CIT, P.313

(2) - السلاوي و الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصلا، تحقيق جعفر النصاري، و محمد الناصري، ج3 ، دار الكتاب، الدار البيضاء – المغرب 1954، ص. 175 .

(3) - Marçais (G), A.O.M, P. 286 .

و القـــوة أيضـــا، و عـــرف بنـــاء " المدرســـة البوعنانيـــة " بفـــاس (752هـــ إلى 756هـــ/1352م إلى 1356 م) فقد دامت مدة الأشغال التي بها حوالي عامين كمـــا تنســـب إلـــى هـــذه الفـــترة " مدرســـة مكنـــاس " التي بناها أبوعنان في ولاية عهد أبيه وتسمى " المدرسة البوعنانيـــة "، و هذين المدرستين تعدان آخر المدارس المرينية، فبعد هذه الفترة عمـت الفوضى و شد البلاء على كامل المغرب إلى انقضاء الدولـــة المرينيـــة على يد الأشراف الوطاسين [1] .

*مدارس المغرب الأوسط :

عمل بنو عبد الـــواد علـــى توطيـــد أركـــان دولتـــهم المســـتقلة عن الخلافة الموحدية و إعلان الدولة الزيانية بعقد البيعة لأول ملوكـــها يغمراسن بن زيان سنة 633 هـــ /1235م [2] . فعظمت دولـــة المغـــرب الأوسط و عم بها الرخـــاء و ازدهـــرت الحيـــاة الثقافيـــة و العلميـــة، التي نجمت عن تطور العمارة و التمدن خاصة في العاصمـــة الزيانيـــة " تلمسان " و دراية من ملوكها لقيمة العلم. و ما ينجـــر عـــن الجـــهل الذي يعصف بالأمم، فإنهم لم يدخروا جهدا في نشـــر العلـــم و تشـــجيع العلماء و بعث الحياة الثقافيـــة و الفكريـــة و الدينيـــة، علـــى مذهـــب الإمام مالك [3]، فقربوا العلماء إلى حضرتهم و اعتنـــوا بطلبـــة العلـــم

---

(1) _ Terrasse. Ch, OP.CIT, P. 21, 23 .

(2) – عن تاريخ بني زيان، محمد بن عبد الله التنسي/ مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد م.و.ك الجزائر – 1985، ص 11 و ما بعدها .

(3) – هو مذهب تلمسان على غرار المغرب الإسلامي، أنظر البكري أبي عبيد الله بن عبد العزيـــز، المعجب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، الطبعة المترجمة إلى الفرنسية– Mac Quckin de slane, Paris, 1965 .

فكانت تلمسان قبلة طلبة العلم و مقصدهم [1] . فبني فيها مدرسة " إبني الإمام " و " التاشفينية "، و " المدرسة اليعقوبية "...

ففي عهد أبي حمو موسى الأول (707-718 هـ/1308-1318م) بنيت أول مدرسة بالمغرب الأوسط سنة 710هـ/1310 م، وذلك تكريما للعالمين الشهيرين ابني الإمام اللذان قدما عليه من مدينة برشك القريبة من الجزائر . و سميت المدرسة باسميهما تكريما لهما و انتصبا هذان العالمان للتدريس في المدرسة إلى أن توفيا و دفنا بها . و مما يعرف على أبي حمو موسى الأول أنه كان مقدرا للعلم مجلاً للعملاء و يقول التنسي في ذلك : "... لما كانت فترة أبي حمو الأول اعتنى بالعلم و العلماء، ورد عليه العالمان الجليلان ابني الإمام، و بنى لهما المدرسة التي سميت باسميهما، و هذان الفقيهان من بلدة برشك ..." [2].

و لما خلفه ابنه أبو تشفين (718-737هـ/1318-1336 م) اعتنى بالعلم و العلماء و التيسير لأهل العلم، فكان عالما و فنانا و كان اختط مدرسة " التاشفينية " التي برع في تشييدها فجلب لها الصناع و صرف عليها الأموال فكانت تضاهي مدارس فاس[3]، و بقيت هذه المدرسة قائمة إلى عهد قريب و على أحسن حال بجمالها المعماري، و زخارفها الفنية المنقطعة النصير إلى أن دبت شوكة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، فكان من فرنسا إلا أن تزيح كل

---

(1) - ابن خلدون، العبر، ص.80 .

(2) - التنسي، مصدر سابق، ص.139. أنظر أيضا، عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني ، الجزائر 1974، ص. 44 ، 46 .

(3) - التنسي، مصدر سابق، ص. 140 .

ما يمد بصلة لتراث الشعب الجزائـــري و شـخصيته عـبر التـاريخ و المدرسة " التاشفينية " رمز العلم و الحضارة لهذا الشعب كانت ضحية النية المبيتة تلك. فكان تدميرها كليا أمام الأبصـــار بحجـة أو أخـرى سنة 1837 م .

لم يبق لنا من هذه المدرسة سوى بعض الزخارف (الجصيـة) من الزليج التي نجت من التحطيم و هي موجودة بمتحف تلمسان، كمـا تحتفظ الكتب الأثرية بصورة لواجهتها التي تتوسطها البوابة التاريخيـة الرائعة الصنع كما أن المهندس دوتوا (**duthoit**) وضع لها رفعا معماريا قبل تهديمها [1].

و المدرسـة الثالثـة بناهـا أبـو حمـو موسـى الثـاني سـنة (760–791 هـ/1358–1388م) سميت بالمدرسة اليعقوبية، نسبة إلى والده فحين إتمام بنائها نقل إليها رفات(جثمان)أبيه أبي يعقوب. و كان بناؤهـا في حدود (763–765هـ/1361–1363م) [2]، ولهذه المدرسة أثر بارز فـي الحفاظ على ارتقاء الحياة العلمية، لكن مصير هذه المدرسة كان الاندثار و التحطيم فدمرت في عهد الأتراك العثمانيين، و لم يبق منـها سـوى اللوح التأسيسي الذي يحمل تاريخ البناء الذي يعود إلى سنة 763 هـ[3].

إضافة إلى هذه المدارس الثلاثة التي تركـها الزيـانيون هنـاك مدرستان بناهمـا المرينيـون فـي فـترة حكمـهم بتلمسـان الأولـى

---

(1) – **Duthoit : Rapport sur une mission scientifique en Algérie archive des missions scientifique, 1873 3eme série TL, P.325 .**

(2) – التنسي، مصدر سابق ، ص. 179 .

(3) – **Bourouiba Rachid, l'Art religieux musulman en Algérie 2eme ed, S.N.E.D . alger 1983, P.198 .**

"مدرسة العباد " بربض العباد بظاهر تلمسان و "مدرسة سيدي الحلوي" التي بنيت في عهد أبي عنان فارس بعد بناء المدرسة الأولى بخمس سنوات عرفت بمدرسة سيدي الحلوي نسبة للشيخ الصوفي سيدي الحلوي الأندلسي الأصل الذي استقر بتلمسان . و شيدت هذه المدرسة ضمن مجمع معماري متكون من الجامع، و الزاوية، و الضريح، و المدرسة.[1]

و من المؤسف أ ن هذه المدارس اندثرت كلها و لم يبقى منها سوى مدرسة العباد، التي مازالت تصارع عوادي الزمن، محافظة على أصالتها . حاملة مع بقائها إلى اليوم صورة جلية عن نظام المدارس المغربية في القرن الثامن الهجري بأدق تفاصيله . كما تعد شاهدا صادقا على تطور المدارس بالمغرب الأوسط بإعطائها صورة أكثر تعمقا على المدارس التي عاصرتها . و لم يبقى منها اثر، وبنيت هذه المدرسة ضمن المجمع المعماري الذي خصه السلطان أبو الحسن المريني بقرية العباد بظاهر تلمسان. الذي يحتوي على المسجد، و إعادة تجديد ضريح الشيخ الصوفي سيدي أبي مدين و تاريخ بنائها يعود إلى 747 هـ/1347 م، و ذلك بعد تشييد الجامع بثماني سنوات . و تعد آخر إنجازات السلطان المعمارية [2] .

---

(1) – لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، ص.318.
– أنظر أيضا/ الحاج رمضان شاوش باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص. 398 .

(2) – بوطارن مبارك العمائر الدينية في المغرب الأوسط من القرن السادس حتى نهاية القرن الثامن رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية كلية الآداب، قسم التاريخ، مصر، 1991، مخطوط بمكتبة قسم الثقافة الشعبية جامعة تلمسان، الجزائر، ص.187 ،188.
– أنظر أيضا / الحاج رمضان شاوش، مرجع سابق، ص. 397 ، 398 ، 399 .

الفصل الأول

مدارس السلطان أبي الحسن علي

I/ السلطان أو الحسن : سيرته و سياسته الداخلية و الخارجية

II/ أهم المدارس التي بناها :

أ). مدرسة الصهريج .

ب). مدرسة السَّبْعِيين .

جـ). مدرسة أبو الحسن بـ سلا .

د). المدرسة المصباحية بفاس .

هـ). المدرسة البوعنانية بمكناس .

و). مدرسة أبي مدين " العباد " بتلمسان .

III/ النظام الداخلي لمدارس السلطان أبي الحسن .

I/ السلطان أبو الحسن : سيرته و سياسته الداخلية و الخارجية

ترك السلطان أبو الحسن[1] (732-749/1331-1348م) العديد من المنشآت المعمارية الهامة، و خاصة بناؤه للمدارس التي تميزت بها فترة حكمه، و قد كان يرعى المشاريع الكبرى في حياة والده حين كان وليا للعهد، فأسند إليه أبوه السلطان أبو سعيد عثمان تشييد مًدرسة الصهريجً بفاس التي دام العمل بها حوالي عامين (721-723هـ/1321-1323م)، و في نفس الوقت أشرف على بناء مًدرسة السّبعيينً القريبة منها، كما تابع بناء مًدرسة العطارينً بفاس سنة (723 هـ/1323م)[2].

و بعد اعتلائه العرش المريني استمر هذا السلطان في البناء و التشييد، فكانت حركة واسعة النطاق طبعتها بناء المدارس ففاق عددها الثمانية عشر مدرسة، وذلك عبر مختلف مدن مملكته، يقول ابن مرزوق: "... ثم أنشأ رضي الله عنه، في كل بلاد المغرب الأقصى، و بلاد المغرب الأوسط مدرسة،فانشأ بمدينة تازا قديما مدرستها الحسنة،و ببلدة مكناسة، و سلا، و طنجة، و سبتة، و آنفي، و آزمور، و آسفي، و آغمات، و مراكش، و القصر الكبير، و بالعباد

---

[1] - عن حياة السلطان أبو الحسن ، أنظر كتاب: إبن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق، ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981.

[2] - Terrasse. (ch), OP. CIT, PP.19 -21.

بظاهر تلمسان، و بالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب إختـــلاف البلدان ..." [1].

و كان بناؤه لمدرسة العباد قد تزامن مع بنائه للمدرسة المصباحية بفاس وهي آخر إنجازاته سنة (747 هـ /1347م)[2].

لقد بلغت العمارة شأوا بعيدا في التطور و الازدهار في هذا العهد من أيام السلطان أبي الحسن، فتعـددت مشـاريعه المعماريـة الدينيـة و العسكرية، و المدينة منها، فمن أجمل ما بني من المساجد جامع العباد بظاهر تلمسان، الذي تكلم عنه الرحالة و المؤرخون و وصفوا روعتـه و جماله، و ما زال يحافظ على زخارفه الأصلية التي تحمل طابع الفـن المغربي الأندلسي و يعد هذا الجامع باكورة للتأثيرات الفنية بين المغرب و الأندلس[3].

و كان التوسع المريني نحو المغرب الأوسط في هذه الفترة عاملا محفزا على إنشاء المدارس،و الأربطة على طـول الشـواطئ لحمايـة المملكة من الأعداء الطامعين مـن الإسـبان الصليبيـين فضـلا عـن السيطرة على الأوضاع الداخلية أيضا.[4]

كما عمل السلطان على تأمين الطرق البرية خاصة من تلمسـان إلى فاس، و مراكش، بتعميرها بالناس و ذلك، بإقطاع الأراضـي لـهم

---

(1) – ابن مرزوق ، مصدر سابق، ص.406.

(2) – Golvin lucien,la madersa médiévale, p.232.

(3) – يعد هذا الجامع من التحف الفنية المعمارية النادرة التي تعود إلى القرن الثامن الهجري و الذي ما زال يحتفظ بطابعه الأصلي سواء المعماري أو الزخرفي.
أنظر: عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية في المغرب و الأندلس دار الثقافة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص.90.

(4) – ابن مرزوق، مصدر سابق، ص.398.

بمحاذاة الطريق، و مقابل إلتزامهم بتأمينها و تموين السابلة بما يحتاجون إليه أثناء سفرهم، و يبدو أنها فكرة مستحدثة في بلاد المغرب لما نفهمه من كلام ابن مرزوق : "... و قد جرى هذا النمط و استمر و الحمد لله في بلاد المغرب ..."[1].

لم يتوان هذا السلطان في تحقيق طموح آبائه من بني مرين[2] في بسط نفوذهم على المغرب الإسلامي، و تربعهم على عرش دولة موحدة تحت سلطانهم تخلف الدولة الموحدية المنقضية على أيديهم، فبدأوا بالتوسع إلى المغرب الأوسط محاصرين عاصمته تلمسان الزيانية، لإخضاعها، لكنه استحال عليهم اقتحامها مرارا و تكرارا، و أشهر محاولاتهم حصارها الطويل الذي دام ثماني سنوات و الذي انتهى بمقتل سلطان بني مرين يوسف أبي يعقوب سنة (706 هـ /1306)م، وعودة جيشه إلى فاس و تم التخلي عن حصار المدينة[3].

و لم تتأتى السيطرة على المغرب الأوسط إلا في عهد السلطان أبي الحسن بدخوله عنوة مدينة تلمسان بعد حصارها مدة عامين سنة (737 هـ/1337م) و إتخاذها عاصمة لدولته و استقراره بها[4] .

---

(1) – نفسه، ص429.

(2) – نسبة إلى مرين بن ورتاجن، بن ماخوخ بن جريج من شعوب و اسين من قبيلة زناتة التي كانت تقطن أراضي الزاب بالمغرب الأوسط، عن تاريخ هذه الدولة، انظر ابن الأحمر، روض النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، منشورات مطبعة القصر الملكي، الرباط، المطبعة الملكية، 1962.

(3) – ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص.215.216.

(4) – أبو زكريا يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الوا د، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر، 1980،ص.234.
أنظر /ابن مرزوق، مصدر سابق، ص.202.203.

و قد حظيت تلمسان بمشاريع معمارية هامة تلتها حركة علمية و ثقافية مشهودة لذلك العهد، كانت قد مهدت لها الدولة الزيانية قبله، فوجد السلطان أبو الحسن المدرسة " التاشفينية " حافلة بعلمائها و طلبتها، و " مدرسة ابني الإمام " اللذان كانت لهما الأهمية البالغة قبله و في عهده[1]، فسعى إلى تنشيط الحركة العلمية و دعمها ببنائه مدرسة العبلد، هذا بالإضافة إلى مدارس أخرى عبر المغرب الأوسط - كما ذكرنا - ، فكان راعيا للعلم مقدرا لأهله باذلا ما في وسعه لنشره، فكانت تلمسان في ذلك العهد عاصمة العلم و العلماء[2]. يقول ابن خلدون في ذلك : " كان السلطان أبو الحسن لدينه و سراوته و بعد شأوه في الفضل يتشوف إلى تنويه مجلسه بالعلماء و اختار منهم جماعة لمصاحبته و مجالسته"[3]. و حين خروجه إلى تونس ، كان موكبه حافلا بالعلماء[4] لاتخاذه مظهرا من مظاهر دولته في تقدير العلم و التباهي به، و يرجع بعض المؤرخون اهتمام هذا السلطان بالعلوم و تكريس الوسائل لها من بناء المدارس يخفي وراءه رغبة المرينيين في إضفاء الشرعية التي كانت تنقصهم[5]. و نزع نظرة الغزاة الطامعين من نفوس المغاربة، ومهما كان الهدف، فالواقع أن العلم ازدهر في عهدهم و نشطت الحياة العلمية، وظهر جيل من العلماء والمؤرخين يشهد لهم التاريخ بمساهمتهم في التجربة العلمية و المعرفية. و ارتفع المغرب الإسلامي بهم

---

(1) – عن ترجمة هذين العلمين ، أنظر التنسي، مصدر سابق ص. 162 .

(2) – ابن خلدون، العبر، ج7 ،ص.80.

(3) – نفسه ، ص.377.

(4) – نفس المصدر، ص.ص. 373،376،377. و عن العلماء المرافقون للسلطان ، أنظر نفس المصدر ، ص ص.380. إلى 383.

(5) – Dhima. (A), OP. CIT, P.313.

و ما زالت مؤلفاتهم تحفظ لنا صورة ذلك العصر وما وصلوا إليه من رقي وازدهار.

قضى السلطان أبو الحسن أغلب فترة حكمه بتلمسان التي اتخذ منها المنصورة عاصمة له و مقر إقامته إلى أن توجه إلى تونس قاصدا فتحها[1] سنة(142ه/948م)، فكان له ذلك. و أصبح المغرب الإسلامي يخضع لسلطانه[2]، و عرفت الدولة المرينية أقصى اتساعها، لكنه لم ينعم بهذا إلا قليلا حتى دارت دائرة الطموح و النصر إلى هزيمة فقد فيها السلطان عرشه. فكان انهزامه أمام عرب تونس، وخروج ابنه وَ وَلِيُ عهده أبو عنان فارس عليه و استيلائه على العرش - في غياب أبيه – انكسارا لهذا السلطان[3]. فما كان منه إلا الإنسحاب و الأفول إلى المغرب الأقصى طالبا ملكه الذي ضاع. و كانت النهاية الأليمة بمحاصرته في جبال " هنتاتة " بالمغرب الأقصى من قبل ابنه إلى أن وافته المنية سنة (752 هـ/1352م)[4].

---

(1) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص.235.

(2) عن حملة السلطان أبو الحسن إلى تونس، كان في موكبه أشهر علماء تلمسان وفاس. ذكرهم الشاعر الرحوي في قصيدة له، أنظر في ذلك .-عبد الرحمن بن خلدون العبر،ج7، ص.374.

(3) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص.236.

(4) ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص .275.276.

II/ أهم المدارس التي بناها السلطان

أ) . مدرسة الصهريج (المدرسة الكبرى) .

- تأسيس المدرسة و تسميتها
- دراسة المخطط
- الصحن
- قاعة الصلاة
- غرف الطلبة
- الميضأة
- الزخارف الفنية
- أشكال و صور للمدرسة

- تأسيس المدرسة و تسميتها :

بناها الأمير أبو الحسن في عهد والده السلطان أبو سعيد عثمان و استغرق بناؤها مدة عامين(721-723 هـ /1321-1323 م)[1] .

تقع بالقرب من جامع الأندلسيين بفاس، و هي عبارة عن مجمع معماري متكون من " مدرسة الصهريج " أو المدرسة الكبرى و المدرسة الصغرى أو " مدرسة السبعيين"، و دار " للضيافة" عرفت بدار " أبي حبسة " حسب اللوح التأسيسي للمدرسة. لكن هذه الدار سقطت كليا و أعيد بناؤها سنة 1916م[2]! أنظر (المخطط.1).

و تحتوي مدرسة الصهريج على حوض كبير يتوسط صحنها، نقل إليها من الأندلس[3]، عبر البحر إلى فاس، و هو حوض كبير من الرخام الأبيض، و كانت تدعى أيضا بمدرسة الرخام، ربما نسبة إلى هذا الحوض. وضع هذا الأخير في المدرسة المذكورة سنة 725 هـ/1325م، و بعدها حول إلى المدرسة المصباحية بعد بنائها و مازال بها إلى اليوم.

---

(1) - Terrasse , Coharles , Medersas du Maroc, p.19 .

(2) - Bel.Alfred , inscription, P. 116.

(3) - جلب هذا الصهريج من مدينة " المرية " الأندلسية في عهد السلطان أبي الحسن، طوله 3,20م و عرضه 1,5م. نقل إلى المدرسة المصباحية بعد اكتمال بنائها سنة 747 هـ/1347م، و جلب الكثير من الأحواض الأندلسية إلى المغرب الإسلامي في هذه الفترة أشهرها حوض من مدينة " الزهراء " الذي جلب إلى مراكش. و يحتوي على زخارف نباتية و حيوانية : عن هذه الأحواض أنظر/ مانويل جوميت مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع و عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف و الترجمة دون تاريخ، ص.114 .

- دراسة المخطط :

تحتوي هذه المدرسة على كتلتين رئيسيتين: أولهما المدرسة نفسها و الثانية قاعة الوضوء (الميضأة) و التي يقارب حجمها ثلث المدرسة (المخطط.1).

يتوسط هذه المدرسة صحن مستطيل، تليه قاعة الصلاة جنوبا، و يقع مدخل هذه القاعة مع المدخل الرئيسي للمدرسة.

- الصحن :

يظهر الصحن على شكل مستطيل يمتد من المدخل إلى قاعة الصلاة، و يحيط به رواق من الجهات الثلاث المقابلة لهذه القاعة، و طول هذا الصحن 12,30 م و عرضه 7م. و يوسطه حوض بازز عن أرضية قليلا يمتد بموازاة المحور الذي قسم المدرسة إلى جزئين متناظرين (المخطط) يبلغ طوله 7,5م أي حوالي نصف طول الصحن و يقارب عرض الصحن أيضا.

يفتح الرواق الذي يحيط بالصحن بواسطة عقود رفعت على أعمدة رخامية. و تحمل هذه العقود زخارف جصية و عددها أربعة في كل جهة من الجهتين الموازيتين لقاعة الصلاة. أما الرواق المستعرض أمام المدخل فيحتوي على فتحة أكثر إتساعا. وهو عبارة عن عقد كبير.

- قاعة الصلاة :

واسعة لا تحتوي على عقود و لا على دعامات و تشغل هذه القاعة ثلث مساحة المدرسة تقريبا حوالي 14,30 م طولا و 4,25 م

عرضا (المخطط.1) و تتصل هذه القاعة بالصحن بواسطة ثلاث فتحات، الوسطى أكبرهم، و هي البداية الرئيسية لهذه القاعة، ينتصب عليها عقد مقرنص يحتوي في واجهته على زخارف نباتية و هندسية (اللوحة.1).

و يتوسط جدار القبلة لقاعة الصلاة محراب مضلع، وإلى جانبيه فتحات ربما كانت مستغلة لوضع الكتب، لكن لم تحدد وظيفتهم بالضبط حسب " **مارسيه** "، و **ألفرد بال**[1]. ولا يبرز هذا المحراب عن جدار القبلة .

لبست الجهة السفلية لجدار القلعة بزخارف من الزليج، أما في الأعلى فكان الجص يشغل المساحة العلوية بأشرطة كتابية و سلسلة من العقود الصماء الممتلئة بزخارف نباتية و هندسية، و ينتهي الجدار إلى قبة دائرية مسقوفة بالقرميد الأخضر الهرمي الشكل.

- غرف الطلبة :

فتحت هذه الغرف باتجاه الصحن في الرواقين الجانبين لقاعة الصلاة، يفتح على الرواق الغربي أربعة غرف إحداهما كبيرة ربما خصصت للأساتذة، و على يمينها المدخل و في نهاية الرواق يوجد السلم الذي يصل إلى الطابق الأول الذي يخصص لغرف الطلبة، لم تأتي هذه الغرف متناسقة في لمقاسات لكن متوسط مساحاتها يتعدى العشر أمتار .

---

(1) - Bel. Alfred, op.cit, p . 139 .

- الميضأة :

يتوسطها صحن مكشوف، تحيط به المراحيض و غرف الاغتسال و يتوسط الصحن حوض مخصص للوضوء به نافورة، و تتصل بالمدرسة بواسطة رواق ينتهي إلى يسار المدخل الرئيسي، كما تحتوي هذه الميضأة على غرف بالجهة الجنوبية لها، قد تكون مخصصة للتخزين، و أهم ما يميز الميضأة إتصالها بباب مستقل عن المدرسة يصلها من الشارع في نفس جدار المدخل أنظر (المخطط.1).

- الزخارف الفنية :

من الواضح أن هذه المدرسة تعرضت إلى تشوهات كبيرة في زخارفها الأصلية، كما تعرضت لتدهور كبير مس كامل المدرسة في الفترة الاستعمارية و قبلها - أنظر (اللوحة.3 ، 4) - و الترميمات التي أجريت عليها تركت بصماتها في تعتيم أصالة هذه الزخارف فشهدت هذه المدرسة إصلاحات في عهد السعديين الأشراف، مست المخطط الأصلي. حتى أن عامة الناس اعتقد و أن عبد الله الشريف السعدي هو الذي بنا المدرسة، و هذا راجع لحالة المدرسة التي كانت مهملة ثم أعيد بناؤها تقريبا بالكامل[1].

---

(1) _ Bel Alfred, inscription arabes de Fès, P 115 .

ب) . مدرسة السّبعيين :

بناها الأمير أبو الحسن، في نفس الفترة مع المدرسة السابقة الذكر، و تعد ملحقة لها لاتصالها بها و صغر حجمها الذي لا يتعدى نصف حجم الكتلة المعمارية لمدرسة الصهريج، و تتصل معها في الجدار الشرقي الجنوبي بواسطة باب يفتح على قاعة صلاة المدرسة الكبرى - الصهريج - في الجدار الشرقي لها. و سميت بمدرسة السبعيين نسبة للقراءات السبع[1]، و تتكون المدرسة من صحن مكشوف و قاعة للصلاة و غرف للمقرئين .

- الصحن :

يتوسط المدرسة صحن مكشوف يحيط به رواق من الجهات الأربع يفتح إليه بواسطة عقود ثلاث في الجهتين الموازيتين لقاعة الصلاة، حجم هذا الصحن صغير مقارنة بصحن مدرسة الصهريج لا يتعدى 10 م و عرضه 03 م.

و يتوسط هذا الصحن نافورة جميلة من الرخام المنحوت، و مخططها لا يضاهي المدرسة الأولى، لكنها تشبه دار العلوم أو دار الحديث في المشرق من حيث مخططها العام. أنظر(المخطط.1).

---

[1] – كان يقرأ فيها القرآن على حسب التلاوات السبع المشهورة للقرآن 1 – قراءة نافع، 2 – قراءة ابن كثير الداري، 3 – أبو عمر، 4 – اليحصبي، 5 –اليحصبي، 6 – حمزة ابن حبيب، 7 – الكسائي. أنظر في ذلك – محمد الزحيلي، مجمع العلوم الإسلامية. دار المعرفة ، دمشق ، ط2، 1992، ص.149.

- قاعة الصلاة :

تمتاز هذه القاعة بشكلها المربع لها مدخل في منتصف جدارها الغربي الذي يفتح إلى الصحن بواسطة عقد متجاوز زينت واجهة بزخارف نباتية و هندسية. و كالمدرسة السابقة كسيت أسفل جدارها بالزليج، و هذه ميزة للمدارس المغربية سنتناولها بالتفصيل، و يذهب تساؤل " شارل تراس " إلى أنها ليست قاعة للصلاة بل القرآن فقط[1].

- غرف الطلبة :

هناك 13 غرفة في الطابق الأرضي محيطة بالصحن، أما الطابق العلوي نصعد إليه بسلم في الشمال الغربي لهذه المدرسة و هو مخصص لبيوت الطلبة فقط، و مدخل المدرسة جانبي و منكسر يتصل برواق منعطف من الجهة الشمالية لقاعة الصلاة، و لا نستطيع تحديدا لماذا وجد هذا المدخل ؟ إلا إذا وافقنا على أن قربه للسلم الذي يصل بالطابق العلوي يكون سببا في هذا الموقع. أو ربما كان ذلك لتسهيل اتصال الطلبة بغرفهم مباشرة دون المرور بالصحن، و هذه المداخل المنكسرة ميزة معروفة في المدارس عموما لكونها مؤسسات خاصة ليست كالمسجد، فالمار من الشارع لا يرى ما بالداخل.

والمدرسة مسقوفة كالأولى - بالقرميد الأخضر على شكل هرمي (جملوني)، و قاعة الصلاة مسقوفة بقبة هرمية الشكل .

---

(1) - Terrasse (ch), medrasas du Maroc, P.20 .
أنظر أيضا / Golvin , la madrasa medievale, PP.222.223.

و لا بد أن نشير إلى أن هذا المركب المعماري المتكون من المدرستين و بيت الضيافة لا يحتوي على مئذنة.

إلا أن هذه المدرسة عانت التخريب و أجريت عليها ترميمات كسابقتها مست زخرفتها الأصلية إذ أعيد تشكيل معظمها في بداية القرن الماضي [1].

جـ- مدرسة أبو الحسن - سلا[2]:

بنيت هذه المدرسة في فترة حكم السلطان أبي الحسن وانتهت بها الأشغال سنة (742هـ /1342م)[3]، و هي أقدم من المدرسة "المصباحية " بفاس، و " مدرسة العباد " بتلمسان بأربع أو خمس سنوات، و تاريخ تأسيسها موجود بلوح الحبوس في الجدار الغربي لقاعة صلاتها.

و تعد من روائع الفن المريني الذي ازدهر في عهد هذا السلطان، و مازالت باقية إلى اليوم كصورة حية لفن لقرن الرابع عشر.

---

(1) Terrasse , op.cit, p. 16 .

(2) – سلا مدينة مغربية، تعد أحد المراكز الثقافية بعد فاس ، تعود إلى العهد الموحدي في القرن الثاني عشر تقع غرب مدينة الرباط على الساحل الأطلنطي، و في العهد المريني ازدهرت بها الحياة لثقافية خاصة في عهد السلطان أبي الحسن وبعده ابنه أبي عنان، بنى فيها الأول مدرسة تعرف باسمه، و بنى ابنه مستشفى (مارستان) بها مازال بقايا إلى اليوم أيضا. عن هذه المدرسة أنظر / T errasse .(ch) ,OP, Cit, P.16.

(3) – بنيت تزامنا مع جامع مستغانم بالجزائر من طرف نفس السلطان، أنظر/ Bel.Alfred, op.cit, p.243.

- مخطط المدرسة :

يتوسط المدرسة صحن مكشوف يحيط بـــه رواق مـــن الجـــهات الأربع، و هذه خاصية في المدارس المغربية، أنظر (المخطط.4)،طول هذا الصحن الذي يتعامد مع قاعة الصـــــلاة، 8,5 م و عرضـــه 4,25 م: يتوسط الصحن حوض صغير مربع به نافورة .

يلي الصحن قاعة الصلاة المستطيلة الشكل تتعامد مـــع الصحـــن الذي يشكل مستطيل. مقسمة إلى أجزاء ثلاث بواسطة عقدين يحولانـــها إلى قاعة وسطى و قاعتين جانبيتين أنظر(المخطط.4)، و قاعة مسقوفة بقبة هرمية قائمة على أربعة أضلاع .

و زين الجزء العلوي من القاعة بالخشب المنقوش و سقفت القاعة كلها بالقرميد الأخضر (النصف الدائري) .

و لا يبرز المحراب من جدار القبلة كما هو الحال فـــي محـــراب قاعة صلاة مدرسة الصهريج. وطول هذه القاعة 8,7م وعرضـــها 4,25م و لها باب يطل على صحن عرضه 2م [1]، (اللوحة.8،9) .

- بيوت الطلبة :

من الملاحظ هنا أن الطابق الأرضي لا يحتوي على بيوت الطلبة، فكلها أتت في الطابق العلوي الذي يوصلنا إليه سلم في النهاية الجنوبيـــة للرواق الشرقي للصحن الذي يفصله عنه جدار أنظـــر(المخطـــط.5)، و هذا يؤدي إلى تكوين بهو يشترك فيه السلم مـــع المدخـــل الرئيســـي للمدرسة .

---

(1) _ Terrasse . (ch) , op.cit, p.15.

و يحيط بالغرف رواق من الجهات الثلاثة للمدرسة، و تفتح إليه هذه الغرف، (حسب المخطط.4،5).

و هي ميزة لا نراها إلا في هذه المدرسة، أما الصحن فتفتح عليه النوافذ الخلفية الغرف، التي يقارب عددها العشرة.

أما المدخل؛ الذي يأتي في أقصى شرق الجدار الجنوبي للمدرسة يعد أحد أروع المداخل في المدارس المغربية؛ فقد زين من الخارج بعقد حدوي مرتفع البناء، زين بإطار زخرفي قوامه الحجر المنحوت و عقد حدوي أصم، مفصص عبارة من حلقة تلتف حول عقد الباب. (اللوحة - 07)، كما زين إطار الباب بزخارف كتابية جاءت على شكل شريط زخرفي محيط به من الجهة العلوية، و الجهتين الجانبيتين في شكل أبيات شعرية تدعو للتأمل في جمال و قيمة هذه المدرسة، و فوق الباب وضعت سدة خشبية منحوتة على شكل كوابل تحمل ظلة مسقوفة بالقرميد الأخضر النصف الدائري على شكل هرم، و من أهم ما يميز هذه البوابة إرتفاعها على مستوى الشارع و إرتقاء خمسة أدراج من الحجر المنحوت عن مستوى الشارع إلى عتبتها .

أما بيوت الوضوء فقد فتحت إلى الصحن في الطابق الأرضي و في الأروقة الثلاثة المقابلة لقاعة الصلاة، على شكل فتحات معقودة، إحتجبت عن الصحن بواسطة شبابيك خشبية. و وضعية بيت الوضوء (الميضأة) هذه لا توجد إلا في المدرسة. التي إختصت بميزة معمارية منفردة عن مثيلاتها من المدارس المغربية. بفضل هذه التخطيطات

المبتكرة في وضعية الميضـــأة، و إتجـــاه غـــرف الطلبـــة إلـــى رواق يحيط بها.

- مميزات مدرسة – سلا – المعمارية و الفنية :

تعد مدرسة أبو الحسن بسلا – أصغـــر مدرســـة فـــي المغـــرب الإسلامي لهذه الفترة. و التي ما زالت تحافظ علـــى قيمتـــها الأثريـــة و الفنية، فالرواق المحيط بالصحن من الجهات الأربـــع، و المحـــراب المضلع المكسو بالزليج الملون خاصية للمـــدارس المغاربيـــة، و يعـــد المحراب أكثر العناصر المعمارية غناء بالزخرفة لاعتناء الفنان به .

و كسي أسفل جدرانها بالزليج الملون، و يليها زخرفة بألواح فنيـــة من الجص رفعت فوق مفاتيح العقود (اللوحة.09، 10) و كسبت أعمـــدة عقود الصحـــن بـــالزليج، و هـــذه خاصيـــة مشـــتركة مـــع مدرســـة العباد بتلمسان .

أما قاعة الصلاة غطي الجزء العلوي منها بالخشب كما عرف فـــي المدارس المغربية التي سبقتها. و إستعملت فيها الزخارف الفنية الكتابية، و النباتية، و الهندسية، بتناسق، و براعة بالغين في الإتقان. و غطيـــت أرضية الصحن باللون الأخضر الذي له قيمـــة خاصـــة فـــي نفـــوس المسلمين[1].

---

(1) - Golvin. L, la Madrasa médiévale, P. 284.

أنظر أيضا/

محمد الكحلاوي، المدارس المغربية، دراسة أثريـــة، معماريـــة، مقـــال، بمجلـــة العصـــور تصدر عن دار المريخ للنشـــر –لنـــدن، المجـــل الســـادس، الجـــزء الأول جـــانفي، 1991، (من ص.71، إلى ص. 167). ص.103.

د) . المدرسة المصباحية بفاس :

حظيت فاس بمدارس عديدة في العهد المريني، منذ تأسيس أولى المدارس بها، فقد إختصها السلطان أبو الحسن بمدرسة. عرفت " بالمصباحية "، و التي تقع قرب جامع القرويين، و تزامن هذا مع بناء " مدرسة العباد " بتلمسان 746 هـ/ 1347 م. و عرفت بهذا الإسم نسبة للعالم مصباح الذي درس بها لأول مرة [1].

و تحتوي على عدد كبير من الغرف الذي يقدر بـ 117 غرفة . و بقيت تأوي الطلبة حتى بداية القرن الماضي، لكنها عانت الكثير من الترميمات التي أفقدتها جمالها الأصيل[2].

و مست هذه الترميمات عدة عناصر هامة في المدرسة، على مستوى الزخارف، و كذلك في المخطط العام، بإضافة و حذف بعض العناصر المعمارية، و بمقارنة بين مخطط المدرسة، الذي قامت به مصلحة الفنون الجميلة الفرنسية في بداية القرن الماضي. و المخطط الجديد، نرى التغيرات و التشوهات في المخطط العام واضحة، و التي تظهر جليا في إستحداث محراب في قاعة الصلاة. أنظر (المخطط 07، 09).

---

(1) – أحد العلماء المقربين للسلطان أبي الحسن أنظر/ عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المسجد و الجامعة بمدينة فاس، ج 2، دار الكتاب اللبناني، 1973، ص.359.

(2) – بقيت المدرسة المصباحية مشغولة بالطلبة حتى بداية القرن الماضي إلى سنة 1919، و عن ظروف الطلبة و حياتهم داخل المدرسة (أنظر، **Bel Afred, op.cit p.184.**

partie K les medrasas de FES , in archives Marocaine vol XVIII – Paris. 1912. P.257 et ...

H.Gaillard , une ville de l'islam ,FES , Paris 1905.p.115.

و في الجدار الجنوبي يوجد المدخل الرئيسي للمدرسة، و الذي يطل على أحد مداخل جامع القرويين كما يوجد مدخل للميضأة في هذا الجدار (المخطط، 07).

- مخطط المدرسة :

- الصحن : يحيط به رواق من الجهات الثلاث المقابلة لقاعة الصلاة، و تبلغ مساحته (8 م x 7 م)، و يتوسط هذا الصحن الحوض الكبير، أو الصهريج الذي جلب من " مدرسة الصهريج "، بأمر من السلطان أبو الحسن نفسه[1].

أما قاعة الصلاة ففتحت على الصحن من الجهة المغربية، لها شكل مربع تقريبا (7،50 م x 8،80 م). و لا تحتوي على محراب سوى فتحة مستحدثة - كما أشرنا إليه -، أما بوابتها فمزينة بعقد توأم مرفوع بعمودين رخاميين، (اللوحة . 14)، كما إحتوت القاعة على رفوف، و خزائن الكتب. و كسيت بالزليج في الجهة السفلية، أما الجهة العلوية فزخرفتها من الحصن.

- غرف الطلبة : إمتازت هذه المدرسة بأنها تحتوي على ثلاثة طوابق، و كلها تحتوي على غرف للطلبة، مما مميز المدرسة العدد الكبير للغرف .

---

(1) - تعرف " بمدرسة الخصة " كما جاء في ألواح الحبوس، نسبة إلى الحوض العظيم الذي حول إليها بعد أن كان في فناء مدرسة الصهريج و هذا الاسم ما يزال يطلق على النافورات و الأحواض في مدينة تلمسان.
التازي مرجع سابق، ص. 359.

و تفتح هذه الغرف إلى الصحن (اللوحة . 12) أبوابها مفتوحة بعقد دائري، تفتح إلى رواق يحيط بالصحن يؤدي إلى السلم، الذي يتواجد بالجهة الجنوبية، على أقصى يسار مدخل المدرسة.

- الميضأة :

تقع على يسار المدخل الرئيسي، و تفتح على الشارع - الذي يفصلها عن مدخل جامع القرويين - بمدخل مستقل يوصل إلى رواق يؤدي إلى صحن صغير، يتوسطه حوض كبير تحيط به بيوت الوضوء، و المراحيض من الجهات الأربع و تتصل هذه القاعة بالصحن بواسطة. رواق يؤدي إليه. و يذكر التازي أن هناك لوحة رخامية تصل الميضأة بأحد أبواب جامع القرويين، يستعملها الطلبة كممر، يمشون فوقها حفاة إلى المسجد بعد الوضوء مباشرة[1].

- الميزات المعمارية، و الفنية للمدرسة :

من خلال المخطط نستنتج أن الموقع و مساحة الأرض فرضتا هذا التصميم الذي جاء مميزا لعدم إحترام المعمار للترتيب الذي شاهدناه في المدارس السابقة، في موقع بيت الصلاة من الجهة الجنوبية للمدرسة، و هذا راجع كما هو معروف إلى وظيفتها التي أراد منها السلطان أبو الحسن أن تأوي أكبر عدد ممكن من الطلبة الذين يتابعون تعليمهم بجامع القرويين[2]، المتصلة به، و يؤكد هذا أيضا عدد الغرف،

---

(1) - التازي مرجع سابق، ص. 359 .

(2) _ Bel.Alfred, op.cit, p.243.

- أنظر أيضا / Marçais. (G).A.M.O, p.289.

و عدد الطوابق الذي يصل إلى ثلاثة، و إستقلال بيت الوضـــوء ببـــاب خاص يضيف إحتمال مشاركة العامة في إستعمالها، خاصة أنها جـــاءت بمحادات مدخل الجامع[1].

كما أن عدم إحتواء قاعة الصلاة على المحراب. يؤكد دور هـــذه القاعة في أنها مخصصة للدروس فقط، أما الصلاة فكانت تقام بالجـلمع. و في القديم كانت تصل برواق خاص إلى جامع القرويين[2].

أما القيمة الفنية للمدرسة فلا تنقص شأنا عن باقي مدارس المغرب الإسلامي، و مدارس فاس على الخصوص، فقد طبقت فيـــها العنـــاصر الفنية، و المعمارية لذلك العهد. و خاصة أنها أتت في العاصمة المرينية، و تحت إشراف السلطان أبي الحسن نفسه، و ما زالت المدرسة تحـــافظ على عناصر أصلية رغم ما تعرضت له من ترميمات، فالمدخل المزيـن من الخشب المنحوت تعود زخارفه إلى عهدها الأول، و إحتوى الصحن على أعمدة رخامية، و تيجان زينت بمراوح نخيلية، و زهرة الصنوبـر، كما أن احتوائها على الصهريج الكبير ذو الأصل الأندلســـي، زاد مـــن شهرتها و قيمتها. و إحتفاظ الجهة الجنوبية للصحن بزخرفتها الجصيـــة الأصلية، الذي يرجع إلى حمايتها الطبيعية مـــن الرطوبـــة و الأمطـــار و مقابلتها لأشعة الشمس)[3]. تعطي لنا صورة واضحة عـــن الزخرفـــة الأصلية للمدرسة .

---

(1) - أنظر أيضا/ Golvin , la madersa médiévale ,pp. 234,235.

(2) - Terrasse (ch), op.cit,p.20 .

(3) - Bel.Alfred, op.cit , p.247.

و تعد المدرسة المصباحية أغنى المدارس المرينية لما توفره لـــها عائدات الحبوس من غابات الزيتون. و البســـاتين و خزائـــن الدباغـــة، و الحوانيت، التي تدر بعائدتها على الطلبة و المدرسين.

و رغم هذا الثراء، عرفت المدرسة تصدعا كبـــيرا فـــي هيكلـــها و أغلقت تماما في بداية القرن الماضي[1].

هـ) . المدرسة البوعنانية بمكناس:

حملت هذه المدرسة إسم السلطان أبي عنان برغم إنطلاق الأشغال بها في حدود 745 هـــ / 1345 م، أي في عهد السلطان أبـــي الحســـن، لكنها لم تكتمل إلا في عهد إبنه، و تقع المدرسة بالقرب مـــن الجـــامع الكبير بمكناس، و أهم ما يميزها، المدخل التذكاري الشاهق، و الذي ميز المدارس المغربية، و العمارة المرينية عموما، كبوابة جامع المنصـــورة بتلمسان، و بوابة جامع سيدي أبي مدين بالعباد، و تحمل هذه المدرســـة باب ملبس بالنحاس، لكنها تعرضت لترميمات، أو إعادة بناء جعلتها تفقد أصالتها الفنية، و الزخرفية، برغم محاولـــة الحفـــاظ علـــى زخارفـــها و مخططها الأصلي[2].

- مخطط المدرسة :

الصحن : مستطيل الشكل. (11،53 م/7،56 م)، يتوسطه حـــوض مربـــع طول ضلعه 3 م، يحيط به رواق من الجهات الثـــلاث المقابلـــة لقاعـــة

---

(1)- التازي عبد الهادي ، مرجع سابق ،ص .363.

(2)- أعيد بناؤها كلية سنة 1919 م ، أنظر / Terrasse (ch) , op.cit, p.31.

الصلاة، و يفتح الرواق على الصحن بواسطة عقود ثلاثة في كل جهة، و العقد الأوسط كبير. مثبت على دعامات مربعة الشكل. (اللوحة.17).

- قاعة الصلاة : تفتح على الصحن من الجهة الجنوبية، مستطيلة الشكل موازية لطول الصحن (المخطط.10)، و هي خالية من عقود أو غرف إضافية و محرابها مضلع بارز عن جدار القبلة، يرقى إرتفاع القاعة إلى مستوى الطابق الثاني من المدرسة.

- غرف الطلبة :

يحتوي الطابق الأرضي على 13 غرفة مخصصة للطلبة، بالإضافة إلى غرف تبدو أنها ذات أغراض أخرى، أما الطابق العلوي مخصص كله للغرف، فتحت إلى رواق، و في الجناح الغربي توسط الرواق صفين من الغرف و تفتح إليه .

أما من جهة الصحن فتحت نوافذ هذه الغرف لدخول الضوء و الهواء كما شاهدناه في مدرسة " أبي الحسن " بسلا .

أما الميضأة : تتصل بالمدرسة من الجهة الغربية بواسطة رواق يفصلها عنها، و ينتهي من الشمال بباب خلفي للمدرسة مقابل للسلم المؤدي للطابق العلوي، أما من الجنوب يصل هذا الرواق بالمدخل الرئيسي، و تفتح إليه المدرسة من الجهة الغربية للصحن براوق عمودي عليه .

و أهم ما يميز الميضأة كبر حجمها، و احتوائها على عدد أكبر من الحجرات الصغيرة، المحاطة بالصحن الذي يتوسطه حوض من الماء لغرض الوضوء، كما أن لها باب مستقل من الجهة الغربية ربما يرجع

لإشراك العامة في هذه الميضأة، دون المرور عبر رواق المدرسة، أو أنها مستحدثة بعد عملية الترميم.

- مدخل المدرسة :

و بانتهاء الرواق المستعرض الذي يفصل المدرسة عن الميضأة من الجهة الجنوبية، يبرز قليلا إلى الجنوب مستقلا عن الكتلة المعمارية مشكلا مربعا منفصلا عنها، فتح من الجهات الأربع بواسطة عقود و مغطى بقبة مفتوحة في الأعلى (اللوحة.16)،في شمال هذا المربع فتح المدخل المستطيل الذي يحتوي على باب خشبي مكسو بالنحاس المنقوش .

- القيمة الجمالية و الأثرية للمدرسة :

تعد المدرسة البوعنانية بفاس نقطة إتصال بين مدارس السلطان أبي الحسن، و مدارس أبي عنان إبنه، و ذلك لبقاء المخطط على حاله في مدارس أبي الحسن ذات الصحن المستطيل، و الطابق العلوي لا تفتح غرفه على الصحن مثل مدرسة سلا، كما أن محرابها المضلع و وقوعه في الجدار الجنوبي يذكرنا بمدرسة الصهريج- السابقة الذكر- و مدرسة بسلا [1] .

---

[1] - أنظر/ Marçais . (G), A.M.O, p.291 .

و) . مدرسة سيدي أبي بومدين "العباد" :

إضافة إلى المدارس المذكورة التي شيدها السلطان أبو الحسن و التي تقع كلها بالمغرب الأقصى و التي ما زالت باقية إلى اليوم، هناك مدرسة سيدي أبي مدين " العباد " بتلمسان التي تقع خارج منطقة المغرب الأقصى و ما زالت تحافظ على هيئتها الأولى، وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل في الفصول الآتية .

III/ النظام الداخلي لمدارس السلطان أبي الحسن :

لقد وضعت قوانين و لوائح صارمة تحدد قبول الطلبة للإلتحاق بهذه المدارس، و كذلك حددت مصادر تمويلها بإجراء الأوقاف عليها، و تجعل ميزانية خاصة بها، و روعي في ذلك تجنيد طاقم من الموظفين يسهرون على تسييري كل مدرسة، وهذا النظام معمول به في معظم المدارس بما فيها مدارس السلطان أبي الحسن و يتمثل في:

أ)- شروط الإلتحاق بالمدارس :

عمل المشرفون على هذه المدارس في تحديد عمر الطالب الذي يريد الإلتحاق بالمدرسة بحيث لا يقل عمره عن عشرين عاما، و أن لا يزيد على ذلك [1]. و من الشروط العلمية يجب أن يكون الطالب حافظا للقرآن الكريم، و لبعض المتون الفقهية، التي تعتبر شهادة تأهيلية للدخول إلى المدرسة، هذا و قد حددت مدة إقامة الطالب بسبع سنين، يضمن خلالها مأكله، و ملبسه، و مأواه بصفة عامة، وقد كان الطلبة والأساتذة أعوان المدارس ينعمون بحياة رغيدة، بما يغدق عليهم من أموال الأوقاف، ولاسيما في العهد المريني و الزياني[2].

---

[1] - المنوني محمد، العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين، تطوان المغرب، 1950، ص. 203.

[2] -التازي عبد الهادي جامع القرويين، المسجد و الجامعة بمدينة فاس ج2، دار الكتاب البناني، 1973، ص 356 .

ب) - المصادر المالية :

من خلال قراءتنا للوحات الحبوس (لوح الوقف)، التي ثبتت في معظم المدارس المغربية و خاصة المرينية منها، و نتكلم على لوح حبوس مدرسة العباد الذي يحدد الأملاك و العقارات التي تعود خيراتها على المدرسة و بالتالي على الطلبة المقيمين بها، و هذا اللوح مثبت بإحدى دعامات جامع سيدي أبي مدين بالعباد، يذكر اللوح مايلي : "... و حبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة..." [1].

و هذا النص يحدد عشرين موقعا، أريد وقفه على الجامع والمدرسة .

و يحتوي على سبعة عشر بستانا و جنانا في نواح عديدة بضواحي تلمسان، زيادة إلى حمام داخل تلمسان يدعى بحمام العالية و الذي يحتوي على حانوتين، و دار صغيرة و نصف حمام بمدينة المنصورة - أنذاك - و دار تدعى بدار المعروف .

و يعد لوح الحبوس وثيقة رسمية، نقشت على لوح من الرخام و علقت في الجامع، أو المدرسة أمام الناس، كي لا يعبث بهذه الأملاك [2] .

---

[1] - أنظر النص الكامل للوح الحبوس بالملحق من هذه الرسالة ص . 133 .
يعد لفظ الحبوس من الألفاظ التي شاع إستخدامها في المغرب و الأندلس، و يعرف في المشرق بالوقف و هو عبارة عن مجموعة أملاك عقارية أو زراعية ترجع عائداتها إلى ما و قفت عليه، أنظر/ محمد الكحلاوي مرجع سابق ص.81.

[2] - صالح بن قربة، مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العصر الإسلامي، مجلة الدراسات الأثرية، حولية علمية يصدرها معهد الآثار جامعة الجزائر ، العدد 02 سنة 1992 ، ص. 63.

هذا إلى جانب عطايا السلطان التي ترتبط مع المناسبات كالأعياد، و شهر رمضان، و التي تتمثل في الألبسة، الكتب و غيرها ...

جـ)- الوظائف المحدثة في المدرسة :

كانت المدرسة تدار بطاقم من الموظفين العاملين عليها، و الـــذي تكلم عنه إبن مرزوق في قوله: " و أجرى (يقصد السلطان أبو الحسن) المرتبات على الطلبة و العونة و القيّم، و البواب، و المؤذن، و الإمـــام، و الناظر و الشهود و الخدام..." [1].

و من خلال هذا النص التاريخي يتضح لنـــا أن هـــذه الوظـــائف انحصرت في :

- إمام يقوم بتأدية الصلوات الخمس بمعية الطلبة.

- مؤذن يقوم بتأدية الأذان، و هذا يكون مستبعدا في مدرسة العباد بتلمسان، و ذلك لوجود مئذنة الجامع، محاذية للمدرسة (اللوحة).

- المدرسون و هم القائمون على الدروس و شـــرحها و متابعـــة برامج التعليم ، يليهم مدرسون أقل درجة يعرفون بالعونة.

إلى جانب هذه الوظائف الرئيسية، كانت وظائف تخـــص جـــانب الحراسة، و التنظيف، كالبواب، و الخدم، و أمين المكتبة التـــي تـــظـــم الكتب المحبوسة لخدمة الطلبة[2]. هذا إضافة إلى القيّم.

---

[1] - إبن مرزوق ، مصدر سابق، ص. 406.

الفصل الثاني

مدرسة سيدي أبي مدين "العباد"

I/ الدراسة الوصفية .

- تسمية المدرسة .

- موقع المدرسة الجغرافي و العمراني .

- الوصف المعماري للمدرسة .

أ- الوصف الخارجي .

ب- الوصف الداخلي .

II / الترميمات التي أجريت على المدرسة .

تسمية المدرسة :

تعرف المدرسة بالموقع الذي بنيت فيه " العباد "، إلا أن البعض يطلق عليها إسم المدرسة الخلدونية، نسبة للمؤرخ و العالم عبد الرحمن ابن خلدون، ذلك لأنه استقر بالعباد ويحتمل أنه درس بها حين إقامته التي لم تدم طويلا، وهذا في فترة متأخرة بعد بنائها، لكن العلامة لم يذكر صراحة تدريسه بالمدرسة فيقول: " و استقررت بها – تلمسان– بالعباد، و لحق بي ولدي من فاس، و أقاموا معي، و ذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وأخذت في بث العلم... " [1] و من هذا نستدل أن العلامة قد درس بهذه المدرسة، و هذا التاريخ 776 هـ/1376 م، يزامن فترة ملك السلطان أبي حمو موسى الثاني سلطان بني زيان .

و لتسليمنا بأنه درس بها، فهذا ليس بالضرورة أن تحمل المدرسة اسمه، فحين إطلاعنا على هذه المؤسسات نرى أن التسمية لا تأتي عفوية، فارتباط اسمها يكون رسميا إما نسبة للحي الذي توجد به، أو للمؤسس الذي اشرف على بنائها، (مدرسة أبو الحسن بسلا، المدرسة التاشفينية بتلمسان)، أو نسبة لعالم مشهور أنشئت لأجله، أو بإشرافه كما رأينا في المدرسة المصباحية بفاس، و أسماء المدارس هذه كتبت في اللوح التأسيسي لها بصورة واضحة، وقلما خلت مدرسة

---

[1] – ابن خلدون، العبر، ص ص. 447، 448 .

من هذا اللوح التأسيسي الذي يثبت الوقف، و يحصي أجور العمال و حقوق الطلبة، زيادة على هذا أن إسم هذه المدرسة يثبته جليا اللوح التأسيسي، و يربطها بالجامع لأن ذلك من ميزات المدارس المرينية، التي بنيت كملحقات للجوامع لتكون سندا للعلوم التي يتلقاها الطلبة في المساجد .

إلا أن إقامة العلاّمة بالعباد، و إلتقائه بعلمائها بعد مرحلة حاسمة في حياته، خاصة و أنها آخر محطة يزورها قبل إنقطاعه لكتابة مؤلفه المشهور " العبر " و لا يستبعد أنه أخذ الكثير من المخطوطات، و المعلومات من خزائن الكتب بتلمسان قبل انعزاله في قلعة ابن سلامة، لمدة أربع سنوات[1] .

أما التسمية الثانية التي تعرف بها مدرسة سيدي أبي مدين نظرا لارتباطها بموقع ضريح الشيخ سيدي أبي مدين و يتكلم عنها علماء الآثار و المؤرخون بداية من بروسلار، و مارسيه، و يربطون هذه التسمية و اقترانها مع الاسم الأول – مدرسة العباد – .

إلا أنه من المعروف عن المرينيين أنهم لم يبنوا المدارس على أضرحة، و يلحقوها بقبور سلاطين أو علماء سواء في المدارس، التي بنيت في المغرب الأقصى أو الأوسط[2] عكس ما شاهدناه في المدرسة الزيانية، كمدرسة ابني الإمام التي دفنا فيها بعد ذلك،

---

(1) – ابن خلدون العبر، ص. 449 .

(2) – Bel.Alfred, op.cit, p.91 .

و المدرسة اليعقوبية التي ألحق السلطان جثمان والده بـــها و المـــدارس التونسية كمدرسة "ابن تافراكين " التي تحتوي على ضريح مؤسسها [1] .

و لأن الجـــامع - جـــامع العبـــاد - إرتبـــط بإســـــم جـــــامع سيدي أبي مدين، ذلك لتخصيصه من قبل السلطان أبي الحسن إجـــــلالا و تقديرا لهذا الولي . و عرفت المدرسة بهذا الاسم أيضا .

و ذكر ابن مرزوق الأموال الجسيمة التي صرفها السلطان علـــى بناء المجمع الديني بالعباد، فصنع السقف من الخشب المنحوت، والبـــاب الخشبية للجامع التي زينت بكساء نحاسي أخذ عنه الصفارون 700 دينار ذهبا عينا عدا ثمن النحاس و الخشب و الأصبغـــة، و تفـــافيج جـــامور الصومعة المكلفة 370 دينارا ذهبا. و هذا البذل كله يعطي القيمة الكبيرة التي أعطاها بنو مرين لضريح الشيخ سيدي أبي مدين[2].

---

(1) _ GOLVIN Lucien: La medrasa médiévale. P.182.

(2) - ابن مرزوق، المسند، ص. 403 .

تأسيس المدرسة :

بنيت مدرسة العباد ضمن مركب معماري خصه السلطان المريني أبو الحسن بقرية العباد بظاهر تلمسان، و هذا المركب شمل إعادة بناء ضريح الشيخ الولي الصالح سيدي أبي مدين، و بناء المسجد الجامع حذاء الضريح، و بعد ثماني سنوات أضيفت هذه المدرسة غرب الجامع، و ذلك سنة 747هـ/ 1347م . حسب ما هو مبين في اللوح التأسيسي المثبت في إحدى دعامات الجامع المذكور[1].

موقع المدرسة الجغرافي و العمراني :

تقع مدرسة سيدي أبي مدين بظاهر تلمسان بقرية العباد التي تبعد بنحو كيلومترين جنوب شرق المدينة، والتي أخذت منها هذا الاسم " العباد " (الخريطة.02) .

و للعباد موقع على سفح الجبل الذي يقابل تلمسان من الجنوب محاطا بالقرية - العباد - بخضرته الدائمة . فزادها سحرا و رونقا يصفها بروسلار بأنها مغمورة في بحر من الخضرة، و حدائق العباد مصطفة و متدرجة إلى الأعلى و كأنها قاعة محاضرات [2] تتخللها السواقي الجارية، المحاطة بأشجار الزيتون و التين و التوت البري، فهو مكان إلهام، و ضالة الفنان و الشاعر الذي يبحث عن الرومانسية .

---

(1) - أنظر النص التأسيسي للجامع في الملحق .

(2) - M.C Brosselard, inscriptions arabes de Tlemcen, revue Africaine, 3eme Anée, N° 18, aut 1858,O.P.U, N° 3. 1858,59 Alger 1985 . P . 274 .

و زيادة على هذه الخصوصية الطبيعية للموقع فهو يمتاز بأهمية أكثر سموا، و عظمة و احترام روحي، انطلاقا من تسميته " العباد "، كأنه جمع بين الجمال المادي و الجمال الروحي معا، و وجود ضريح الشيخ سيدي أبي مدين زاده هذا الإجلال في نفوس الناس[1]، و إعطائه الصبغة الدينية، و التعبدية، بوجود الزوايا و الأربطة في هذا المكان، وتسمية العباد أتت اشتقاقا من " عابد و عبادة " . و يذهب البعض بأنه عرف بهذا الاسم نسبة إلى ضريح ولي صالح يدعى سيدي عابد[2] أو رباط عرف بهذا الإسم و كان العباد ملتقى الصوفية و الزهاد المنقطعين للعلم و التعبد في زواياه العديدة و أربطته .

و لمكانة العباد في نفوس الناس و نظرا لسياسة السلطان أبي الحسن الذي كان يرعى العلوم، و يقوي مراكز العلم و الذي كان يريد إعطاء صفة الحاكم الراعي للعلوم لا ذلك الغازي و المخرب لعاصمة المغرب الأوسط – أنذاك – فكان منه أن خص أعظم مشاريعه المعمارية في تلمسان، و في هذا المكان بالذات، و المتمثلة في المجمع

---

(1) – يقول حسن الوزان في وصف " العباد " : مدينة صغيرة تشبه ربض تقع في الجبل على نحو ميل من جبل تلمسان و هي كثيرة الأزهار وافرة السكان و الصناع و معظمهم من الصباغين و بها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات و يعظم أهل تلمسان و البلاد المجاورة هذا الولي كثيرا، و يستغيثون به و يتصدقون عنه كثيرا لوجه الله و يسمى سيدي أبي مدين، وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا... . " – حسن الوزان، مصدر سابق، ج2 ، ص.24.

(2) – يوجد ضريح قرب المجمع المعماري بالعباد يعرف بضريح "سيدي عابد".

المعماري الضخم الذي يتضمن المدرسة المذكـــورة كـــأحد عنـــاصره البارزة (اللـــوحة.18)،

و تقع المدرسة غرب الجامع مباشرة فوق هضبة صغيرة و علـــى مستوى أعلى منه و كأنها ذات ثلاثة طوابق . و هذا العلـــو الطبيعـــي زادها شموخا و جمالا، (شكل.01) ، (اللوحة.19).

الوصف المعماري للمدرسة :

أ). الوصف الخارجي:

تتصل بالمسجد من جهتها الغربية، و يفصلها عنه الرواق المحيـط به من جهاتـه الأربعة،سقف بأقبية ترتكز على عقود مسندة في طرفيـــها إلى الجدار الشرقي للمدرسة و الجدار الغربي للجامع، (اللوحة.20) ينتهي العقد إلى دعامتين ملتحمتين بالجدار، و هي مبنية بالآجر الأحمـــر المصمت، كما هو الحال بالنسبة للعقد الذي أنجز بهذه المـــادة، و هـــذا الآجر لم يلبس مما يعطينا فكرة أكثر وضوحا عن طريقة إنجاز العقـــود في المدرسة والمركب المعماري ككل.

و مباشرة وراء العقد الذي يتصدر الرواق يتراءى لنا ثلاثة عقـــود خلفه مكونة بلاطة كبيرة مشكلة للرواق .

و في الجهة الغربية للرواق تظهر على شكل عقود مصمتة مـــن الآجر، إلا أنه مقابل الباب الغربي للجامع و الذي يفتح لهذا الرواق يوجد باب معقود باتجاه المدرسة، يفتح على غرفة تخزين، و الرواق لم يسقف إلا فوق البوابة الغربية للجامع، و على شكل أقبية متقاطعة .

أما باقي الرواق مفتوح على الهواء كما في الصورة السابقة (اللوحة . 20) .

و الجهة الجنوبية للمدرسة تتصل مباشرة بحافة الهضبة كما هو مبين في الصورة (اللوحة . 21)، والجهة الغربية متصلة هي الأخرى بجدران المباني المجاورة لها .

أما من الجهة الشمالية، و التي نصل إليها بواسطة رواق متدرج مكسو بالحجر، يصلنا مباشرة إلى المدرسة عبر فضاء صغير أمام الرواق الشرقي لها . و هذا المكان يسمح لنا برؤية الجدار الشمالي كاملا، الذي يحتوي على أدراج ملتحمة به، موازية له صعودا إلى الغرب، لتصل إلى المدخل الذي فتح في غرب الجدار (اللوحة.23) .

و بعد صعود السلم المتكون من تسعة عشر درجا من الحجر المنحوت نصل إلى سطح يقابل المدخل، و كأن المدرسة متكونة من طابقين فعلا، و تحاط هذه المساحة المقابلة للمدخل بجدار يفوق علوه 1م، لبس أعلاه بحجر منحوت ذو لون أسود، و يمتد هذا الجدار على طول السلم و يحيط بالمساحة المقابلة للبوابة.

ب). <u>الوصف الداخلي</u> :

يقابلنا بهو صغير أمام المدخل مباشرة، مستطيل الشكل طوله 2.50 م و عرضه 1.35 م و هذا الطول يناسب تقريبا عرض دفتي الباب، كي لا تعيق حركة فتح وغلق الدفتين اللتين تفتحان إلى هذا البهو، و سقف هذا الأخير بقبو نصف برميلي، مزين بزخارف هندسية

على شكل نقش غائر و ينتهي إلى الجنوب بعقد مقابل لعقد المدخل و مماثل له تماما .

- الصحن :

يطل المدخل على صحن مستطيل الشكل، طوله 16 م و عرضه 14 م يمتد من الشمال إلى الجنوب، و هو مفروش بالزليج الملون على شكل مربعات خزفية ذات المقاس 10 سم × 10سم . وضعت بالتناوب : الأخضر و الأبيض فالبني، و يقطعهم اللون الأسود على شكل خطوط مكونة من اتصال مربعات سوداء ببعضها (اللوحة.26) .

يتوسط الصحن حوض مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب باتجاه طول الصحن، و محفور في أرضيته و لا يبرز عليها إلا قليلا، بحوالي 15 سم، و مقاساته 3.20 م × 2.60 م . و يتصل من الجهة الجنوبية بحوض أو صهريج من الرخام المنحوت و المتحرك بساقية (جابية) محفورة على أرضية الصحن لجلب الماء الفائض من النافورة المتمثلة في الحوض الصغير.

ويحيط بالصحن من الجهات الأربع رواق عرضه يقارب 1,75م، يفتح إليه بواسطة سلسلة من العقود الحدوية المنكسرة المتجاوزة، يستثنى منها العقد المقابل للمدخل، والعقد المقابل لبيت الصلاة، لاختلافهم في الإتساع، والتقويسة الدائرية، فهما متماثلان في الشكل وأكبر اتساعا من بقية العقود،وهما على شكل عقد دائري متجاوز، الذي يعرف بعقد حدوة الفرس (اللوحة.27) ، ففي الرواقين المقابلين للمدخل و قاعة الصلاة،

كل منهما يحتوي على عقد كبير، و إلـــى جانبيـــه عقـــدان منكســـران متجاوزان و أقل حجما .

أما الرواقان الجانبيان فيفتح كل منهما على الصحن بواسطة أربعة عقود منكسرة متجاوزة ترتكز على دعامات (اللوحـــــة.28)، و هـــذه العقود خالية من أية زخرفة، إلا أن منبت العقد زين بحلقـــات مضلعـــة متدرجة، و متناقصة إلى الأسفل (اللوحة.29)، و ينتهي كل رواق مـــن جانبيه بعقد حدوي، متصل من طرفه بدعامة على شكل حـــرف (L). و هذه الدعامة تشكل زاوية الصحن يتصل بها أربعة عقود هـــي عقـــد الرواقين المتقابلين، و من الداخل يلتقي العقدان في الزاويـــة، و يظـــهر طرفاهما بالجدار مشكلا تقاطعا في الأعلى نتج عنهما ســـقف ذو أقبيـــة متقاطعة، و هذه الطريقة مطبقـــة فـــي الزوايـــا الأربعـــة للصحـــن . و لا توجد أية زخرفة في جدران الرواق، و نلاحظ في الجدار الجنوبي للصحن، و على يمين مدخل قاعة الصلاة لوحا رخاميا مثبتا حديثا كتـــب عليه تاريخ تأسيس المدرسة و أسماء بعض العلماء الذين درسوا بها [1].

---

[1] – النص الذي نقش على اللوح المثبت في الجدار جاء فيه مايلي تم إنشاء مدرسة العبـــاد، المدرسة الخلدونية في سنة 747 هـــ/ 1347 م، و كانت تلقن فيها العلوم أيام محمـــد بـــن يوسف السنوسي و أبي العباس أحمد بن زكريا، الحفيظ التنســـي، ابـــن مـــرزوق الحفيـــظ، أحمد بن زاغو، سعيد بن محمد العقباني، عبد الرحمن بن خلدون، و أبو العباس أحمـــد بـــن محمد المقري .

- قاعة الصلاة :

تأتي قاعة الصلاة على محور واحد مع البوابة (انظر المخطط 13) فهي تتوسط الرواق الجنوبي، و تتصل بالصحن بواسطة مدخل معقود بعقد مشرع يحمل بابا خشبيا، فتح فيه بابين صغيرين مشكلان عقدا توأما، و تبدو الحداثة على هذا الباب، الذي يزيد عرضه على 2,40م.

أخذ ت قاعة الصلاة و الدرس معا شكلا مربعا مقاساتها 5,70م في كل ضلع، و زينت أرضيتها بفسيفساء خزفية عل شكل مربعات صغيرة (10سم x 10 سم) مثبتة بشكل منحرف عن مربع القاعة، مما يضفي عليها الانطباع بالعمق و الإتساع . و اختلفت ألوان المربعات الخزفية بالتناوب من اللون الأخضر، و الأزرق، و الأبيض و البني .

و كسيت الجدران من الأسفل بالفسيفساء الخزفية ذات الزخارف الهندسية، على شكل أطباق نجمية ثمانية الرؤوس، في إطار مربعات استعمل فيها ألوان عديدة كالأزرق و البني و الأبيض و الأصفر و الأسود و الأخضر، لكنه يغلب عليها اللون الأزرق و البني الفاتح . و يضمر فيها اللون الأسود رغم استعماله على مساحات متفاوتة، و تحيط الزخرفة بكامل أسفل الجدار عدا فتحة المدخل و المحراب، الذي يتوسط جدار القبلة (اللوحة 38) . ويفصل هذه الزخرفة عن الأرضية حزام من الخزف، ذو اللون الأسود، و عرضه 20 سم، و من الأعلى شريط زخرفي خزفي عرضه 40 سم .

- المحراب :

يتوسط الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة، و ترتفع أرضيته عن أرضية القاعة قليلا بعشرة سنتيمترات، مفروشة بالمربعات الخزفية على نفس المنوال بالنسبة للقاعة، و هذا التجويف في الجدار يبلغ عمقه مترين (2 م) و عرضه 1,50 م ذو أضلاع خمسة كما هو معروف في المحاريب المغاربية ذات الخمسة أضلاع، و كسي الجزء الأسفل منه ببلاطات خزفية ذات زخارف نباتية تعود إلى العصر التركي[1] (اللوحة.42)، و الجزء العلوي لهذه الفتحة لم يزين من الداخل، والذي تعلوه قبة صغيرة مرتكزة على ثمانية أضلاع خالية من أية زخرفة (اللوحة35). إلا أنه في الجهة الشمالية لهذا المحراب – من الداخل – زينت بزخرفة هندسية تظهر على مستوى بدن عقد المحراب، قوامها الطبق النجمي ذو الثمانية أضلاع، و المتفرع بطريقة متناسبة على مستوى البدن، و يليه من الأعلى – دائما من الداخل – زخرفة هندسية أيضا على شكل جامات مربعة أحيط بها شريط من المربعات أو المعينات، و نفذت هذه الزخارف على مساحة من الجص، (اللوحة. 35)، (الشكل. 07).

---

(1) – لعرج عبد العزيز، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العهد التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص. 18.

أما من الخارج كان الاعتناء أكثر بزخرفة المحراب، فهو عبارة عن عقد متجاوز، مسند إلى عمودين رخاميين من النوع الأبيض، لكل عمود قاعدة مربعة و تاج مغربي قوامه المراوح النخيلية، و أوراق شكلت كأس التاج منفذة من الجص، و يبدو أن التاج الأصلي من الرخام .

و يعلو عقد المحراب فصوص زخرفية عددها 15 تشكل حلقة تحيط به، تتالت فيها الزخارف بالتناوب هندسية و نباتية واحدة تلو الأخرى، مفصولة عن بعضها بواسطة شريط [1] من المعينات (اللوحة.34) يحتضن بداخله أطباق نجمية ذات 12 رأسا، وأخرى ذات 24 رأسا و أخرى ذات 48 رأسا، أما في الفصوص التي تحمل زخارف نباتية، فقوامها المروحة النخيلية المسننة، و الأوراق الملساء، و في ركني إطار العقد زينت بزخارف نباتية، تتكون من المروحة النخيلية المسننة، و اختلاف وضعيتها في الأسفل و الأعلى، و نلاحظ المبالغة في تنفيذ الزخرفة هنا، و الاهتمام بأدق تفاصيلها، و يتوسط هذه الأرضية قرص على شكل دائرة، برزت عنها قليلا على شكل إلتفاف ورقتين إلى الأعلى على هيأة طبق نجمي، كما نرى في الجهة السفلية لهذه المساحة الزخرفية، قرص يحمل إسم الجلالة (الله) (اللوحة.34) .

---

(1)- يطلق على هذا النوع من الزخارف اسم الصناجات. ونجدها في زخرفة واجهة محراب جامع قرطبة بالأندلس. و زخرفة محراب جامع سيدي أبي الحسن بتلمسان. و تذكرنا في تناوب فصوصها بزخرفة الأبلق التي طبقت في جامع القيروان بفاس .

و يحيط بإطار المحراب شريط زخرفي كتابي من الجانبين و إلى الأعلى (الشكل.05)، و نقرأ من اليمين إلى اليسار ما يلي :

- فالشريط الصاعد كتب فيه : " **و ما أمروا إلا ليعبدوا الله** " .
- الشريط الأفقي العلوي:" **مخلصين له الدين حنفاء و يقيموا الصلاة** ".
- الشريط العمودي الثالث الصاعد :" **و يؤتوا الزكاة و ذلك دين القيمة**" (اللوحة.32) . و نفذت هذه الكتابة بالخط المغربي .

و نلاحظ لونا أخضرا باهتا يعم جميع الفراغات في زخرفة المحراب، و يبدو أنه تأثر بفعل الرطوبة و الزمن، فتحلل اللون الأخضر إلى ألوانه الأساسية (الأزرق + الأصفر) في العديد من مناطق الإطار الزخرفي المحيط بالجدار .

أما الجهة العلوية فوق إطار المحراب فهي تناظر تماما الجهة العلوية بالجدار الشمالي الذي تفتح فيه بوابة القاعة . و يعلو الإطار المحيط بالمحراب شريط من الزخرفة الكتابية حملت اسم الجلالة "الله"، و عبارة " الحمد " و " البركة "، جاءت على شكل شريط، منفذ بواسطة قوالب لتكرار العبارات على كامل الشريط بنفس الوتيرة و فوق الشريط المذكور نصبت عقود صماء من الجص احتضنت بداخلها زخارف كتابية و هندسية (اللوحة 36، 37)، على أنه فتحت ثلاث نوافذ معقودة مباشرة فوق المحراب، ومزخرفة بتخريمات من الجص على أشكال معينات متفرعة عن ثلاثة أطباق نجمية ذات ثمانية رؤوس، يبدو أنها استعملت للتهوية.

تنتهي الزخرفة الجصية بشريط من الزخارف الهندسية على شكل أطباق نجمية ذات 16 رأسا و متكررة أفقيا على كامل الجدران الأربعة.

- الجدار الشمالي للقاعة :

و تتوسطه البوابة المقابلة للمحراب، و هي المدخل الوحيد لقاعة الصلاة، و تأتي على شكل عقد مشرع عرضه 2،40م، يمتاز بغناه الزخرفي، فبدن العقد مزين بأطباق نجمية محفورة على طبقة ملساء من الجص تحتوي على اثنا عشر رأسا (اللوحة 43) .

و زين إطار عقد المدخل – من الداخل – بشريط زخرفي يحيط به و يضم بداخله زخارف نباتية مقسمة، داخل معينات صغيرة على شكل عقود مفصصة . ينتهي رأس العقد عند منشأ العقد الذي يعلوه، و هكذا تتم زخرفة المساحة بكاملها بأشكال متماثلة و متناغمة، تتزاوج فيها الأوراق النباتية مع المعينات .

يعلو المدخل ثلاث فتحات صغيرة زينت بعقود من الجص تملؤها زخارف على شكل معينات، و أطباق نجمية ذات ثمانية رؤوس و هي تشبه الفتحات التي توجد فوق المحراب.

و على جانبي المدخل توجد لوحتين عموديتين من الجص، كل واحدة تنشأ فوق الشريط الكتابي المحيط بالقاعة، وكل لوحة متكونة من عقد مصمت قائم على عمودين ملتحمين بالجدار، ينبت عليهما عقد مفصص، يحتوي بداخله على زخارف نباتية، و اللوحة التي تأتي بالجهة الشرقية للمدخل يظهر عليها التدهور في زخارفها، و يبدو أنها أصلية إذا ما قورنت بأعلاها، الذي مسه الترميم حاول فيها الصانع تقليد الأولى،

بـملء الفراغ الـذي تركتـه الزخرفـة الأصليـة بعـد أن تلاشـت، و فوق العقد تظهر لنا معينات حملت بداخلها زخارف من أوراق نباتية، توهمنا لأول وهلة بأنها كتابات معقدة (اللوحة.37) . إلا أنـها تحمـل في داخلها اسم الجلالة " الله" (شكل.11، 13) بالخط الكوفي المـورق . و يحيط بهذه اللوحة، من الجانبين و الجهة العلوية، الشـريط الكتـابي نفسه، الذي يحدها من الأسفل و يحيط بكامل محيط القاعة على مسـتوى قاعدة هذه اللوحة و إلى أعلاها و بنفس العبارات : " **أنعمت يا رب فـزد فلك الحمد** " [1] .

أما اللوحة التي تأتي غرب المدخل فـهي تتنـاظر مـع اللوحـة المذكورة، و أعلى هاتين اللوحتين و عقد الباب يوجد صف من العقـود المصمتة المنقوشة على الجص، في شكل عقود مشرعة مفصصة تحمـل بداخلها زخارف نباتية و عددها 11 عقدا، و هـي متنـاظرة بالنسـبة للمدخل . فثلاثة عقود كبيرة نسبيا في أقصى اليمين، و أخرى في أقصى اليسار، و بقي خمسة عقود في الوسط، ثلاثة منها تتمثل فـي الفتحـات و هي مخرمة – كما ذكرنا، و عقدين صغيرين يفصلان هذه الفتحـات الثلاثة، و من الأعلى نجد المساحات ما بين العقـود كسـيت بزخرفـة متجانسة، و فوق مفتاح كل عقد دائرة تحمل زهرة ذات أربعـة بتـلات و تنتهي إلى بداية الشريط العلوي، و فوق هذه السلسلة من العقود نفـذ

---

[1]- طبقت هذه الزخارف في المدرسة الفرنكو إسلامية (بتلمسان) و التـي دشـنها الحـاكم الفرنسي بالجزائر 05 ماي 1905 و ما زالت تحافظ على زخارفها الإسلامية – .

الشريط الكتابي الذي يحيط بكامل محيط القاعة، و الذي رأيناه في أسفل الزخرفة الجصية إلى أعلى صف من الأطباق النجمية المحيطة بكامل القاعة .

- الجداران الشرقي و الغربي :

يلاحظ التناظر التام في زخرفة هذين الجدارين المتقابلين و البسيطة في مجموعها جاءت على شكل معينات ذات أكتاف، تبدأ من الأسفل فوق شريط كتابي و تنتهي من الأعلى بشريط آخر على نفس الوتيرة . قوامه الكتابة – السابقة الذكر - و في الأعلى نرى سلسلة عقود تمتد على مستوى الجدار، تحتوي على زخارف . كما هي الحال في الجدار الشمالي و الجنوبي للقاعة و نلاحظ التناظر التام في هذه الزخارف التي جاءت بالتناوب و يحف سطح سلسلة العقود الشريط نفسه من الكتابات، يليه الشريط الزخرفي الهندسي من الأطباق النجمية محدودا في أعلاه بالشريط الكتابي، (اللوحة.36).

- القبة :

غطيت القاعة بقبة خشبية ترتكز على إطار خشبي مربع و تمتد أضلاعه على طول كل جدران القاعة و يحتوي هذا الإطار الخشبي على كتابات بخط مغربي غير مقروءة نظرا لحالتها، و كثرة الأصباغ المترادفة على هذه الكتابة؛ و هي عبارة عن أبيات شعرية عددها تسعة أبيات تثني على مؤسس المدرسة السلطان أبو الحسن، و يذكر فيها سنة التأسيس. و نص القصيدة كما يلي :

" الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ " .

1. بَنَـانِي كَيْ قِيمَ لَـدَيَّ دِيـنَا الإِسْـلاَمُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِـينَـا
2. أَبُوُ الْحَسَنِ الَّذِي فِيهِ الْمَزَايَا تَفُـوقُ النَّظْـمَ بِالدَّمِ الثَّمِينَـا
3. إِمَـامٌ لاَ يَعْبُـرُ عَـنْ وَصِيٍّ بِمَا أَجْـرَى بِهِ الْأَعْمَالَ دِينَـا
4. سَلِيلُ أَبِي سَعِيدٍ ذِي الْمَعَالِي أَقَرَّ إِلَيَّ الْأَنَـامَ بِـهَا عُيُـونَـا
5. وَ قَدْ سَمَّـاهُ خَـالِقُـهُ عَلِيًّـا فَأَعْـلاَهُ أَعْطَـاهُ يَقِيـنَـا
6. أَبَـانَ بِصَالِحَـاتٍ مِنْهُ دِيـنَا وَإِيمَـانًـا لِيَكُونَ لَهُ مُعِيـنَـا
7. لِشَهْـرِ رَبِيعِ الثَّـانِي لِسَبْـعٍ خَلَوْنَ مِنَ السِّنِينِ وَ أَرْبَعِينَـا
8. إِلَى سَبْعٍ مِئِينَ فَـدَامَ سَعْـدٌ مُحَـوِّلُهُ مَقَـاصِـدُهُ فُنُونَـا
9. وَ كَانَ لَـهُ الْإِلَهُ عَلَى اِتِّصَالٍ عَلَى مَرْضَاتِهِ دَائِمًـا مُعِينَـا[1]

و القبة دائرية الشكل، قائمة على حنايا ركنية في الجهات الأربعة و مركزها يشكل طبقا نجميا من ستة عشر رأسا، ليتضاعف المحيط إلى اثنين و ثلاثين رأسا في شكل أضلاع مكونة إثنين و ثلاثين ضلعا، و هي عبارة عن قبة مخرمة بترك فراغات الأضلاع المسندة على الإطار الخشبي، و نتج عن تقاطع أشعة النجمة ذات 16 رأسا، 24 نجما، ثماني الرؤوس على شكل حلقة دائرية في رقبة القبة،

---

(1) Brosselard, opcite, p. 408 -.

- بوطارن مبارك، مرجع سابق ص.187 . إلا أن هناك اختلاف في النصين . في البيت الثاني و في العجز يذكر هذا الأخير " **تفوق النظم و النوم الثمينا** " . أما في البيت التاسع و في العجز يذكر بروسلار : " على مرضاته دابا معينا " .

(اللوحة 44 ، 45)، و غطيت القبة الدائرية المصنوعة من الخشب بقبة هرمية ذات أربعة أضلاع سقفت بالقرميد الأخضر المزجج. (اللوحة 44) .

زينت القبة الخشبية باللون الأخضر في غالبها، بالإضافة إلى الأصفر و الأبيض .

- غرف الطلبة :

تفتح على الرواق و عددها ست غرف في كل جهة من الرواقين الموازيين لمحور المدخل و قاعة الصلاة، و مداخل الغرف معقودة بعقد حدوي متجاوز ارتفاعه 1,85 م و اتساعه 0,70 م، و الغرف مربعة تقريبا حوالي ستة أمتار مربعة في كل غرفة لما يكفي لراحة المقيم الفردي بها، وتحتوي على كوة في الحائط لوضع الكتب، و المصباح، و يعلو كل باب حجرة فتحة صغيرة للتهوية و الضوء، و هي خالية من أية زخرفة في مظهرها الحالي .

و في الجهة الشرقية لرواق قاعة الصلاة تفتح بوابة صغيرة على صحن تحيط به غرف (انظر المخطط 13) . و يأتي المدخل على شكل عقد حدوي منكسر متجاوز يوصلنا إلى الصحن الصغير مقاساته 3,85م طولا، و عرضه 3,20م، و هو قريب من الشكل المربع، تفتح إليه غرفتان من الجدار الجنوبي و تقابلهما غرفتان في الجدار الشرقي لهذا الفناء الصغير، و جاءت هذه الغرف الأربع بمعزل عن بقية الغرف التي احتوت عليها المدرسة . ويبدو من هذا أنها أعدت خصيصا للأساتذة المقيمين مع الطلبة (اللوحة47) .

و بإضافة هذه الغرف يصبح عددها في الطابق الأرضي 16 غرفة، و بقيتها في الطابق العلوي و عددها 12 غرفة ليصبح العدد الإجمالي لغرف المدرسة 28 غرفة .

و إلى الجهة الغربية من قاعة الصلاة فتح مدخل صغير إلى فناء مكشوف يتناظر تماما مع فناء الغرف الأربع شرق قاعة الصلاة، (المخطط الأرضي) يتوسطه جدار من القرميد المصمت، فتح في وسطه باتجاه الجنوب قوس صنع من نفس المادة . و يبدو أن هذا الفناء حديث العهد لأن مارسيه أغفله [1] في مخططه و لم يشر إلى الفتحة التي تؤدي إليه [2]، (المخطط.18) .

- الطابق العلوي :

يفتح باب صغير معقود شرق مدخل المدرسة – من الداخل – يتصل بسلم يصعد بموازاة الجدار على شكل نفق متصاعد يؤدي إلى الطابق العلوي .

و يحتوي الطابق العلوي على رواق مكشوف يتشكل من أرضية سقف الرواق الأرضي الذي يحيط بالصحن، وتفتح 12 غرفة على الرواق، 06 غرف في الجهة الشرقية، و06 غرف في الجهة الغربية.

---

(1) – أغفل مارسيه هذه الفتحة الشيء الذي يؤكد أنها حديثة العهد . أنظر المخطط الذي أنجزه في هذه الرسالة، ص. و هذا يدعو للتفكير في دور الفناء . هل استغل قبل ترميم المدرسة أم أنه فضاء خارجي لا ينتمي للمخطط العام ؟ .

(2) – الحاج محمد رمضان شاوش، مرجع سابق، ص.307.

أما من الجنوب يقابلنا جدار قاعة الصلاة الذي يسمو على مستوى سطح الغرف، (اللوحة.30).

وتتميز هذه الغرف بأنها لا تحتوي على فتحة تدخل الضوء فوق بابها، كما رأيناه في الغرف الأرضية، وهذا راجع لتوفر الضوء و لعدم وجود سقف يقابلها، لكنها جاءت متماثلة وعلى وتيرة واحدة مع الغرف الأرضية في المقاسات والاتجاه. لكنها فتحت إلى بعضها – حديثا – مشكلة رواقا غطي سقفه من الداخل بغطاء خشبي.

أما الجدار الشمالي يمتد من الشرق إلى الغرب ولا يعلو على مستوى سقف الغرف.

– التسقيف :

استعملت الأقبية للتسقيف في شكل تقاطع قبيبات، تنشأ بدورها من تقاطع عقود، هذا من الداخل، أما من الخارج غطي سقف المدرسة بالقرميد الأحمر النصف دائري على شكل هرمي (جملوني)، ا (الشكل.02) ، ويبدو أن السقف في حالة رديئة خاصة على المستوى الغرف لظهور تصدعات واضحة للعيان (اللوحة.30)، أما القرميد الأخضر فاستعمل في تسقيف القبة، وتغطية الجهة العلوية من جدار الرواق المحيط بالصحن لحمايته من المطر. واستعمل أيضا في تغطية أعلى جدار بوابة المدخل.

- الميضأة :

فتح باب صغير ومعقود بواسطة عقد حدوي منكسر متجاوز عرضه 1م، هذا في الجدار الشمالي، و في الجهة الغربية لباب المدخل يوصل برواق نحو الغرب ينتهي بباب يفتح نحو الشمال على رواق مسقوف بأقبية متقاطعة، نلج الفناء من خلال هذا الرواق المنعطف[1]، ومقاسات الفناء 4م طولا وعرضه 2،80م، وفي وسطه المكشوف

و إلى الجدار المقابل - الجدار الشمالي - يبرز من الجدار حوض كبير أو صهريج لحفظ الماء، طوله 1،50م وعرضه 2م، (الصورة.48). و يحيط بالفناء بيوت الخلاء، وغرف للوضوء (الغسل) وعددها ثمانية غرف مداخلها ضيقة لا تتعدى 0،50 م، تحتوي الغرف على فتحات في أعلى الأبواب للتهوية والضوء.

و إلى الأعلى يحاط جدار الفناء بقرميد أحمر مائل إلى الداخل، يتكون من صفين ، (اللوحة.48).

و الملفت للانتباه في الميضأة هو دورة المياه التي تمتاز بكونها ساقية محفورة في جدارها، تمر بكافة المراحيض، على شكل جابية ماء دائمة الحركة لتصل في الأخير إلى الحوض المتواجد في الجهة الشمالية لفناء الميضأة، وأهمية استمرار سيران الماء داخل الميضأة يساعد على تلطيف درجة الحرارة، والقضاء على انسداد القنوات، وهذا ما

---

[1] - تعد الأروقة ذات المنعطفات ميزة في بناء الميضأة. وهذا لمحاولة فصلها قدر الإمكان عن المبنى الرئيسي لتفادي الروائح الكريهة الناتجة عنها.

نشاهده في ميضأة جامع سيدي أبي مدين وميضأة جامع سيدي الحلـــوي بتلمسان.

- الأبواب :

باستثناء باب المدخل وباب قاعة الصـــلاة الخشـــبيين الكبـــيرين، جاءت أبواب الغرف و المدخل في شكل بسيط من الخشـــب، وبعـــض الغرف لا تحمل الآن أبوابا لمداخلها [1] .

إلا أن باب قاعة الصلاة القائم على العقد المشرع مكون من ألواح خشبية عمودية على شكل دفتين، تعلوهما نافذة مغطاة بالزجـــاج علـــى شكل نصف دائرة. و يفتح في كل دفة باب صغير معقود (اللوحـــة 26)، مكون من نفس القطع الخشبية، و ذلك لتسهيل عملية الدخول والخـــروج دون اللجوء إلى فتح دفتين كبيرتين.

و باب المدخل يتكون من مدخلين من الخشب، ومشـــكل بتثبيـــت ألواح عموديا، عددها ستة، مشدودة إلى بعضها بواسطة مسامير حديدية، فالملاحظ أنه لا يوجد تلبيس بالنحاس كما هو في باب الجامع المجـــاور للمدرسة – جامع العباد – ولا توجد زخارف على الباب، إلا وضعيـــة الصفوف المنتظمة من المسامير التي صفت أفقيا على هيأة سلسلة، وعدد هذه السلاسل ستة في كل دفة ويحيط بإطار كل واحدة حلقة من المسامير (اللوحة.24). والمسامير الحديدية المثبة فـــي البـــاب الخشـــبية

---

(1) – لا توجد لدينا أية فكرة على الأبواب الأصلية للغرف، فقد استبدلت بأبواب خشـــبية حديثة الصنع .

للمدرسة، تتميز برأسها المشكل على هيأة خوذة، أو قبة مضلعة، يتراوح قطرها ما بين 0،5 م و 0،6 م وهي معروفة عند المسلمين [1] .

- مدخل المدرسة :

و مدخل المدرسة يوحي بالعظمة و القوة، فهو على شكل بوابة تذكارية شامخة تشغل ثلث الجدار الشمالي – من الخارج – وهي على شكل مستطيل بارز عنه بنحو 10 سم.

و قوام البوابة عقد حدوي متجاوز منكسر، (اللوحة 23)، ينبت من حافتي الباب اللتان تمثلان دعامتين ملتحمتين بالجدار و يحيط بهذا العقد زخرفة من الزليج والآجر البارز قليلا عن أرضية الزخرفة ويأتي على شكل ضفيرة من الفصوص مكونة من 21 فصا، كأنها عقد مفصص يحيط بكامل فتحة العقد، وإلى أعلى الضفيرة، وَ ركني العقد نفذت زخارف هندسية قوامها طبق نجمي ذو 16 رأسا، و في كل ركن تتفوع من مركز هذا النجم خطوط هندسية لا متناهية الأشعة مشكلة نجوما ثانوية ذات أربعة و خمسة رؤوس إلى أن يحدها الإطار المحيط بالعقد، وغلب عليها اللون الأخضر والبني الفاتحين، واللون الأبيض والأزرق (اللوحة 24).

و يحيط بهذه الزخرفة شريط من الجهات الثلاث العلوية والجانبيتين، وهذا الشريط مفصول عنها بفاصل أملس(خالي من الزخارف)و قوامه زخارف ذات أشكال هندسية (الشكل 8، 9، 10) وأكتاف عقود ومعينات اندمج معها الزليج والآجر المصمت، وتبدأ

---

(1) – BEL Alfred, op.cit,;p.244.

قاعدة هذا الشريط بزخرفة من الزليج المشكل بالألوان الفاتحة البيضاء والخضراء والبني الفاتح (اللوحة 24، 25).

ينتهي أعلى العقد بظلة أو طنف مائل إلى الأمام، مسقوف بقرميد أخضر نصف دائري، لحماية البوابة من مياه الأمطار، تستند هذه الظلة على الجدار بواسطة قنوات منحوتة فيه (اللوحة 23).

و في الدفة اليسرى فتح باب صغير يستعمل للدخول والخروج، دون التعرض لفتح و غلق الباب الضخم .

و يتحرك مصراعا هذا الباب على مزلاج حديدي، واحد إلى الأعلى، و الآخر إلى الأسفل، و هي التقنية نفسها في حركة باب جامع العباد و مدارس فاس [1] .

أما من الجهة الداخلية للباب، فيتقاطع مع الألواح العمودية ست قطع خشبية أفقية في كل دفة، وتلتحم بها بواسطة المسامير المذكورة، لتزيد الباب قوة و صلابة .

و يثبت المزلاج الحديدي إلى الباب، بواسطة قطعة حديدية على شكل رأس رمح، يشد بواسطة مسامير صغيرة الحجم عن الأول، و هذه الصفيحة تحمل زخرفة (الشكل15) ذات أشكال هندسية صغيرة تحيط بشكل الهلال المقوس الذي يبرز منه رمح كبير، (الشكل15). و هذه الصفائح كانت مستعملة في الأبواب بمدينة تلمسان و مازال متحف تلمسان يحتفظ بقطع تشبهها و ذات قياسات مختلفة .

---

[1]- يتحرك مصراع الباب فوق قطعة حجرية حفر فيها ثقب و تعرف "بالرتاج" و توجد إحدى هذه القطع بمتحف تلمسان.

II/ الترميمات التي أجريت على مدرسة العباد:

أجريت على المدرسة ترميمات عبر العصور التي تلت تأسيسها، بداية من الفترة العثمانية إلى الاحتلال الفرنسي، ففترة ما بعد الاستقلال.

فقد شهدت المدرسة ترميمات في الفترة العثمانية(*) مست القبة الخشبية و إضافة قطع البلاطات الخزفية الباقية إلى اليو مفي جدار المحراب.

و صرح القائمون على رعاية ضريح سيدي أبي مدين إلى بارجس بأن القبة من بناء الباي محمد الكبير. و ربما قام هذا الحاكم بترميمها عند قيامه بترميم الضريح، فقد أسند إلى الفنان" شرما شيق"(*) ترميم القبة. أما عند دخول الفرنسيين إلى تلمسان كانت المدرسة في حالة سيئة جدا و لم

(*) – يُعيّن خير الدين باشا حاكما على الجزائر برضا الأهالي سنة 1519 م وهذا التاريخ بداية للحكم العثماني في الجزائر إلى سنة 1830 أي سنة سقوط عاصمة الجزائر في يد قوات الإحتلال الفرنسية.

(*) – إسم فنان عثماني ، قام بإنجاز البلاطات الخزفية التي لبست بها جدران ضريح الشيخ سيدي أبي مدين في العهد التركي و يوجد توقيعه على مدخل هذا الضريح، أنظر في ذلك/ لعرج محمود عبد العزيز. الزليج في العمارة الاسلامية بالجزائر في العصر التركي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990. ص.16 .

ترمم من طرف مصلحة الآثار الفرنسية[1] . حيـــن رممـــت المســـجد و الضريح المجاورين للمدرسة[2] .

و سنة 1921م رممت الأرضية و تم إصلاح قنوات صرف المياه و تقوية الجدران، و إصلاح بعض البلاطات المتدهـــورة، وإصـــلاح الساحة الأمامية للمدرسة بواسطة الأسمنت، و هـــذا ضمـــن الصيانـــة الدورية للمجمع المعماري بالعباد. (المدرسة، الجـــامع، و الضريـــح) من طرف المهندس" بيلي " المشرف على المعالم التاريخية بتلمســـان – أنذاك –[3].

أما في سنة 1922م، تدخلت المصلحة نفسها في ترميم أجزاء من أدارج جامع العباد " سيدي أبي مدين "، إذ أصلـــح 10 أدراج مـــن بيـــن 18 درجا، و كسيت بالفسيفساء الخزفية، و لم يذكر في هذا التقرير للسنة المذكورة إصلاحات على المدرســـة، مـاعدا الطـلاء و إصـلاح الأخشـاب، التي تكون مست المدرسة[4].

أمـا بعـد الإسـتقلال كتـب A.LEZINE ، فـي تقريـر لـه عـن معاينـــة المدرسة بأن زخارفها المنفذة على واجهة البوابة، كلها مدهونة بطبقـة مـن الجير، و لم يستطع تمييز الأصلية و الحديثة منها[5]، و ذلك عام 1964 م .

---

(1) – Barges, op. cit, p. 310.

(2) – Brossland, op.cit, p. 247.

(3) – Albert Balluraport sur les travaux de familles et de consolidations exécutes par le service des monuments historiques (exercice 1921) .Alger 1922 .p.14.

(4) – Albert Bal (exercice 1922).Alger 1923.p.12.

(5) - أرشيف الوكالة الوطنية للآثار A.Lezine, expert de l'U.N.S.C.O Rapport de. 1964.p.p.24,30 الدائرة الأثرية بتلمسان . مخطوط بمكتبة الدائرة الأثرية

و في سنة 1973م ، عرفت المدرسة إصلاحات واسعة، مست قاعة الصلاة بترميم الألواح الجصية، و إعادة تركيب ألواح جديدة في المكان الذي إندثرت فيه كليا، إعتمادا على البقايا الأصلية، و استعين بحرفيين مغاربة، من الرباط مع كساء قاعة الصلاة، (الجزء السفلي للجدران) بمقطع الزليج الملون، ذو الإشكال النجمية(اللوحة42،43)، و ذلك باتباع الطرق الأصلية الموروثة عن الأجداد و التي مازالت تحتفظ بها مدينة فاس المغربية بفضل حرفيين مؤهلين في هذا الميدان و تم تغطية أرضية الصحن بالقطع الخزفية المربعة 10X10 سم، و في هذه العملية كانت التدخلات على مستوى و اسع، مست كل الأجزاء المتضررة من قنوات صرف المياه، و الأدراج و الصف المحيط بعقود الصحن المكون من القرميد النصف دائري الأخضر[1].

وفي نفس الفترة (1973م) كان التدخل على مستوى واجهة المدخل، بتلبيسه بقطع الزليج المتواجدة عليها الآن، بإحترام القطع المتبقية، بالإضافة إلى الساحة الأساسية التي تقابل المدخل.

أما القبة الخشبية داخل قاعة الصلاة، فقد رممت فيها بعض القطع الخشبية المتآكله[2].

---

[1] - تقرير رئيس الدائرة الأثرية بتلمسان مارس 2000. مخطوط بالمكتبة.
– أنظر كذلك – رشيد بوربية الحياة الفنية في عهد الزيانيين و المرنين في الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ص.503.

[2] - تقرير رئيس الدائرة الأثرية بتلمسان مارس 2000. (Devis. 11.07.73)
مخطوط بمكتبة الدائرة الأثرية (par les Zellidjeurs de Rabat .).
– أنظر أيضا – رشيد بوربية الحياة الفنية في عهد الزيانيين
و المرينيين في الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ص.503 .

و تم في هذا التدخل تقوية السطح، و ترميم الأقواس والدعامات و أبواب غرف الطابق الأول، و تقوية قنوات المياه، مع إصلاح الباب المقابل لمكان الأضرحة بجانب قاعة الصلاة، و كل هذا في تقرير الفرقة الحرفية التي تولت ترميم المدرسة*.

أما في عام 1974م، استغلت المدرسة من قبل فرقة الكشافة الاسلامية للمدينة، حتى شهر جويلية من نفس العام.

و إلى سنة 1988م هجرت المدرسة سبب تدهور حالتها، خاصة بعد تعرضها لضغط كبير من الرطوبة و الماء المتواصل في جهتها الجنوبية، و الجنوبية الغربية[1].

أما في عام 1995م وَ 1997م، كانت تدخلات من قبل مؤسسة البناء و التعمير بالجزائر، و مدينة تلمسان، بإدخال بعض الإصلاحات في الجهات المتضررة، و التي تخص دورة المياه والكهرباء، أما الجانب الزخرفي فلم يتطرق إليه التقرير.

- <u>حالة المدرسة اليوم</u> :

بقيت المدرسة تعاني الرطوبة والحرارة والغبار الإهمال و من الأحوال الجوية بعد هجرها نهائيا، وهذه أسباب تدعو إلى سوء حالتها يوما بعد يوم، خاصة و أنها تعاني غزو الرطوبة التي تمس الأجزاء السفلية من الجدران ، و الأجزاء العليا من سقف قاعة الصلاة،

---

* - حاول الحرفيون تقليد الخصائص العامة لمواد البناء وطرقها وذلك بجلب الطين الأحمر من جبال تلسان وخلطه مع الرمل والجير لتحضير عجينه الملاط والتي تحضر قبل استعمالها بمدة تزغن أ اكثر وهي الطريقة نفسها التي كانت متبعة في الماضي.

[1] – المرجع السابق ص.2.

نظرا لمرور القناة المخصصة للمياه المغذية للميضأة، نحو النافورة و التي تمر بالجدار الجنوبي للمدرسة، كما أن غزو الأعشاب التي تنمو أسفل الجداران الخارجية، و الشقوق، و فوق السقف القرميدي، يؤدي مع مرور الزمن إلى إحداث تصدع، يسبب الإنهيار التام لولا التدخل السريع الذي قد يوقف هذه الحالة.

الفصل الثالث

تحليل و مقارنة

I / الدراسة التحليلية

أ – دراسة معمارية

- المخطط
- العناصر المعمارية

ب – دراسة زخرفية

II / دراسة مقارنة

أ – الخصائص العامة لمدارس السلطان أبي الحسن

ب – مقارنة بين مدرسة سيدي أبي مدين و المدرسة التاشفينية

أ - دراسة معمارية

- المخطط :

تمتاز مدرسة العباد بتلمسان عن باقي المدارس المرينية بخصوصيات تنفرد بها من ناحية التخطيط المعماري، فرضتها الظروف الجغرافية و المعمارية، رغم أنها تشترك مع المدارس المذكورة في عناصر عديدة أماتها الوظيفة التعليمية، و الدينية، التي أنشئت لأجلها، فهي تحتوي على بيت صلاة مستطيلة، تحتل جهتها الجنوبية، و تعد أهم حيز مكاني بعد الصحن، و يتصدر حائط القبلة محراب مضلع، و هذا يعني إمتزاج الوظيفة العلمية و الدينية في هذه المدرسة، فمن جهة تعد قاعة الدرس و المحاضرات، و من جهة أخرى تقام فيها الصلوات، و هذا ما هو معمول به في المدارس المغربية عموما [1] .

و لقاعة الصلاة مكانة كبيرة من حيث اهتمام المعمار بها، فاختصها بالعلو الشاهق، الذي يتعدى علو المدرسة بطابقيها، و هذه ميزة مشتركة أيضا (اللوحة.26) .

أما قبة قاعة الصلاة سقفت بالقرميد النصف الدائري الأخضر اللون و القبة ذات أربعة أضلاع مشكلة هرما (الشكل.02) .

أما الصحن فيعد أكبر حيز مكاني بالمدرسة، إذ احتوت مدرسة العباد، (مدرسة سيدي أبي بومدين) على فناء فسيح إذا ما قورن مع

---

[1] – انظر/ Marcais.G, A.M.O , P . 173.

هيكلها المعماري الكلي، فيشغل ثلث مساحة المدرسة تقريبا، و هي ميزة عمت المدارس المغربية، و التي استوحاها المعمـــار المغـــاربي مـــن المدرسة المشرقية، كما أن للمسجد دور في التأثير على المدرسة مـــن هذه الناحية، فلم تخلو المساجد المغربية من الصحن الـــذي يـــأتي فـــي مؤخرة قاعة الصلاة، و لمراعاة الشروط البيئية داخل المدرســـــــة و خاصة أنها تحمل غرفا لإيواء الطلبة، كان لهذا الفراغ الذي يتوســـط الغرف المحيطة به أكثر من ضرورة جمالية، لأنه يسمح بوصول أشـــعة الشمس، و السماح لحركة الهواء داخل هذا الفراغ، و هذا النظام معمول به في المساكن الخاصة لهذه الفترة، و لهذا ذهب البعض بـــأن المدرسة مستوحاة من المساكن الخاصة للأثرياء[1]، لأنها راعت الشروط اللازمة لإقامة الأشخاص، و احتواء الصحن على حوض مائي كبير يدخل فـــي هذا التحضير اللائق للإقامة، لما يوفره الماء. من منظر جميل ترتاح له النفس، و لإحداث الرطوبة المخفضة لدرجة الحرارة في أيام الصيـــف، كما أن إحداث حركة و انسياب داخل هذه المدرسة يجعل المكان أكـــثر تقبلا، و هذا ما يوفره سريان الماء داخل الصحن .

- غرف الطلبة :

صممت بشكل يتلاءم مع الوظيفة التي تؤديها (غرف لإيواء الطلبة)،

---

(1) - أنظر : Bel.Alfred, OP.CIT, PP . 84. 85.

و خاصة غرف الطابق الأرضي التي تمتاز بعلو جدرانها، و فوق باب كل غرفة نرى فتحة مستطيلة الشكل، و لهذه الفتحات دورين أساسين : أولهما الإنارة و ذلك بالسماح لدخول أشعة الشمس بالقدر الكافي إلى الغرفة، و الدور الثاني للتهوية، و هنا يكمن سر تعامل المعمار مع ديناميكية الهواء، فمن المعروف فيزيائيا أن الهواء الساخن يصعد إلى الأعلى، فالحرارة التي تصدر من الغرفة تخرج مباشرة من الفتحة المتواجدة فوق الباب، و أثناء صعود الهواء من الفتحة ينتج عنه جلب لهواء جديد يأتي من الباب، و هذا الهواء الجديد المنبعث من الصحن و المشبع بالرطوبة الكافية التي يوفرها الماء الجاري في الصحن من الحوض الصغير إلى الحوض الكبير، و بالتالي يحصل تغير متواصل للهواء، ينتج عنه تلطيف للجو بصورة طبيعية و مستمرة، خصوصا أن المنطقة تتعرض إلى حرارة شديدة في فصل الصيف، و هذا النظام معمول به في المدارس المغربية و المشرقية[1] .

المیضأة:

احتوت مدرسة العباد على الميضأة، و هي شرط ضروري لإقامة الطلبة، لما توفره لهم من خدمات خاصة أن حياة المسلمين مرتبطة أساسا بالطهارة، طهارة المكان، و الجسد، و الثوب ... و من خلال المخطط نلاحظ (المخطط.13) اندماج حيز الميضأة مع المخطط العام بالنسبة لمدرسة العباد، عكس ما نلاحظه في بعض المدارس من

[1] - ثروت عكاشة، القيم الجمالية . في العمارة الإسلامية، ص. 224 .

مثيلاتها، كالمدرسة المصباحية التي تنفصل عنها الميضأة في شكل ملحق تابع للمبنى (المخطط.07)، كما أن هذه الأخيرة مفتوحة إلى خارج بواسطة باب ثانوي، فهي مشتركة بين طلبة المدرسة و العامة، على عكس مدرسة العباد، فهي خاصة بالطلبة فقط، و لها باب واحد يصل إلى الصحن .

و لعل انفراد مدرسة العباد بالسيميترية و التماثل (التناظر)، ميزها عن غيرها من مدارس المغرب الإسلامي فهي تظهر مدى تحكم المعمار في المبنى، و تقسيمه بشكل متقايس على محور واحد، يتضح من خلال المخطط أن المحور المار بين البوابة و قاعة الصلاة و أكثر تحديدا محور الباب الرئيسي مع المحراب، فإنه احترم التماثل بدقة صارمة، سواء في المقاسات، أو عدد العناصر المعمارية و موقعها، فكلا الجزئين المتقابلين يعكس نفسه في الجهة المقابلة، و هذه تقنية عرفها القدامى قبل المسلمين، من اليونان، و الرومان بعدهم، و هذا التناظر نفسه ينبع من خاصية الإنسان و انسجامه(1)، في تكوينه العام، و امتيازه بالتناظر و التقايس، فكان يسعى جاهدا لتحقيق هذا الإنسجام، و أول من وجد العلاقة بين جمالية الصور و علاقة الأحجام ببعضها هم الإغريق، إذ توصلوا إلى إيجاد نسبة عددية تحقق التوازن في المبنى، و تعرف بالنسبة الذهبية

---

(1) ـ لعرج عبد العزيز، دراسة تحويل وظيفي لمدرسة سيدي أبي مدين — العباد — المرحلة الأولى المشروع التمهيدي، الورشة التقنية للهندسة المعمارية و الترميم ATAR، مخطوط من أرشيف مديرية الثقافة بتلمسان الجزائر 1999، ص. 31 .

التي توصل إليها العالمان طاليس و فيثاغورث[1]، و بإجراء عملية حسابية يتضح لنا تحقيق هذه النسبة في مدرسة العباد، بإجراء لهذه العملية بسيطة كالتالي :

المقاس الخارجي	28م×21م، 1,333=21/28، 28+21/28 =1,75
المقاس الداخلي	23,70م×19م، 1,244=19/23,70، 23,70 +19/23,70=1,801

و النتيجة الأخيرة لهذه العملية 1,75، 1,801 تكاد أن تكون متطابقة إلى حد بعيد، و هذا نجاح في تحقيق التوازن العام للمبنى، و للإشارة فالعدد الذهبي عند العالمان المذكوران، هو 1,66 في الحالة النظرية أما عند التطبيق فيحدث الإرتياب إما بالزيادة أو النقصان. و تكاد تنطبق النسبة الذهبية هذه مع النسبة الذهبية للمدرسة المصباحية[2] . انظر (المخطط07) .

كما أن الإختلاف الذي نشاهده في تصميمات مدارس السلطان أبي الحسن، و المدارس المغربية بصفة عامة، فكل مدرسة تختلف عن أخرى، و لم يعاد المخطط نفسه مرتين بشكل واضح، و هذا يرجع إلى الهدف الذي كان يرجى من بناء المدرسة، و هو إيواء عدد معين من الطلبة، و توفير الجو الملائم لهم، من إحداث غرف لإيوائهم، و بناء

---

[1] - عن هذه النظرية و تطبقها على مدرسة العباد، أنظر/ المرجع السابق ، ص.32.

[2] - نفس المرجع، نفس الصفحة.

قاعة صلاة في مكان دراستهم، و ما بقي على الفنان و المعماري إلا محاولة تنظيم و تجميل المحيط بطريقته الخاصة، و كما استعمل فيها ما هو موروث من عمارة و زخرفة، و ذلك حسب المساحة التي توفرت لديه.

و لهذا نجد أنه مزج بين البيت الخاص - المعروف أنذاك - و المسجد الصغير، و المدرسة، و هي الهدف المنشود بوسائله و عناصره التي يجب أن تطبق .

و لهذا فإن مدارس تلمسان اختلفت عن مدارس المغرب الأقصى من حيث المساحة العامة للكتلة المعمارية و توزيع عناصرها، لأن هناك إختلاف في المباني الخاصة للأثرياء، في هاتين المنطقتين، و لكل منهما ميزاتها. فالموقع الجغرافي و النمط الإجتماعي فرضا تأثيرهما على هذا النوع من العمائر[1] ، إلا أن التصميم العام للمدرسة المغربية يتكرر في كل المدارس التي درسناها، فكلها متكونة من صحن تحيط به أروقة و قاعة صلاة وحيدة، و غرف تشرف على الصحن، و طابق علوي أو اثنين إضافة إلى الميضأة.

---

[1] - في هذا الرأي انظر L. golvin la madrasa médiévale p. 256.

- العناصر المعمارية

المدخل : إن بناء المدرسة فوق هضبة صخرية جعلها تعلو المجمع المعماري، و الواقف أمام مدخلها من الخارج يتخيل أنها ذات ثلاث طوابق أو يفوق، لما يضفيه مدخلها من الشموخ و العلو، و الذي يتقدم المدرسة في شكل بوابة تذكارية مزينة بزخارف و عقد دائري متجاوز (اللوحة23)، و هذه الميزة اشتركت فيها مدارس السلطان أبي الحسن، و هذه البوابة التي تميز المدرسة، ذات تأثير سلجوقي مشرقي ميز المساجد والمدارس التي بنيت آنذاك، فالمداخل التذكارية للمدارس يعني فيها بإظهار الشموخ و السمو و العظمة، و ذلك لإضفاء عظمة المكان. إلا أن هذه المداخل لا تحمل رسومات آدمية أو حيوانية على العكس بلاد المشرق و الأناضول [1] .

و من المخطط نلاحظ موقع المدخل، و الذي يمر في منتصفه الخط المحوري، و هذا ما ذهب ببعض دارسي العمارة الدينية الإسلامية من المستشرقين بأن يرجعوه إلى تأثير بازيليكي[2]. و قوام المدخل عقد دائري متجاوز (الشكل.03)، تحيط به زخارف من الزليج، و يسمو فوقه إطار تعلوه ظلة ، كما هي الحال في مدرسة

---

(1) – كارل بروكلمان مرجع السابق ص. 405 .

(2) – بازيليكا .. وهي كنيسة ذات التخطيط الصليبي و في هذا انظر/

katharina otto –dow , l'art de l'islam dans le monde , fundaments historiques , sociologiques et religieux , civilisation non Europiennes , Paris 1967 ,p.181 .

(1) – Bel Alfred , Opcit , p. 259 .

أبي الحسن في سلا بالمغرب الأقصى، إلا أن هذه الأخيرة يتميز عقد باب مدخلها بأنه منكسر متجاوز (اللوحة 07)، و نرى التشابه الكبير الذي يغلب على البوابتين، و هذا راجع إلى قصر الفترة التي تفصل بين المدرستين، مدرسة العباد (747هـ/1347م)، و مدرسة سلا (742هـ/1342م)، و يذهب " ألفرد بال " في إحتمال أن نفس الصناع و المهندسين قد أشرفوا على تنفيذ مدارس السلطان أبي الحسن[1]، فلا غرابة بأن يكون هناك تشابه أو تطابق في بعض الأحيان في العناصر المعمارية، و الفنية أيضا .

و لهذا العهد أضحت البوابات التذكارية سمة للمباني الضخمة، كالمساجد، و المدارس، سواء في المشرق أو المغرب، فكان الباب الرئيسي ينهض على العموم إلى مستوى عال ينتهي إليه المرء بواسطة سلم [2]، و مثال ذلك مدخل جامع المنصورة بتلمسان، الذي فتح في قاعدة المئذنة ، و نلاحظ فوق عقد المدخل شريط على شكل هالة[*]، قوامها عقد مفصص إلى واحد و عشرين فصا، و هذا ما نلاحظه في العمارة الزيانية، خاصة على باب مدخل المدرسة التاشفنية (اللوحة 49)، و هذا النوع من الزخرفة هو موروث عن الموحدين في عمارتهم[3].

---

(1) _ Bel Alfred , Opcit , p. 259 .

(2) _ كارل بروكلمان، مرجع سابق ص. 373 .

(*) _ الهالة هي اللهب الذي يأتي على شكل هلال و يحيط برأس القديسين في الرسومات الدينية المسيحية و هي رمز فني يوحي إلى القداسة

(3) _ L. golvin la madrasa médiévale p. 198 .

المحراب :

يمتاز المحراب في مدرسة العباد، بأنه بارز عن جدار القبلة و ذو شكل مضلع (خماسي الأضلاع)، (المخطط 13)، ينتهي إلى الأعلى بقبة صغيرة تخلو من الزخرفة، و يتقدم المحراب عقد حدوي متجاوز، يرتكز في منبته على تاج صغير في كل طرف، و هذين التاجين محمولان على عمودين رخاميين رشيقين، و يحمل في مظهره العام سمات زخرفية ترجع إلى تأثير محلي، فزخارفه، و حجمه يتشبهان كثيرا محراب جامع سيدي أبي الحسن بتلمسان (اللوحة33).

و هذه بعض نقاط التشابه التي تظهر للوهلة الأولى كالآتي :

- العقد الحدوي الذي يحيط بفتحة المحراب .
- الزخرفة التي تطغى على كامل الإطار .
- وجود ثلاث أشرطة كتابية .
- التشابه في بنيقة العقد، و موقع الصدفة المركزية .

إلا أن التشابه في الزخرفة واضح للعيان(*) ، وهذا النمط من المحارب استخدم في أغلب المدارس المغربية، إلا في بعض التفاصيل كالمقاسات و وضعية الزخارف، فهي تختلف من مدرسة لأخرى[1].

(*) - زخارف محراب المدرسة حديثة و المقارنة أجريت باعتبار أن المرمم حافظ على الأسلوب الزخرفي الأصلي لها.

(1) - Bel Alfred , Opcit , pp. 190 , 193 .

و ميزات محراب مدرسة العباد تتمثل في أنه بارز عن جدار القبلة، ذو شكل مضلع، و هذا طراز مغربي على عكس محراب مدرسة الصهريج، و محراب مدرسة أبي الحسن بسلا .

و يحمل المحراب عقد دائري متجاوز (حدوة الفرس) به زخرفة جصية تحيط بقرص العقد، على شكل جامات تأخذ زخرفة نباتية و هندسية بالتناوب، تذكرنا بعقود الأبلق بجامع قرطبة، إذ تتناوب الحجارة المكونة لقرص باللون الأبيض، و الأحمر (اللوحة.34)، و تدعى هذه الزخرفة بالصّناجات .

إلا أن فتحة المحراب المغطاة بالقبة ذات الزخارف الجميلة المكونة من المقرنصات، كما هي الحال في محراب جامع سيدي أبي الحسن بتلمسان فقدت كامل زخارفها عبر الزمن، و لم يهتم المرممون بإعادة المقرنصات التي تتدلى من أعلى سطح هذه القبة، و لأن المدرسة ستشهد في الأيام القادمة ترميمات جديدة على مستوى الزخارف و الجدران، و يمكن تدارك الوضع و إعادة تشكيل المقرنصات المفقودة داخل فجوة المحراب[1] .

- العقود :

استعمل العقد الحدوي المتجاوز على محور باب المدخل و باب قاعة الصلاة، فهو يتصدر المدخل (اللوحة.29)، يليه مباشرة عقد ثان من نفس الطراز يفتح على الرواق و يقابله عقد من نفس الوتيرة الذي

---

[1] - مازال بعض الحرفيين المهتمين بالزخارف المعمارية متمكنون من هذه التقنية بمدينة تلمسان تمت معاينة أعمالهم في الورشات أثناء العمل الميداني .

يشكل فتحة الرواق باتجاه الصحن، و يقابله عند نهاية الصحن أمام بلب قاعة الصلاة عقد دائري .

و هذا النوع من العقود معروف في العمارة الإسلامية المغربية، و يعرف بعقد حدوة الفرس[1]، (الشكل.22،23) و (اللوحة.27) .

أما العقود المنفذة الباقية أتت في شكل عقد حدوي منكسر متجاوز، و ذلك عبر عقود الرواق و فتحات الغرف. إلا أننا نلاحظ العقد الدائري المفتوح لا يرتكز على منبت للعقد، فهو يلتحم تماما مع الجدار و هذا بقاعة الصلاة (مدخل القاعة) .

و في الغالب استعملت العقود بأنواع عديدة في بناء المدارس المغربية، فهي ميزة العمارة الإسلامية، كذلك العقود الصماء و نفذت بشتى الوسائل و المواد، كالحجارة، والآجر المشوي، و من بين العقود التي تظهر في مدارس السلطان أبي الحسن العقد المفصص[2]، و الذي لا نجده في مدرسة العباد إلا على مدخلها في شكل حلية زخرفية تحيط بعقد المدخل مشكل من 21 فصا (الشكل.03) .

---

[1] - الطيب عقاب، لمحات من العمارة و الفنون الإسلامية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص 24 .

[2] - العقد المفصص ظهر في فترة مبكرة في عمارة الأندلس في عهد حكم المستنصر بن الناصر الأموي سنة 965 هـ، راجع نفس المرجع، ص.25 .
أيضا/ مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، ص116 .

- التيجان و الأعمدة و الدعامات :

زينت قاعة الصلاة بالمدرسة بتاجين يستند عليهما عقد المحراب، صنعا من مادة الجص، و يلاحظ على كل منهما الرشاقة و التناسب مع حجم أسطوانة العمود الرخامي الذي يستند عليه، و هذا النوع من التيجان الذي ينسب إلى طراز محلي مغربي راجع إلى تطور التيجان الموحدية التي كانت تحافظ على أشكالها الموروثة مع الإبتعاد عن الصور الحيوان و الأشخاص، و قلصوا من ضخامة التيجان و تكييفها مع الكتلة العامة للعمود و التاج و منبت العقد .

و أدخل فيما بعد الأرابيسك في نحت التيجان، و أصبح التاج المغربي نقطة إنتقال بين العمود و منبت العقد[1].

و غالبا ما تحمل التيجان سريرا أو سطحا يقوم عليه منشأ العقد، و تاجي عقد المحراب بالمدرسة (مدرسة العباد) مزخرفان بورقة نخيلية ملساء، تلتف حول أغصان تنبت منها كؤوس على شكل ثمرة الكرز، و هذه عناصر من زخرفة الأرابيسك .

و نلاحظ هذا النوع من التيجان الجصية مستعمل في جامع سيدي أبي الحسن، وهي واسعة الإنتشار في المغرب الإسلامي و تكوينها أساسا من تعرج أو قوس سفلي طويل، و من ورقتين

---

(1) - Marçais. G, A.M.O , p.236.

نخيليتين (الشكل.20) مزدوجتيـــن محيطتيـــن بورقـــة، كمـــا يوجـــد هذا النوع من الزخارف في قصر الحمـــراء[1].

تقوم عقود المدرسة على دعامات رباعيات الشـــكل، تخلـــو مـــن الأعمدة إلا عمودي المحراب، و في الأركان الأربع للصحـــن ترتكـــز العقود على دعامات في شكل حرف (لـــ) لام الإبتدائية. علـــى عكـــس مدرسة سلا، فعقود الصحن ترتكز على أعمدة رشيقة أسطوانية مكســـوة بالزليج الملون (اللوحة28،29)، إلا أن دعامات مدرسة العبـــاد كـــانت مكسوة سابقا بطبقة من الزليج اندثرت بعامل الزمن، و لم يراعي تلبيسها بعد الترميمات التي أجريت عليها [2] .

- القبة :

إن ما يطبع المدارس المغربيـــة و خاصـــة مـــدارس الســـلطان أبي الحسن، طريقة التسقيف لقاعة الصلاة، التي اتخذت شـــكل القبـــة، فقاعة صلاة مدرسة العباد مسقوفة بكاملها بقبة تسمو على المربع الـــذي تكونه جدرانها الأربعة، فمن الداخل أخذت شكل قبة دائرية ذات رقبـــة مصنوعة من الخشب، أما من الخارج سقفت بالقرميد الدائري على شكل هرمي، كما يحاط بالقبة الخشبية جدار يسمو إلى سطحها، و ذلك مـــن الجهات الأربعة، يقام فوقه سدة خشبية وضع فيها القرميد بشكل مـــائل،

---

(1) - Marçais.W.G , les monuments arabes de tlemcen ,p.251.

(2) - Marçais. G, A.M.O , p.291 .

و هذا تأثير أندلسي في التسقيف، استعمل في العمائر المغربية[1] (الشكل02) .

و أصل القبة بعيد في تاريخ البشرية، فليست من إختراع المسلمين إن كان أصل الكلمة عربيا، فقد كانت معروفة عند البيزنطين، و كان الأكاسرة في الفرس يزينون قصورهم بالقباب، إنما ابتكر العرب القبلب الصغيرة ذات الخصر أو الرقبة الرشقة. إلا أن المغرب الإسلامي عرف نوعا آخر من القباب الدائرية، كالتي امتازت بها غرداية و واد سوف[2].

أما القبة الخشبية فيعود أصلها إلى الهند، التي عرفها العرب فيما بعد، و منها نشأت القبة الحجرية[3]، لكن القبة الخشبية لقاعة صلاة مدرسة العباد (سيدي أبي مدين) يرجعها مارسيه إلى العهد التركي في الفترة التي شهدت فيها المدرسة ترميمات، و هي كما سبق ذكره مزخرفة بطبق نجمي مكون من 48 رأسا على شكل أشعة من الخشب مركزها أعلى نقطة في القبة في هيئة شمس مشعة على كامل القاعة، و في قاعدتها تستند على أربع أضلاع خشبية منقوشة بكتابات في شكل أبيات شعرية (اللوحة 41).

---

(1) - Marçais . G , l'art musulman ,p. 179.

أنظر أيضا/ زكي محمد حسن، الأعمال الكاملة في الفنون ،ج7،دار الرائد العربي، بيروت ، لبنان 1981 ص48.

(2) – قباب غرداية و واد سوف مصنوعة من الجص و الحجارة و هي بسيطة في مظهرها في ذلك انظر/ Marcel Mercier , la civilisation urbaine de Mezab, 2è edition ,Alger 1982, p.

(3) غوستاف لوبون، حضارة العرب، نقله إلى العربية، عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، دار الكتب، 1969 ص527. أنظر أيضا/ - كارل بروكلمان، مرجع سابق، ص. 373.

إلا أن إرجاعها إلى العهد التركي فيه من المبالغة، فقد صرح بارجس بأنها من بناء الباي محمد الكبير و هذا استنادا إلى أخبار القائمين على رعاية ضريح سيدي أبي مدين أنذاك[1]، فالترميمات التركية التي مست المدرسة واضحة، من خلال قطع الزليج الملونة في فجوة المحراب .

و القبة لم تكن من بناء الأتراك كلية، بل كان هناك تدخل على مستوى بعض القطع التي مسها التآكل، خاصة أنها من الخشب الذي تأثر بالرطوبة، و كان التدخل على شكل ترقيع و إستبدال قطع بأخرى و طلاء هذه الأخيرة بالألوان منها الأخضر، والأصفر.(اللوحة . 40).

و ما يؤكد عدم إعادتها كليا، هو إبقاء الشريط الكتابي المحيط بالحجرة، و الذي ترتكز عليه القبة بكاملها، و الملاحظ أن استبدال القبة يجبر المرمم على نزع هذا الإطار، و بالتالي إتلافه و عدم القدرة على إعادته، فالترميم كان عبارة عن تقوية القبة دون استبدالها، و لا يمكن إرجاع إعادة بناء كامل القبة إلى عهد الأتراك بناء على أخبار الناس دون الرجوع إلى وثيقة تاريخية تثبت ذلك .

و هذا الخلط نجده عند العامة، ففي مدرسة الصهريج بفاس التي بناها السلطان أبو الحسن سنة (721 - 723هـ/1321- 1323م) و التي

---

(1) - أنظر W.G.Marçais , les monuments arabes de Tlemcen , p.277.

Barges ,Tlemcen ancien capitale du royaume de ce monde part , paris ,1859, p.310.

ذكرها صاحب القرطاس بعد ثلاث سنوات من بنائها، أجريت عليها ترميمات واسعة في عهد السعديين، و ذلك في فترة السلطان عبد الله ابن محمد السايح (965-981هـ/1557-1574م)، حتى اعتقد العامة أن الشريف عبد الله هو الذي بناها، لكنه ليس المؤسس كما اعتقده الكثير[1].

و بتدخل الأتراك العثمانيين في ترميم الضريح، و المدرسة، و إضافة بعض الزخارف البارزة أساسا في قطع الزليج الملونة، و التي أنجزت من طرف الفنان " شرماشيق ". و يتحسر بروسلار على هذه التحفة التي ضاعت رغم ترميمها، لكن دون مراعاة الروح الفنية العالية التي فقدت في ذلك العصر، فشوهت زخارف القبة بالأصباغ و الألوان الغير المنسجمة[2] .

---

(1) - Bel Alfred , op.cit, p.177.

(2) - B rosselard .M. C , op.cit, p.408 .

ب- دراسة زخرفية

- الزخارف النباتية
- الزخارف الهندسية
- الزخارف الكتابية
- مواد الزخرفة

- الزخارف النباتية:

إستعمل الفنان عناصر زخرفية نباتية، في شكل لوحات زخرفية على الجص و الخشب ، و هذا على سطح من الجص، وغالبا ما إشتركت العناصر النباتية مع الزخرفة الكتابية ، وخاصة الخط الكوفي المورق، و ملئت الفراغات، مثل ما هو بارز في إطار محراب مدرسة العباد (اللوحة34).

ففي هذه الزخرفة يتجسد فن الأرابيسك بكل قوة، و الذي يعرف بأنه زخرفة نباتية رشيقة متداخلة مع زخرفة هندسية أحيانا، و على وتيرة متكررة ، فهذه الزخرفة تمثل التوازن، و التكرار، و هي ميزة في الفن الإسلامي الذي يسعى إلى تحقيق عاملين أساسين: أولهما تقديسه للإيقاع و الوزن و التكرار، وثانيهما الروح الهندسية التي تدخل في القالب العام للموضوع الزخرفي.

و عناصر هذا الفن تتكون من ورقة العنب المحورة عن الطبيعة (الشكل 13) ، و هي ذات أصل عريق في العمارة الإسلامية[1] ، زيادة على العنصر الزخرفي المذكور، هناك ورقة الأكنتا، و الورقة النخلية بأنواعها، و ورقة الرمان، و زهرة الصنوبر، وأزهار مختلفة، و عناقيد، و هذا ما نراه في زخرفة مدرسة العباد، و باقي المدارس الأخرى و على إختلاف أنواعها جاءت الورقة النخلية الملساء و المسننة و الورقة النخيلية المضاعفة ... وذلك في توريقات الحروف

---

(1)- Tutus. Burckhardt, l'Art de l'Islam, langage et signification, Ed sindbad, Paris1985, P.114 .

الكوفية، و ورقة الأكنتا، التي يلتف حولها غصن أو إثنين، و هـــي ذات تأثير أندلسي[1] (الشكل 20).

فقد حظيت المدرسة بزخارف نباتية، قوامها العناصر التي أشـــرنا إليها، حظيت من الورقة النخلية، و زهرة القرنفل ... إلا أن الزخـــارف النباتية هذه كانت تشكل في الغالب أرضية لمواضيع تظهر على مســتوى اللوحة، و لهذا نلاحظ أن الفنان اتخذها وسيلة ناجحة لتغطية الفراغ الذي ينشأ بين زوايا موضوعة، و هذا واضح في الألواح الكتابية التي أحيطت بأوراق نخيلية و أغصان، كأنما يريدها أرضية أو عمقا للوحته، و هـــذا الأسلوب معروف عند الفنان العربي المسلم بمحاولة هروبه من الفـــراغ (الشكل 12).

أما إلتقاء الأغصان إلى بعضها في الأعلى تذكرنا بشجرة الحيـــاة التي شاع استعمالها في العهود القديمة عند الساسان و اتخذهـــا العـــرب بشكل محور[2].

وزخرفت الحنايا الركنية لإنتقال القبة في معظم المساجد المغربيـــة، بزخارف و كتابية تزاوجت فيها الورقة النخلية مع الأغصان المتعرجة، و المتفرعة ، التي تحف بشريط الكتابة الكوفية و تكون أرضية[3].

---

(1) - Marçais.G,l'art musulman ,pp.137,138.

(2) - عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق ،ص.81
يقول :إن هذه الشجرة ترسم على هيئة شجرة يحرسها حيوان أو أكـــثر و هـــي ذات معنـــى ديني، فقد ذكرت في التوراة و أشار لها القرآن الكريم في سورة طـــه و الأعـــراف " يـــا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونـــا مـــن الظالمين " ، و قد ظن المستشرقون أن هذه الشجرة هي شجرة السدر أو النبق أخذا من قولـــه تعالى و لقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، (سورة النجم، الآية 7).

(3) - Katarina Atto , op.cit, p.124.

- الزخارف الهندسية:

تتميز الزخارف الهندسية في العناصر الخطية و تداخلها و تقاطعها، كذلك في العناصر المساحية، كالدوائر و المربعات و المضلعات، و الأشكال البيضوية (الهيولية).

و ما امتاز به الفن الإسلامي هو فكرة التقاطع الخطي على غير ما عرفه الفن الكلاسيكي، و هذه التشبكات التي تنشأ عن التقاطع و التي تعرف بالطبق النجمي الثماني رؤوس، و المتعدد الرؤوس[1]، كما تظهر الزخارف الهندسية في العقود الحدوية و الدائرية و المنكسرة و غيرها من العقود (اللوحة.25).

إن الزخرفة الهندسية برزت في شكل لوحات مستقلة، في جدار قاعة الصلاة للمدرسة، كما هو في إطار المحراب في تناولها مع زخارف نباتية في الحلقة التي تحيط بعقد المحراب، لكنه يغلب على الزخرفة الإطار العام الذي يحيط بها، فهو ذو شكل هندسي سواء مربع أو مستطيل أو في شكل عقد، كما هي الحال في زخرفة أعلى جدران غرفة قاعة الصلاة (الشكل.05) و (اللوحة.37).

و من الواضح أن التطبيقات الهندسية في الزخرفة تظهر جليا في المساحات المكسوة بالزليج، سواء في البوابة على الإطار الذي يحيط بعقد المدخل، أو في الجدران بقاعة الصلاة، و الأرضية في الصحن،

---

(1) – مانويل جوميت ، مرجع السابق ، ص.120.

و القاعة التي كسيت بمربعات خزفية ذات (10سم × 10سم)، بألوانها المنسجمة (اللوحة 38، 39).

و في القبة الخشبية التي تعلو قاعة صلاة المدرسة جاءت على شكل لوحة فنية قوامها الطبق النجمي ذو 48 رأسا، و الذي ينطلق من مركز ذو 12 رأسا ينتهي بدائرة تحيط به، و هي رقبة القبة، و التي ترتكز على مربع، و هذه هي التدخلات الخطية التي أنشأت طبقا نجميا، في إطار محصور بدائرة.

و في المغرب عموما كان العمل بالزخرفة الهندسية على الجص جد محدود إلا في بعض الأماكن، مثل قبة سيدي إبراهيم بتلمسان و بصفة عامة، فالزخرفة الهندسية عرفت تقلصا ملحوظا على الجص، إلا أن تطبيقاتها على الزليج عرفت تطورا كبيرا في القرن الثالث عشر و الرابع عشر الميلادي (السادس و السابع الهجري) و عرفت تطورا مع تطور الهندسية، و ذلك في تلبيس أفاريز المآذن و واجهات المداخل، و القاعات، و الأرضيات، فتح مجالا خصبا للتشبيكات الهندسية، و التداخل في المضلعات المصنوعة من الزليج.

و لأن سهولة تحضيره، التي تعتمد على تجميع القطع فوق أشكال مرسومة مسبقا، أصبح إستعماله منتشرا في المباني[1].

اتجه البعض أن هناك محتوى فلسفيا في التعبير الفني بواسطة الفنون الزخرفية، و الخط، و في دلالة تلك الأشكال و الخطوط،

---

(1) - Marçais. G, A.M.O , p.356.

و وضعت لها تفسيرات تكاد تكون نسبية لأن الطريق في هذا المجـــال مازال يتطلب بحوثا عديدة، و معمقة[1].

إن مضاعفـــة أضـــلاع المربـــع تحمـــل الرغبـــة الســـيمائية و الرمزية و الروحية الباطنية لتحويله إلى دائرة، و هكـــذا تضـــاعفت أضلاع النجم ثلاث مرات من 08 إلى 16 ، إلى 24 رأسا، و لم تتجـــاوز هذا العدد إلى فترة متأخرة إذ بلغت 48 رأسا[2] كما شاهدناه في الطبـــق النجمي في قبة قاعة الصلاة بمدرسة سيدي أبي مدين (اللوحة 38).

و طغى الشكل المربع في زخارف الزليج التي تكســـو العمـــائر الإسلامية، سواء الدينية أو المدنية منها، فكسيت الأرضيات بمربعـــات ذات ألوان مختلفة تعكس أشعتها، كأنها مصابيح تضـــــيء، و لـــهذا أطلق على هذه الصناعة بصناعة النور[3]. يقول إبـــن خلـــدون واصفـــا الزليج بعد وضعه في الجدار : "... كأنه قطع الرياض المنمنمة "[4]

و لعل فكرة المربع مرتبطة بالجانب الروحـــي و العقـــائدي لـــدى المسلمين ، فالكعبة ذات أربعة أضلاع ، وعدد الخلفاء الراشدين أربعة ، إلى غير ذلك من القياسات التي تبدو سطحية في طرحها ، إلا أن فكـــرة تحويل المربع إلى مثمن تحمل هذا التفسير الذي يوحي بأصل تصميـــم

---

(1) – وليد الجار، إستقراء التراث الفني و آثره في النـــهوض الحضـــاري، مجلـــة تـــاريخ و حضارة المغرب، العدد 14 ديسمبر 1974، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ص.100.

(2) – أسعد عرابي، الصناعة الروحية والهبوط إلى الساحة الفولكلوريـــة، مجلـــة البحريـــن الثقافية، الدوحة-قطر، العدد 15، جانفي 1998، ص.128.

(3) – المرجع نفسه ،ص .129 .

(4) – إبن خلدون، المقدمة، ص.260 .

المدرسة التي تقوم على صحن و أربعة أضلاع تحيط به، و في المشرق الإسلامي أربعة أواوين[1].

الزخارف الكتابية :

أخذت الكتابة دورا كبيرا كعنصر زخرفي في العمائر الإسلامية، ليس فقط تلك الكتابات التي تحيط بالإطار الزخرفي كما شاهدناه في الإطار الكتابي الذي يحيط بالمحراب لقاعة صلاة مدرسة العباد.

فقد جاءت الكتابة على شكل زخرفة نجد ذاتها، كالأشرطة الكتابية الفاصلة بين الزخارف النباتية، والهندسية أحيانا و المنفذة بالخط الكوفي المورق، الذي أصبح يشكل تزاوجا بين الزخارف النباتية من جهة، و تتمثل في الأوراق النباتية المتفرعة في نهايات الحروف و الزوايا، و زخرفة هندسية نشأت من انتقال الخط الكوفي في الزوايا، و المعينات، والمثلثات، التي تنشأ من تشابك حروف هذا النوع من الخطوط، و أخيرا ينتج لدى الفنان تشكيلة زخرفية عناصرها مختلفة.

و يصعب لدينا التميز بين الكتابة و الزخرفة فتتعسر قراءتها، و لا يتفطن لها إلا الخبير في الفنون و الخط، وهناك ألواح لا يمكن أن تفك رموزها كتابتها، لأنها أصلا لم تحمل غاية في القراءة، بل هدفها زخرفي محض، هذا ما نلاحظه في الأشرطة الزخرفية التي تكررت

---

(1) _ Tutus .burckhardt, Op.cit,p.236

فيها عبارات إسم الجلالة " الله " و " الحمد لله " في عبارة " أنعمت يارب فزد فلك الحمد ".

أما النصوص القرآنية ، و الكتابات التأسيسية ، فكانت تنفذ بالخط المغربي[1] الذي انتشر استعماله في هذه الفترة و هذا ما نراه في الكتابة التأسيسية في أعلى جدار قاعة الصلاة، في شكل أبيات شعرية، مع الإشارة أن حالته اليوم متدهورة بسبب الأصباغ المترادفة على سطح اللوح الخشبي، و الذي يحول دون قراءة الكتابة مع العلم أن الخط الكوفي كان استعماله مقتصرا على الزخارف الجدارية، فنظرا لما فيه من جمال في تعرجاته الهندسية، التي نراها على المساحات الجصية للجدران في قاعات الصلاة للمدرسة المرينية خاصة مدارس السلطان أبي الحسن، فقد تكررت فيها العبارات نفسها تقريبا.

ففي المدرسة المصباحية، كتابة زخرفية تكررت في شكل قوالب جصية : " العز القائم لله ، الملك الدائم لله " ، " البركة " وهذه العبارات متكررة في أغلب المدارس المرينية الباقية اليوم[2].

أما عبارة " لا غالب إلا الله " نجد أنها كتبت في بيت العقد المزخرف للمدخل، و هي ذات تأثير أندلسي، فنجدها متكررة في زخارف قصر الحمراء و جاءت بالخط الأندلسي[3].

---

(1) - Bel. Alfred, op.cit, p.248 .

(2) - الدولالتي عبد العزيز، مسجد قرطبة و قصر الحمراء، دار الجنوب للنشر، تونس 1977، ص.134.

(3) - Marçais. G, A.M.O , pp. 350,352.

و على العموم فإن الخط الكوفي اقتصر بشكل واضح في استعماله سواء على الجص، أو الخشب كعنصر زخرفي في عبارات متكررة و متقابلة أحيانا أخرى، وأضيف له في العهد الذي عرف به الفن المغربي مرحلة بروز قوية، العناصر النباتية و الهندسية، فأضحى لا ينفصل عن الإطار الزخرفي إلى المعنى الكتابي له[1].

أما الخط المغربي الذي امتزج بالخط الأندلسي، و ذلك بعد استقرار أهل الأندلس من الخطاطين، و في المغرب الأقصى و تلمسان، ظهر نوع جديد من الخط المغربي و الذي عرفته الدولة المرينية و أصبح الخط المعمول به في سائر البلاد و في الكتابات الرسمية[2].

إلا أن ابن مرزوق، صاحب كتاب (المسند)، يذكر أنه أشرف على كتابة ألواح الحبوس بايعاز من السلطان أبي الحسن نفسه، و يقول: " ... فقلت له يا مولاي بيضت لهم – الصناع الحرفيين – ما يكتبون فقال لي : بل ترسمه لهم بخطك المشرقي "[3].

و في هذا يوضح تأثير الخط المغربي بمشارب عديدة من الأندلس و إفريقية، كما أن تونس تأثرت بالخط الأندلسي عند نزوح الأندلسيين إليها[4].

---

(1) - توجد قطعة جصية بمتحف تلمسان جلبت من مدرسة العباد و هذه الأخيرة أصلية و ذات تقنية عالية، امتزجت فيها الزخارف بأنواعها الثلاث و حسب ابعد الثالث بطريقة ذكية عبر الصفوف الخطية و هذه اللوحة معروضة الآن تحت رقم (002S).

(2) – عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص.268.

(3) – ابن مرزوق، مصدر سابق، ص.311.

(4) – عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص.267.

و منالمعروف في العمارة الإسلامية بصفة عامة انعدام الزخارف الكتابية و الكتابات على الأرضية الأفقية، وهذا انطلاقا من قداسة الحرف العربي، و إحترام اللغة التي كتب القرآن بها لكن لا توجد على السطح في المباني المرينية و الزيانية، فالكتابات دائما تظهر في إطار مقابل على شكل لوحة أو إفريز يحيط بالقاعة، و هذا ما هو معروف في مدارس السلطان أبي الحسن، و للخط الكوفي الحظ الأوفر في هذه الزخرفة، و نرى كلمتي: " الغبطة المتصلة "، و " البركة الكاملة "، و " البركة "، و " اليمن " و هي كلمات تقع في شريط متكررة على شكل أحزمة، و هذا ما نجده في أغلب مدارس السلطان أبي الحسن[1]، أنظر (الشكل12).

و قامت الكتابة بدور بارز في الزخرفة، و كان مصدر إلهام الكتابات هو القرأن الكريم كعبارة البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " و التي انتشر استعمالها و كلمة " لا إله إلا الله " ، " محمد رسول الله "، و التي تلخص مفهوم الإسلام و نظرا للصورة الجمالية للزخارف الكتابية ، أصبحت لوحات فنية ترتاح لها النفس و تشغل البصر[2].

كما أن الجانب الزخرفي طغى على معنى هذه الكتابات، حتى أن المسيحيين استعملوها في تزين عمارتهم، بجلب قطع وقعت في أيديهم

---

(1)- Bel. Alfred, op.cit, p.381

(2)- Gustave Le Ban, la civilisation des arabes ,S.N.E.D ,Alger 1969 P.419.

تحمل كتابات عربية، كالتي عثر عليها على بوابة كاثدرائية سان بيار بميلانو[1].

- مواد الزخرفة:

نفذت الزخارف الفنية للمدرسة على الجص، و الزليج، والخشب، و الرخام... .

أولا الجص : استخدم الجص بشكل واسع في العمارة المغربية في القرون الوسطى، و استعمل في تلبيس الجدران الداخلية للغرف، وكذلك المساحات التي تغطى، كما هي الحال في الأروقة، و للجص فائدتين : التخفيف من صلابة الجدار الحجري، و عزله للحرارة و البرودة، أي كمادة أساسية في البناء هذا من جهة و من جهة أخرى سهولة التعامل معه في إضفاء زخارف فنية على سطحه، و الزخرفة على الجص معروفة منذ القديم.

فنلاحظ في آثار مدينة سدراتة بالجزائر التي تقع بالقرب من مدينة ورقلة بالصحراء، الألواح الجصية التي تكسو الجدران الداخلية لجميع المنشآت داخل هذه المدينة المندثرة التي تعود إلى القرن العاشر الميلادي[2] و لسهولة تحضير المادة، و ثمنها الزهيد استعملها الناس بصفة واسعة.

---

(1) _ Ibid, p.420.

(2) _ حملاوي علي، الزخرفة الجصية بين التطور و الإنحطاط في المباني الإسلامية بالجزائر، (ق. 4 – 8 هـ/ 10 – 14 م)، مقال بمجلة الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر، العدد1، 1992، ص.57-68.

أما بمدينة تلمسان، فقد اتخذ الجص كمادة بنـــاء، (مـــادة لاحمـــة، و مادة تزينية) أجريت عليها الزخارف الفنية التي لا تزال قائمة فـــي الجامع الكبير بتلمسان، و جامع سيدي أبي الحسن، و جامع سيدي أبـــي مدين بالعباد، و المدرسة التي زينت جدران قاعة صلاتـــها بالزخـــارف الجصية التي طفت على ثلاثة أرباع الجدران، و في العديد من المبـــاني الأخرى.

و يتحصل على هذه المادة بعد حرق الصخور الكلســـية الرســـوبية ذات الأصول العضوية، و يستخرج الجير، و الجص و الجص الصلـــب باختلاف درجـــة الحـــرارة. إلا أن العنـــاصر نفســـها تبقـــى مكونـــة لهذه المادة[1] :

- كربونات الجير.
- كلس : سلكات الأليمنيوم.
- شوائب الكالسيوم.

و يذكر العلامة ابن خلدون مادة الجـــص، و كيفيـــة تحضيرهـــا، والعمل بها، سواء في البناء أو الزخرفة، و يتطرق إلـــى نوعيـــن مـــن التقنيات أولها: الزخرفة المباشرة، و تنفيذ مباشرة على الجـــدار فـــوق سطح أعد مسبقا من الجص ، و ذلك بالحفر بواسطة قطعة من الحديـــد ، وهذا ما أشار إليه مارسيه بـــ " نقش حديدة "[2].

---

(1) - Marcel Mercier, op.cit, p.299.

(2) - ما زالت هذه التقنية معروفة عند الحرفيين المغاربة و بهذه التسمية .

أما الطريقة الثانية: و هي إعداد قوالب يصب فيها الجص على شكل سائل لين يسري عبر أجزاء القالب المكونة للوح زخرفي (سالب)، و بعد تجفيف ينزع القالب و يبقى اللوح الزخرفي (موجب) ثم يثبت على الحائط بعد ذلك، و هاتين الطريقتين مازالتا مستعملتان إلى يومنا هذا في الزخرفة على الجص[1] .

ثانيا الزليج :

اهتدى إليه المصريون القدامى، فهو ضارب في القدم و عرف انتشارا واسعا في العالم الإسلامي[2]، و في بداية القرن العاشر انتشر في المغرب، من إفريقية إلى المغرب الأوسط و المغرب الاقصى و الأندلس[3].

و أصبح الزليج تقليدا في العمارة و زخرفتها من بداية القرن الرابع عشر الميلادي، خاصة في الفترة التي بنيت فيها مدرسة العباد، في تلبيس أسفل جدرانها، و دعمتها التي تحيط بالصحن، بألواح من الزليج، و تلبيس الأرضية سواء في الصحن، أو قاعة الصلاة، رغم أن الدعامات فقدت كساءات الزليج مع مرور الزمن.

و تقنية صناعة الزليج محلية، كانت تقام لها مصانع على حافة المدن الإسلامية، ففي تلمسان أشتهر صنع الزليج و الآجر، الذي ينشأ

---

(1) – عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص.260.
يتكلم ابن خلدون أيضا عن صناعة الألواح الفسيفيسائية المتكونة من الحجارة الملونة، و الزليج و طريقة صناعته. راجع المقدمة، نفس الصفحة.

(2) – مانيول جوميث مورينو، مرجع سابق، ص.370.

(3) – كانت دعامات الصحن، والجدار المقابل لها مكسوة في أسفلها بطبقة من الزليج.
أنظر / Marçais. G, A.M.O , pp.332.... .

عن شي الطين في أفران عالية الحرارة، و يعرف أحد الأبواب الرئيسية الشمالية لمدينة تلمسان بالقرمادين، نسبة لصناع الآجر و الزليج[1].

والزليج مادة طينية يكسى سطحها بمادة " السليكا " بعد شيها و إعادة إدخالها الفرن، فتصبح لها طبقة زجاجية، و هذه المادة تمتزج بسائل يحتوي على كبريت الرصاص و الملح، و تغمس فيه الآنية الفخارية، و تعاد إلى الفرن – كما ذكرنا – فينتج عن هذا الحرق طبقة زجاجية.

و لإستخراج الألوان التي يحتاجها الصانع يضاف إلى المزيج الذي تغمس فيه الآنية بعض المواد، و تصدر الألوان بحسب الإختيار، فإذا أريد من القطعة أن تخرج بيضاء بعد الحرق، يضاف إلى المزيج طين أبيض (المينا) و إذا أضيف لها أكسيد الحديد تصبح صفراء بدرجاته اللونية، و مع أكسيد النحاس تكسب لونا فيروزيا أو أخضر، و مع أكسيد المنغنيز لونا بنفسجيا، يميل إلى السواد.

وهذا بالإضافة إلى البريق المعدني الذي يصدر اللون الذهبي، و الفضي،و الذي شاع استعماله قبل هذه الفترة،أيام العباسيين، و عرفه

---

[1] – أنظر الخريطة 02 ، موقع باب القرمادين بتلمسان.

أهل الأندلس فيما بعد[1]، و الألوان هذه الأيام تستخدم مباشرة على الآنية.

و الزليج في استعماله يتطلب مهارة عالية و خبرة دقيقة، فتحول القطع الملونة بواسطة تقطيعا بمقص خاص، و تثبت على مخطط لرسم هندسي أو نباتي على سواء، وتوضع القطع حسب الأشكال المرسومة ثم تصفف مقلوبة، و يوضع فوقها طبقة من الجص، ثم ترفع على شكل لوحة فنية لتثبيت على الجدار، وهذه العملية تذكرنا بتثبيت الفسيفساء الرومانية[2]، التي تستخدم فيها الأحجار المختلفة. و هناك طريقة أخرى و هي الأقدم يضع فيها الصانع القطع مباشرة على الجدار و تركب قطعة تلو الأخرى، إلا أن الطريقة السابقة منتشرة الإستعمال نظرا لسرعة تنفيذ الزخارف و التكلفة الزهيدة لها.

و أهم ما يميز الزليج، الزخارف الهندسية خاصة الأطباق النجمية و التي نراها على واجهة المدخل التذكاري فوق العقد (بمدرسة سيدي أبي مدين) التي تزين أركان الإطار المحيط به بطبقين نجميين ، متكون كل منهما من 16 رأسا و الذي يتفرع منه أطباق نجمية نتجت عن تقاطع الخطوط التي تصدر من المركز على شكل إشعاع، الذي نتج هندسيا من انزياح المربع عن مركزه ليكون مثمنا (الشكل.08) أو نجمة ذات ثمانية رؤوس، تليها حركة ثانية للمربع

---

(1) – مانويل جوميت ، مرجع السابق ، ص ص.170،382.

(2) – بوشناقي منير، المدن القديمة في الجزائر، سلسلة الفن و الثقافة ، وزارة الإعلام و الثقافة ، الجزائر، 1978 ، ص ص. 04،27،73 .

لتضيف أربعة رؤوس و حركة ثالثة، و رابعة لينتج في الأخير طبق نجمي ذو 16 رأسا.

و النجم ذو ثمانية رؤوس ضارب في القدم استعمل في قرطبة على شكل أطباق نجمية أساسها المربع، و تطور إلى أن وصل 12 رأسا، ثم 16 ، إلى 24 ، و 48 رأسا ... و هكذا تنتج رؤوس كلما أزيح المربع عن مركزه بزاوية 45°. و بالتالي يتفرع الإشعاع من المركز إلى فضاء أوسع، و في المشرق اكتفي بستة رؤوس في النجم دون مواصلة الحركة، و بالتالي بقي التركيز على النجم المركزي و الإهتمام بالمركز[1].

---

(1) Marcais.G. A.M.O, p.358.

جـ- مـواد البنـاء :

عرفت العمارة الاسلامية في هذا العهد (القرون الوسطى) تطـورا كبيرا من الناحية التقنية، والجمالية، و ذلـك بعـد إحتكـاك المسـلمين بالحضارات الأخرى و إستقرارهم و وفرة الأمـوال اللازمـة لانجـاز المشاريع الضخمة.

و في المغرب الاسلامي مثال واضح على التطور الحاصل فـي العمارة الدينية، التي بدأت بجامع القيروان بتونس، ذو التأثير المشـرقي (سوريا) والمدينة المنورة، و تأثير محلي، وذلك بجلب الأعمدة مـن خراب المدن الرومانية القديمة المجاورة، و هذا يعطي صورة واضحـة لانفتاح الفنان المسلم على الثقافـات و التكنولوجيـات التـي تصادفـه بتوظيفها في منجزاته[1]، و بتعدد مواد البناء حسب وفرتـها فـي كـل منطقة يختار واحدة أو اكثر في البناء.

و يدرج المؤرخ العلامة " عبد الرحمن بن خلدون " نصا يتكلم فيه عن مواد البناء و تكنولوجبة إستعمالها لهذه الفترة، منها ما هو مسـتعمل في مدرسة العباد، و منها مـا هـو مسـتعمل فـي بنايـات أخـرى، و جل هذه المواد استعملت فـي العمـائر المرابطيـة و الموحديـة،

---

(1)- Gustave le bon, la civilisation des arabes, SNED, Alger, p.416.

و الزيانية، و المرينية، و ذلك على حسب توفرها، و الحاجة إليها أحيانا أخرى[1].

و أهم ما يطبع العمارة الزيانية و المرينية، و ما يغلب على العمائر الباقية إلى يومنا مواد كثيرة نذكر منها :

- الحجر المشذب :

أو الحجر المصقول الذي يقطع من المحاجر القريبة للمدينة، نلاحظه في المدرسة بوضوح، فصنعت منه درجات السلم الصاعد إلى البوابة و هو من النوع الصلب الأملس، منحوت بعناية فائقة خاصة القطع الموضوعة على الجدار المحاذي للسلم الذي يقابل الجدار الشمالي للمدرسة. (اللوحة. 19).

إن إستعمال الحجرالمشذب بهذه الطريقة يمتد إلى العصور القديمة التي سبقت الدول الاسلامية في المغرب، خاصة في تلمسان التي تحتوي على بقايا المدينة الرومانية القديمة " بوماريا "- كما ذكرنا- إلا أن المرينيين و الزيانيين استعملو و الحجر الصلب في الأساسات بصورة أكبر لتحملها للرطوبة، و التآكل.

- الآجر:

استخدم الأجر بصورة واسعة في المباني الاسلامية بمدينة تلمسان، سواء عند الزيانيين أو المرينيين، و استخدم كثيرا في بناء العقود و الجدران.

---

[1] – ابن خلدون المقدمة .ص ص. 260،261.

و واضح من خلال الرواق الفاصل بين الجامع و المدرسة، و الذي أنشئت عقوده من القرميد المصفوف بطرق مختلفة تدعو إلى فهم عملية البناء و كيفية التعامل مع هذه المادة.

و الآجر مصنوع - إبتداء - من الطين الذي يصب في قوالب، ثم يعرض لعملية الحرق، و يتراوح طول القطعة الواحدة 0,23 م وعرضها 0,12 م و سمكها 0,04 م و هي قطعة مصمتة[1] أنظر(الشكل.04).

- الطابية :

عرفت هذه المادة منذ القديم، فقد استعمالها القرطاجيون على السواحل التونسية والجزائرية و في ضفاف جنوب إسبانيا، وقد توسع إنتشارها في المغرب الاسلامي و في صحرائه، و ما زال يستعمل في العصر الحالي بالجنوب الجزائري[2].

و ذكر إبن خلدون الطابية بهذا الاسم و صانع " الطابية " يدعى " الطواب " .

و الطابية مادة طينية، تضاف إليها بعض العناصر مثل الحصى، و بقايا الأجر، و الفخار، و العظام.

أما عن طريقة إستعمالها فيشير ابن خلدون إلى ذلك في قوله: " ... و منها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا و عرضا ... و يصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها

---

(1) - لعرج عبد العزيز دراسة تحويل وضيفي لمدرسة العباد مرجع سابق، ص.37.

(2) - Mersier,op.cit, p.397.

بالحبال، و يشد بذلك الجهتان البقيتان بلوحين صغيرين ثم يوضع فيها التراب مخلطا بالكلس. و يركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه و يختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانيا و ثالثا إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين و قد تداخلت أجزاء الكلس و التراب و صارت جسما واحدا ... "[1].

و بهذه الطريقة التي يصفها ابن خلدون يبنى الجدار بالقوالب التي تنصب عليه مباشرة، و يناسب عرضها عرض الحائط أنظر (الشكل 27).

و انتشر استعمالها في مدينة تلمسان، فسورها القديم مشيد بهذه المادة، و لاحظنا في باب العقبة[2] قوالب الطابية المكشوفة، و التي يظهر فيها للعيان طريقة البناء التي وصفها ابن خلدون مع ملاحظة القطع الفخارية التي تضاف إلى المادة الطينية المشبعة بالجير، و هناك أيضا قطع من العظام، و الأحجار، والرماد، والقطع الخشبية، و هذا كله يشكل جسما متماسكا صلبا احتفظ بقوته و قدرة تحمله لقرون عديدة.

واستعملت الطابية في بناء مدرسة سيدي أبي مدين " العباد " و نلاحظها في الجهة الجنوبية غرب قاعة الصلاة.

---

[1] – ابن خلدون المقدمة، ص.260.

الخصائص المعمارية والفنية لمدارس السلطان أبي الحسن.

- تتميز بصغر المساحة: إذا ما قورنت بمدارس أخرى " كالمتوكلية " بفاس التي أسسها أبو عنان فارس (751 هـ/ 1350م).

- لم تحتوي على قبور أو أضرحة، و هذه ميزة إشتركت فيها معظم المدارس المرينية.

- إحتواءها على قاعة صلاة وحيدة، تأتي في الجهة الجنوبية للمدرسة، و قد حجبت هذه القاعة عن الصحن بواسطة باب خشبي كبير، فتح فيه بابان صغيران للدخول و الخروج، فهي على عكس المدارس ذات الأواوين التي تفتح مباشرة على الصحن، و نجد في المدارس المغربية عموما. الستار الخشبي الذي يحجب القاعة عن الصحن، و على شكل شبابيك خشبية.

- نلاحظ أيضا فصل الميضأة عن المدرسة، و الإتصال بها بواسطة رواق متعرج لفصل الرؤيا، و عزل الأصوات و الروائح.

- إحتواء هذه المدارس على مدخل رئيسي وحيد، و نادرا ما نجد مداخل ثانوية، كما هو الحال في مدرسة الصهريج التي تتصل بمدرسة السبعيين، فمداخلها تأتي على شكل أبواب تاريخية، و هذا تأثير مشرفي سلجوقي: ظهر في المدارس الأولى.

- في بعض مدارس السلطان أبي الحسن، قسمت قاعة الصلاة إلى أقسام بواسطة عقود تفصلها، مثل مدرسة أبو الحسن بسلا.

---

(2) - أحد أبواب مدينة تلمسان، يقع إلى الجهة الشرقية للسور المحاط بكامل المدينة.

- إحتواءها على صهاريج مياه على مستوى الصحن، و في الميضأة.

- و يعتبر التسقيف بالقرميد الدائري على الشكل الهرمي ميزة عمت جميع المدارس المغربية في هذه الفترة.

- كما أن وحدة مادة البناء، و إن تغير إستخدامها من منطقة إلى أخرى، فهي تعتمد على الأحجار، و الأجر، الذي إستعمل بصفة واسعة .

- كما أن إستخدام الأخشاب ميز المدارس، فقد إستعمل في العتبات، و الأبواب، و النوافذ و الأسقف، و حمل قطع القرميد، و تلبيس الجدران، و الخزانات، و الرفوف و الأحجبة.

- مراعاة التماثل و التوزيع بشكل رئيسي، و خاصة في الكتل المتقابلة، بإتجاه الصحن، و هذا ما يدعى بالسميترية، و مراعاة هذا التماثل بشكل رئيسي في الزخارف، سواء من ناحية المادة أو الأشكال، و في كل الإتجاهات، و نلاحظ القسمين الزخرفين، الذين برزا في معظم هذه المدارس، فمن الأسفل الزخارف الزليجية، و يعلوها زخارف جصية.

- إن العناصر المشتركة بين مدرسة سيدي أبي مدين و مثيلاتها من مدارس السلطان أبي الحسن تتمثل في :

أ) – صغر المساحة؛ إذا ما قورنت بمد ارس أخرى كالمدرسة المتوكلية بفاس[1].

ب) – لم تحتوي هذه المدارس على قبور أو أضرحة، و هذه ميزة اشتركت فيها المدارس المرينية.

جـ) – إحتواءها على قاعة صلاة وحيدة تأتي في الجهة الجنوبية للمدرسة و قد حجبت هذه القاعة عن الصحن بواسطة باب خشبي كبير.

د) – إحتواء معظم المدارس على ألواح الحبوس (التأسيسية) و يتضمن نص التحبيس بيانا بالممتلكات الموقوفة على المدرسة[2] .

---

(1) – و تعرف أيضا بالمدرسة البوعنانية نسبة للسلطات أبي عنان فارس أنجزت ما بين سنة (751 –756 هـ/1349–1355 م) ، وتعد آخر المدارس المرينية و أكبرها، و تمتاز عن باقي المدارس بوجود مئذنة و منبر بقاعة صلاتها. فهي مدرسة و مسجد في نفس الوقت.
أنظر / محمد الكحلاوي ، المرجع السابق . ص .109

(2) – Bel .(A). o p.cit, pp .22-24.

مقارنة بين مدرسة سيدي أبي مدين "العباد" والمدرسة التاشفينية:

- بالمقارنة بين مدرسة العباد و التاشفينية[1]، نجد عدة عناصر معمارية متشابهة، طبقت في كلتا المدرستين، فوضعية الميضأة التي تقع في المركز الشمالي للمدرسة، و الأروقة التي تحيط بالصحن من بين التصاميم المشتركة في المدارس المغربية، سواء كانت المدارس الزيانية أو المدارس المرينية، كما أن المدخل التذكاري الذي خصه المعمار بتصميم خاص يتمثل في علوه على المبنى، و الإفراط في زخرفته بالزليج، كما أن الطابق العلوي في مدرسة العباد يوحي لنا مباشرة بوجود طابق علوي بالمدرسة التاشفينية، و ذلك لكبر مساحتها، و إحتوائها على العدد القليل من الغرف في الطابق الارضي، أنظر مخطط المدرسة التاشفينية (اللوحة.50).

كما أن نظام التسقيف في مدرسة العباد يعطينا فكرة واضحة عن طريقة التسقيف بالمدرسة التاشفينية، و التي أعتمد في تغطيتها على القرميد النصف الدائري، الذي يقوم على هيكل خشبي في شكل هرمي (جملوني)، كما أن قبة قاعة الصلاة في المدرسة التاشفينية قائمة على قاعدة مربعة، و ذلك من خلال المخطط السابق الذكر، لأن قاعة الصلاة المستطيلة الشكل، قسمت إلى ثلاث أروقة، رواقين جانبيين، و رواق أكبر، يحتوي على المحراب في شكل مربع، و هو نفسه مسقوف بقبة

---

[1] - راجع ص. من هذه الرسالة.

تكون مقاربة في الشكل مع قبة قاعة الصلاة لمدرسة سيدي أبي مدين العباد ".

أما الزخارف المنفذة في مدرسة العباد، سواء كانت من الجص أو الزليج، تتشابه كثيرا مع الزخارف المتبقية من المدرسة التاشفينية، و التي مازالت محفوظة بمتحف تلمسان، و البعض الآخر في المتحف الوطني للآثار بالعاصمة (اللوحة.50).

و من المهم جدا، أن المدرستين تدخلان في طراز المدارس ذات القاعة الوحيدة، و هذا طراز تختص به المدارس المغربية، عن مثيلاتها في المشرق التي تحتوي على قاعات تصل إلى الأربعة، و تختلف في حجمها و تعرف بالأواوين .

لكن الزيانيين عمدوا إلى إلحاق مدافن لمدارسهم، و هذا ما عرفت به مدرسة أبي الإمام، و اليعقوبية، و حتى المدرسة التاشفينية، أما المرينيون، فقد تجاهلوا هذا الأمر، ولم يلحقوا مدافن بمدارسهم، لأنهم إكتفوا ببناء أضرحة ملكية خاصة بهم .

و لا بد أن نشير إلى أن المدرسة التاشفينية إحتوت على مئذنة عكس مدرسة العباد التي خلت من هذا العنصر المعماري، و أن مدرسة العباد، تمتاز بموقعها الخاص، الذي انفردت به عن باقي المدارس المرينية و الزيانية، في كونها تشكل أحد عناصر مجمع معماري ضخم، يحوي المسجد، و الضريح، و الزاوية، و المدرسة، زيادة عن القصر الملكي، الذي خصه السلطان أبو الحسن لنفسه .

و المتأمل لهذه التشكيلة المعمارية، يستخلص عدة إستنتاجات في ميزة هذه المدرسة خاصة من الناحية المعمارية، فالواقف في الصحن، يتخيل إليه أن للمدرسة مئذنة، لأن المسافة تكاد تكون منعدمة بين الجامع و المدرسة، إذا كان دور المئذنة تبليغ مواعيد الصلاة إلى الطلبة، فهذا أمر مفروغ منه بوجود مئذنة الجامع المطلة على الصحن (اللوحة 28).

و لو سلمنا بأن المدارس المرينية، خلت من القبور و الأضرحة، فمدرسة العباد امتازت بهذه الخاصية أيضا، إلا أن الأمر الواضح هنا هو أن المركب المعماري الذي بني حول ضريح الشيخ سيدي أبي مدين، و لو كان الضريح منعزلا عن باقي مباني .

و بهذه الخصائص نحاول أن نقول بأن مدرسة العباد ذات ميزة خاصة .

و في هذا يرى " مارسيه " أن قرية العباد بمسجدها و ضريح وليها سيدي ابن مدين و مدرستها و حماماتها، و قصورها كلها عبارة عن زاوية كبيرة[1]. و من هذا تبقى مدرسة يسدي أبي مدين ذات طابع خاص ميزها عن باقي المدارس سواء الزيانية أو المرينية .

---

(1) _ Marçais .(G) Làrt muselman, p. 129-

الخاتمة

و لم يكن ظهور مدرسة العباد بتلمسان طفرة غربية بل سبقتها مدارس من هذا النوع و لهذا حاولت إظهار مدى تأثير هذه المدرسة بالطراز المحلي الذي يمتاز بخصائص وكانت المدرسة التاشفينية النموذج الأصلح لأجراء مقارنة بينها و بين مدرسة العباد. و التي توحي بمدى استقطاب المدرسة التاشفينية للفنان المريني بمحاسنها و جمال صنعتها، و لهذا اشتركت مع مدرسة العباد في عدة عناصر ذكرتها دون إهمال رغم الشيء القليل الذي وصلنا عنها من الناحية الزخرفية و الفنية.

إن مدرسة سيدي أبي مدين ومثيلاتها بنيت في مدة قصيرة مما جعل منها تتشابه في الطابع العام لكن كل واحدة أخذت ميزة خاصة بها و لا يمكن القول بأن نفس القالب طبق في جميع المدارس. هذا من الناحية المعمارية، أما الجانب الفني الذي طغى عليه الأسلوب المغربي الأندلسي، و الذي شكل موجة رهيبة اكتسحت العمائر المغربية – المغرب الأقصى و الأوسط على الخصوص – و أصبحت لغة ذلك العصر و عناصره العديدة و المتشعبة ذات الأصول الضاربة في التاريخ شكلت فعلا وحدة فنية اتجمع فيها المغاربة و لم ينفصلوا عنها إلى اليوم.

و المدرسة تعد تحفة تاريخية و معلما فنيا تحتفي به الجزائر لأنـــه الفريد من نوعه في هذه المنطقة و الذي يعـــود إلـــى هـــذه الفـــترة (ق 14هـــ) فهي نموذج حي " للمدرسة " التي تعـــد النـــواة الأولـــى لظهور الجامعات في العالم و في أوروبا خاصة فهي حقا أم للجامعـــة و حجر الأساس للتعليم النظامي الحديث .

الملاحق

أ – الوثائق .

ب – الخرائط .

جـ – الإشكال .

د – المخططات .

هـ – اللوحات .

- أ -

الوثـــــائـق

* سيدي أبي مدين :

هو أبو مدين شعيب* الأندلسي الإشبيلي، ولد سنة 520 هـ بالأندلس، قرب إشبيلية، و درس بالأندلس، و طنجة و مراكش و فاس، و تلقى علوم " الغزالي " على يد " إبن حرزهم " ثم إتصل بالمتصوف " أبو يعزى "، و درس على يد " عبد الله الدقاق " و "أبي الحسن الشاوي" و اتصل أثناء حجه بالشيخ " عبد القادر الجيلاني " الفارسي و أخذ عنه. و بعد عودته إلى المغرب إستقر ببجاية و أخذ في بث العلم و لما اشتهر أمره و كثر أتباعه. وشى به البعض عند يعقوب المنصور (580 هـ -595 هـ) و قالوا له أننا نخاف منه على دولتكم فإن له شبها بالإمام المهدي و أتباعه كثيرون. فكتب إلى صاحب بجاية يأمره بإحضاره إليه و أوصاه بأن يحمله خير محمل. و لما كان الشيخ أبو مدين بالطريق مرض مرض موته و توفي الشيخ بواد يسر قرب تلمسان و كان آخر كلامه " الله الحق "، و ذلك سنة " 594 هـ " و دفن برباط العباد بظاهر تلمسان و سمع أهل تلمسان بجنازته فحضروها و كانت من المشاهد العظيمة.

---

* - عن هذا العالم. أنظر/ كتاب السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ج2 - في دار الكتاب -الدار البيضاء المغرب، 1954، ص. 297. أنظر أيضا/ أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981، ص.60.

لوح الحبوس : يوجد داخل جامع سيدي أبي مديـــن بالجهـــة اليســـرى للمحراب مثبة بالدعامة الاولى المقابلة له، و هو على شكل لوح رخامي أبيض، عليه كتابة بالخط الأندلسي المغربي تشير إلى تأســيس الجــامع و المدرسة و يذكر الأملاك المحبوسة لكليهما بالتفصيل،و إرتفاع هـــذا اللوح 1،42 م، وعرضه 0،65 م و يحتـــوي علـــى 36 ســطرا و هـــي كالآتي[1] :

بسم الله الرحمان الرحيم و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد وعلى إله و سلم تسليما. الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين. أمـــر ببنـــاء هـــذا الجـــامع المبارك مع المدرسة المتصلة ، بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المســلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن إبن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد إبن مولانا أمير المسلمين المجـــاهد فـــي سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمـــره و خلـــد بـــالعمل الصالح ذكره/ و حبّس المدرسة المذكـــورة علـــى طلبـــة العلـــم الشـــريف و تدريسه وحبس على الجامع المذكور و المدرسة المذكورة مـــن الجـــانب العلي نفعهم الله بذلك جميع جنان القصير الذي بالعباد الفوقـــي المشـــتري من ولدي عبد الواحد القصير وجميع جنان العلوج المشتري من علـــي بـــن المراني و جميع الجنان المعروف بابن حويته الكاين بزواغة المشتري مـــن ورثة الحاج محمد بن حويته و جميع الجنان الكبير و الدار المتصلة من جهـــة غربيه المعروف ذلك باسم داود بن علي المشتري من ورثته و هو باســـفل العباد السفلي و جميع الرقعتين الموروثتين أيضا عنه و اشترينا مـــن ولـــده علي و تعزو إحداهما بابن أبـــي اســـحق و الثانيـــة بـــابن صـــاحب الصـــلاة المغروس منهما و غير المغروس و جميع الجنا المعروف بجنـــان الباديســـي

---

(1)- Broslard ,op.cit ,p.410 .

الموروث أيضا عنه المشتري من يحيى بن داوود المذكور و هـــو بأسفل العباد السفلي و جميع الجنان المسمى بـــن فرعـوش القريـب مـن جنـان الباديسي المذكور الموروثين عنه أيضا و اشترى من ولديه عبـد الواحـد و عيسى و جميع غروسا لأربعة أن الفوقي منها يعرف بابن مكية و الثـــاني بمحمد بن السراج و الثالث بفرج المدلسي و الرابع بابن الفدا قيصن و هـي التي ورثت أيضا عنه و اشتريت من جميع ورثتـه و جميـع داريـة التيـن بجوفي مسجد العباد السفلي المشتراتي أيضا منهم و النصبى الواحـد مـن جنان الزهري مع جميع بيتي الأرحى المبني بغربه و ذلـك بجهـة الوريـط و جميع بيتي الأرحى المبني أيضا بمعلة بني معلي خارج بـاب كشـوط مـن تلمسان حرسها الله و جميع الحمام المعروف بحمـام العاليـة الـذي بداخـل المدينة المذكورة بجهة باب الحديد مع حانوتيه متصلة به على يمين الخـارج من باب القبلي و دويرته المتصلة به من جهة جوفه و مصريته المحملة علـى أسطوانة و النصف الواحد الحمام القديم الذي بداخـل مدينـة المنصـورة حرسها الله و محرن عشرين زوجا بتيمن يومين من زيدور من قطـر تلمسـان المذكورة برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرهـا الله للفقـراء و الحجـاج المقيمين و الواردين عليها واثرة عشرة أزواج بـالموقع المذكـور برسـم ساكنين المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعا للطالب الواحد في كل شهر و جميع جنان سعيد ابن الكماد المشتري من ورثته و هو الكائن فـوق العباد العلوي و تحت ساقية النصراني و جميع جنان القايد مهدي المشتري من ورثته الكاين بزواغة المحروسة و جميع جنان ورثة التفريســي الكـاين تحت الطريق المارين عليها للوريط المشتري من ورثته و جميع أرض جنـــان ورثته التفريسي المذكور الكاين غربي الزاوية المشـــتراة منـهم و بقيـة الرحابة المتصلة بالجامع المذكور الباقية من الجنان المريد بعضه في الجـامع المشتري من ورثة محمد بن عبد الواحد و من ورثة أبيه و أمـــه و عمتـهم ميمونة و لم يتبقا لورثتهم حق و لا مطلب.

جدول [1] :

مقاربة مقاسات صحن كل من المدارس التالية

المدرسة	الطول × العرض	المساحة بالمتر المربع	الطول/العرض
العباد	9,62 x 11,4	109,44	1,5
الصهريج	7 x 12,50	87,50	1,78
السبعين	4,50 x 8	36,0	1,77
المصباحية	7 x 8	56	1,14
أبو الحسن (سلا)	4,85 x 8,50	41,22	1,75
البوعنانية بمكناس	7,55 x 11,50	86,80	1,52

مقاسات قاعات الصلاة :

المدرسة	المقاسات بالمتر	المساحة بالمتر المربع
العباد	5,60	31,60
المصباحية	7,25	52,56
الصهريج	4,3 x 14,20	61,06
أبو الحسن	4,25 x 8,50	63,12

---

[1] – الجدول مأخوذ عن (بتصرف) Golvin ,la madrasa médievale .

- ب -

الخرائط

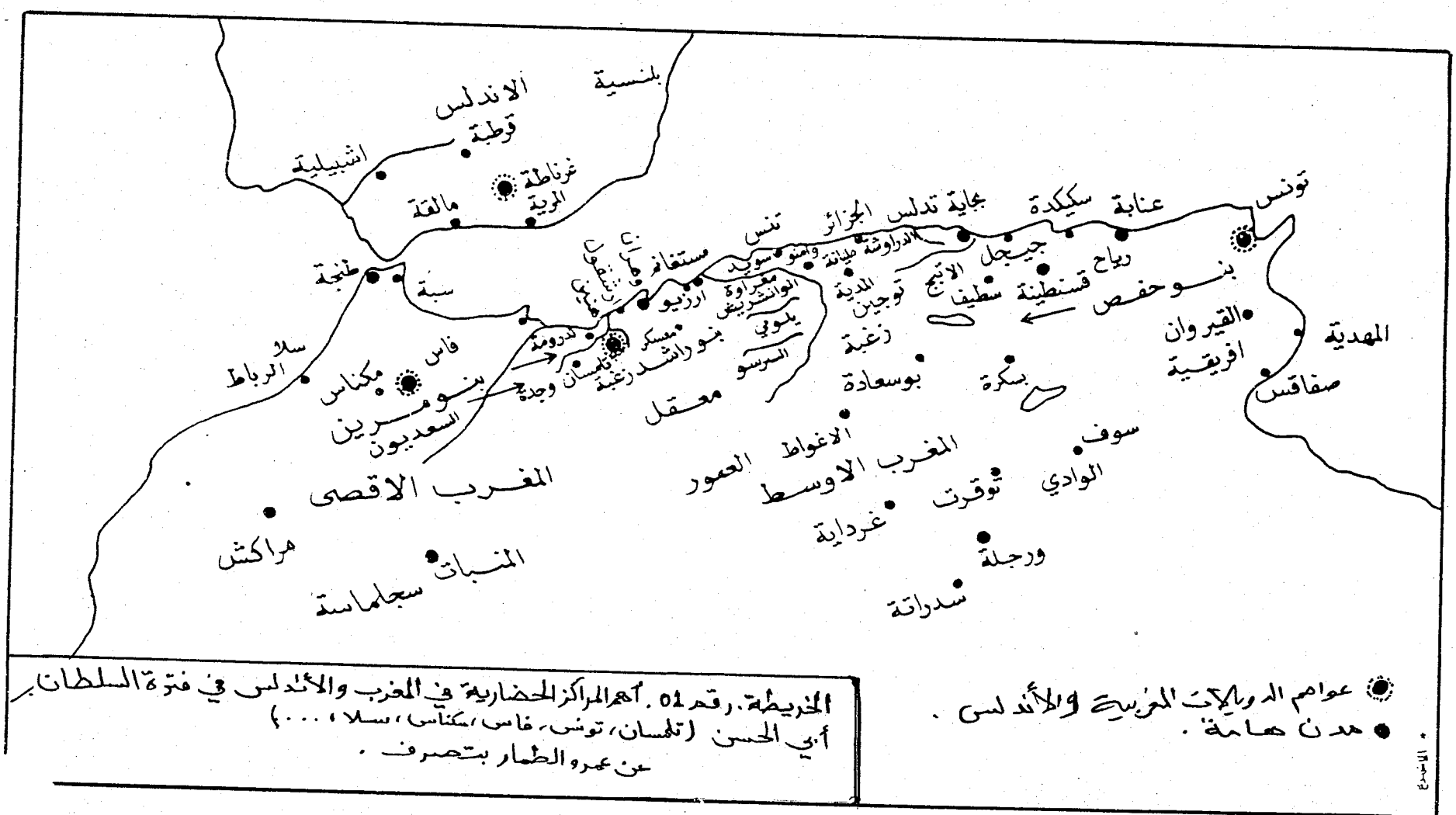

الخريطة رقم 51. أهم المراكز الحضارية في المغرب والأندلس في فترة السلطان أبي الحسن (تلمسان، تونس، فاس، مكناس، سلا، ...)
عن عمرو الطمار بتصرف.

◉ عواصم الدويلات المرينية والأندلس.
● مدن هامة.

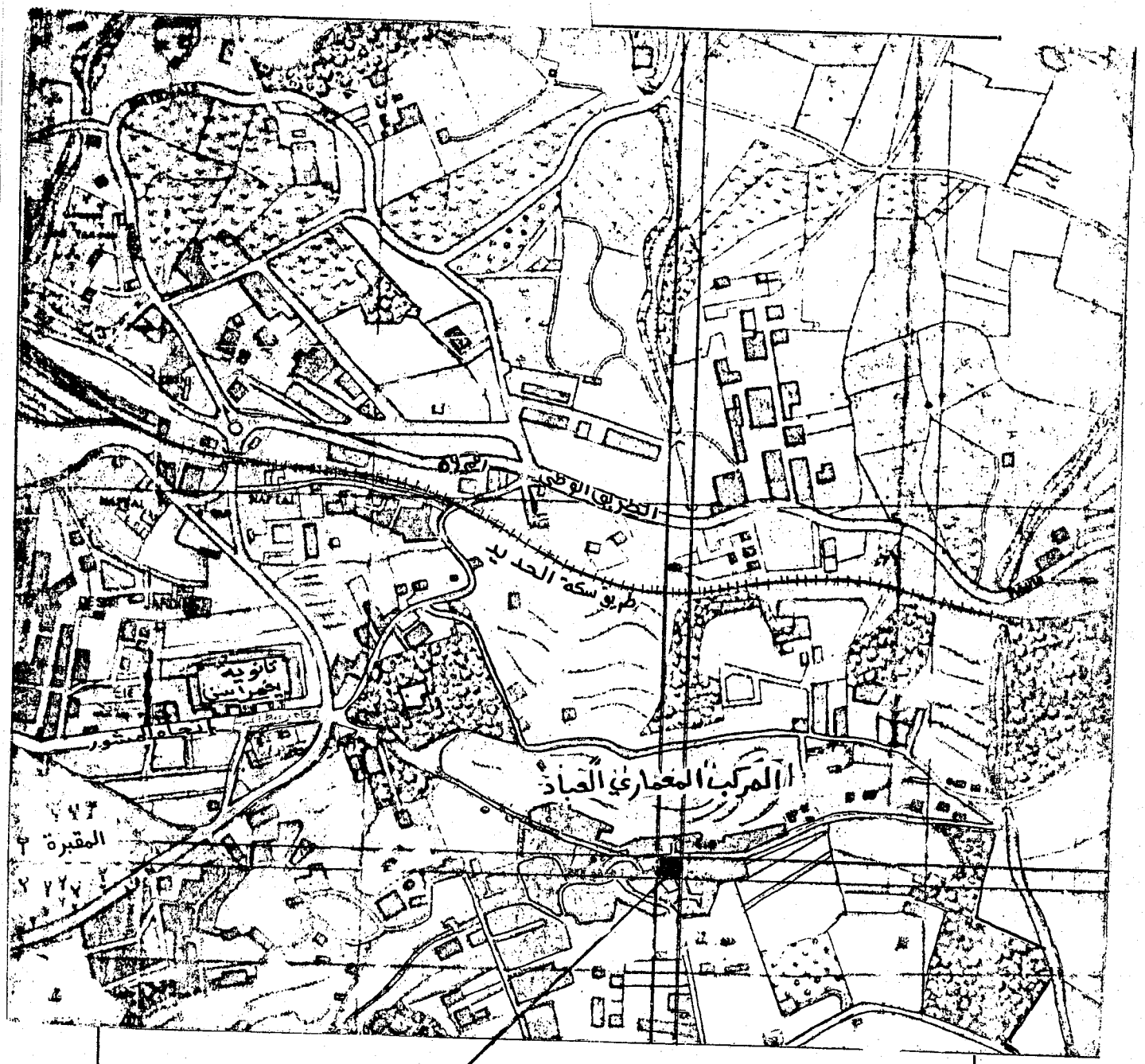

موقع مدرسة سيدي أبي مدين.

السلم : 1/200.

خريطة رقم 05 تحديد موقع مدرسة سيدي أبي مدين.

عن أرشيف الدائرة الأثرية لولاية تلمسان.

- جـ -

الإشـــكـــال

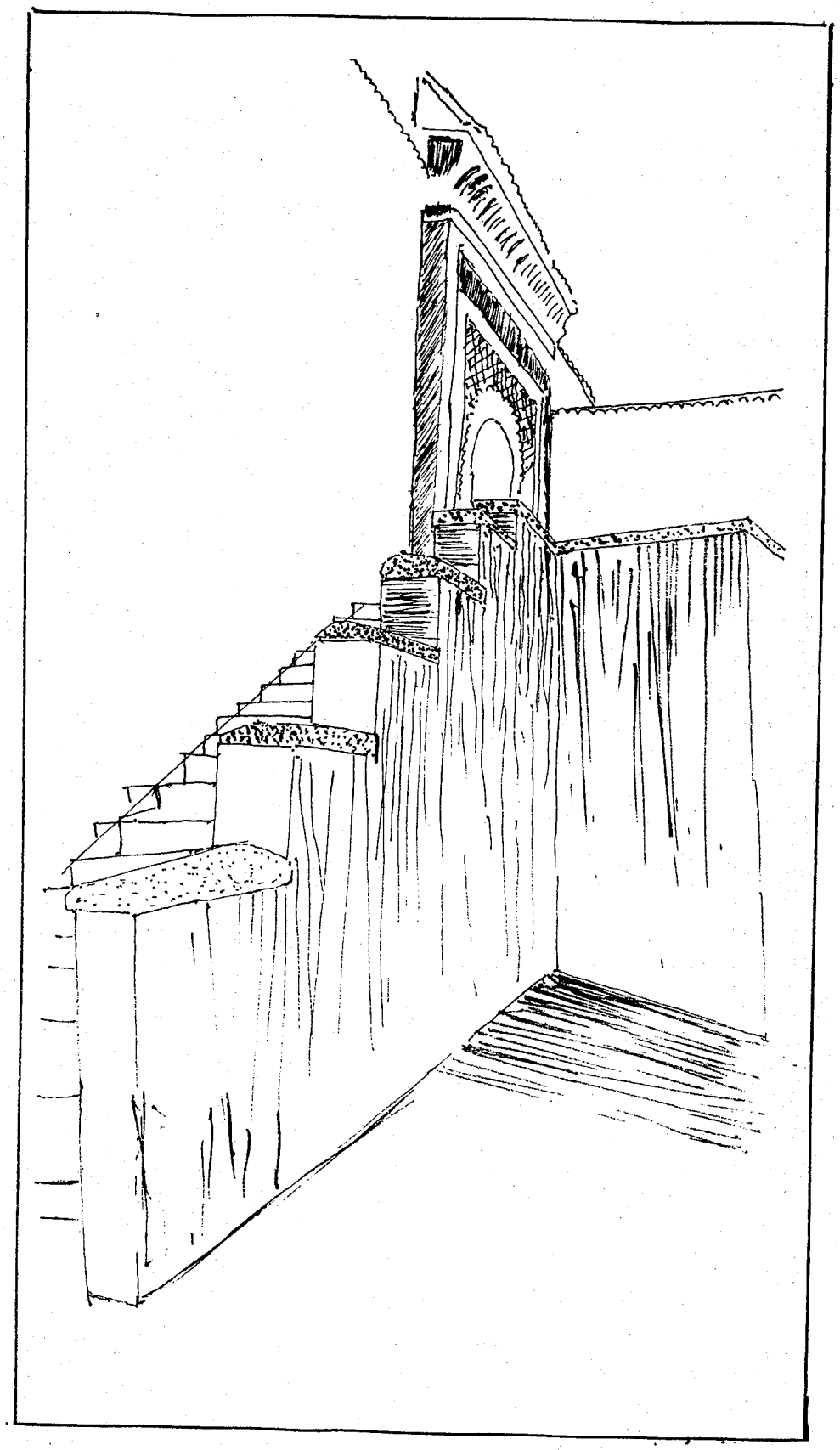

الشكل 1. مدرسة سيدي أبي مدين مدخل المدرسة.

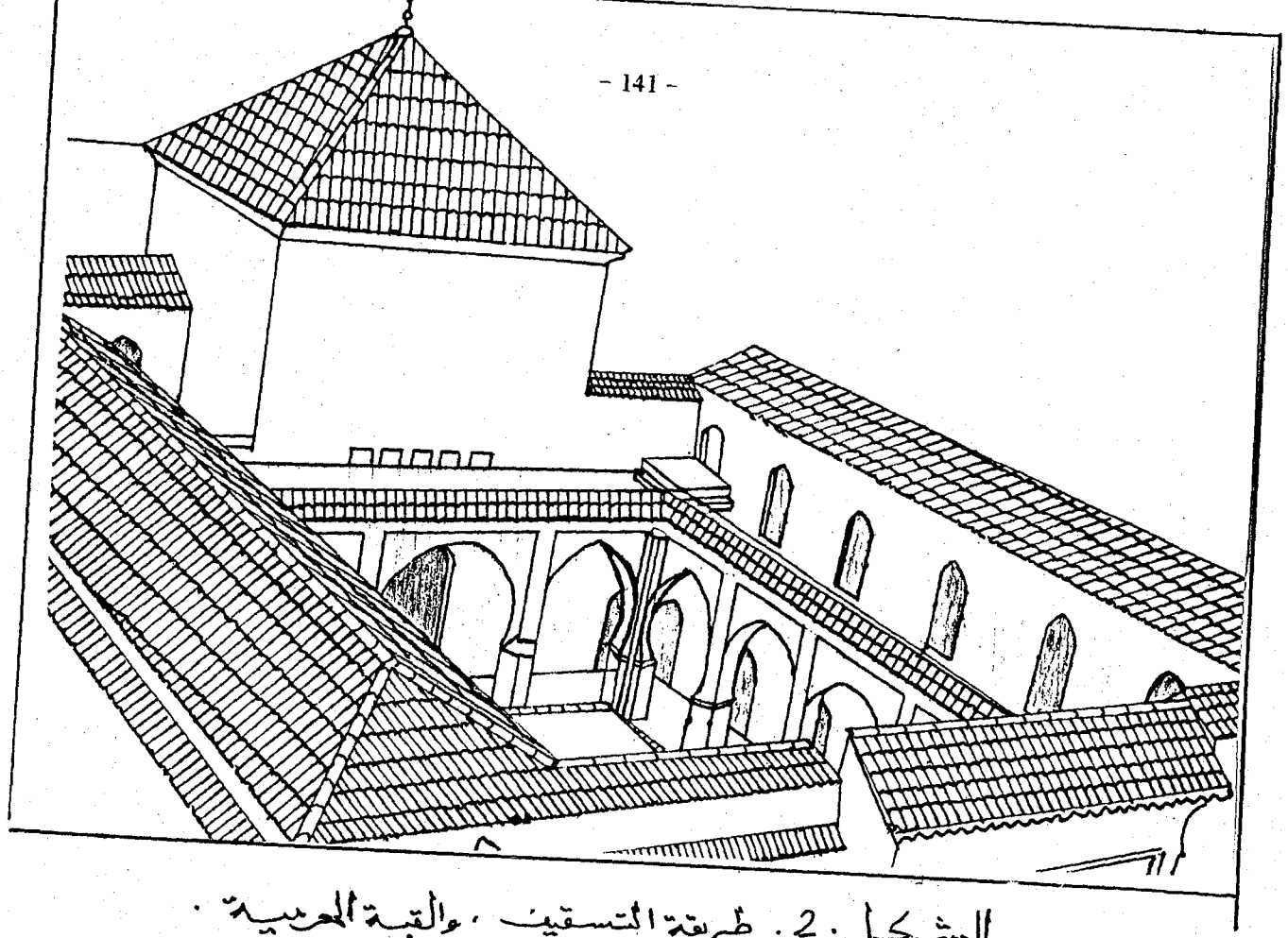

الشكل 2. طريقة التسقيف والقبة الحربية
بمدرسة سيدي أبي مدين.

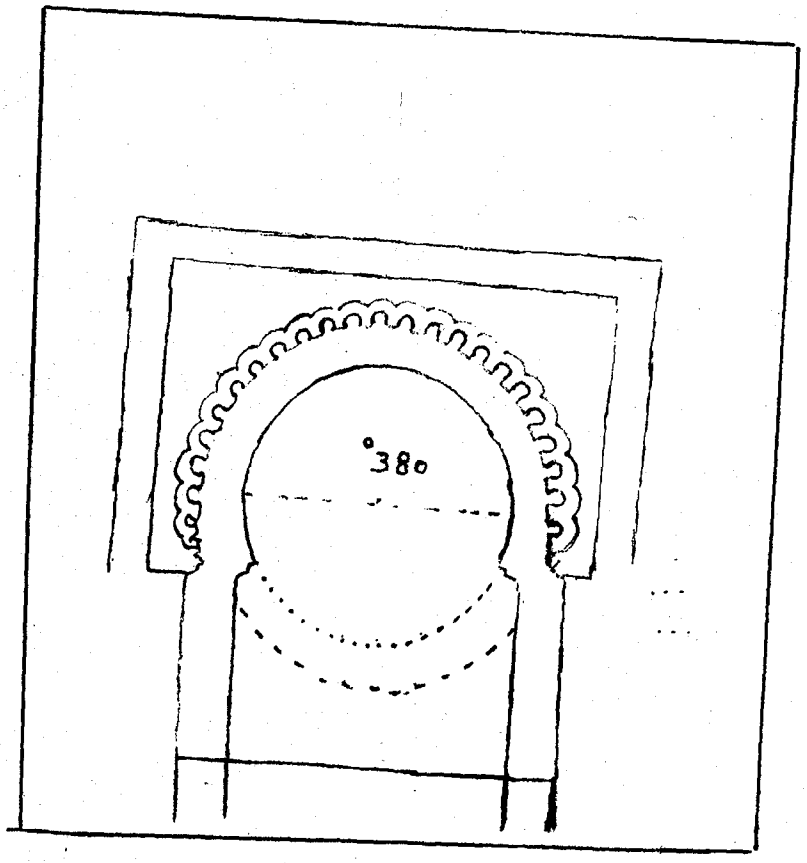

الشكل 3.

مدرسة سيد أبي مدين،
عقد باب المدخل.

X

مدرسة سيدي أبي مدين ،

الشكل ٤١ . الرواق الفاصل بين المدرسة والجامع وطريقة ترتيب الآجر .

X

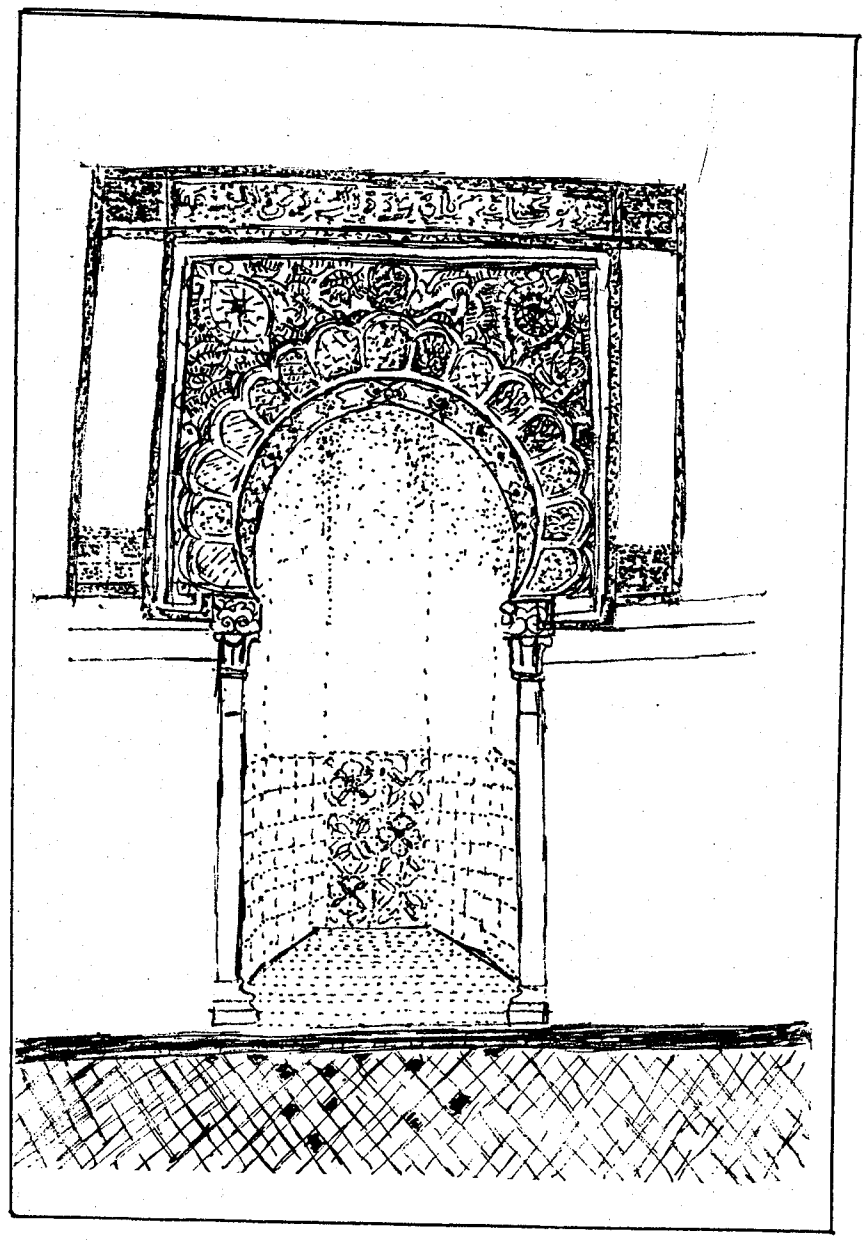

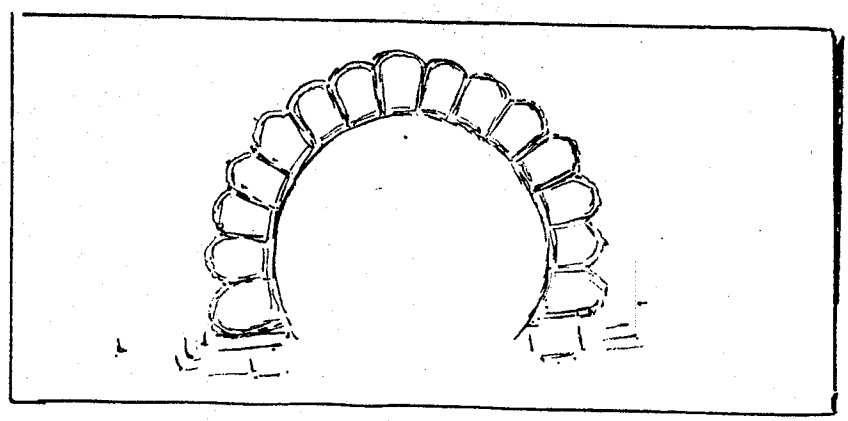

الشكل - 5، 6، مدرسة سيدي أبي مدين، زخارف المحراب.

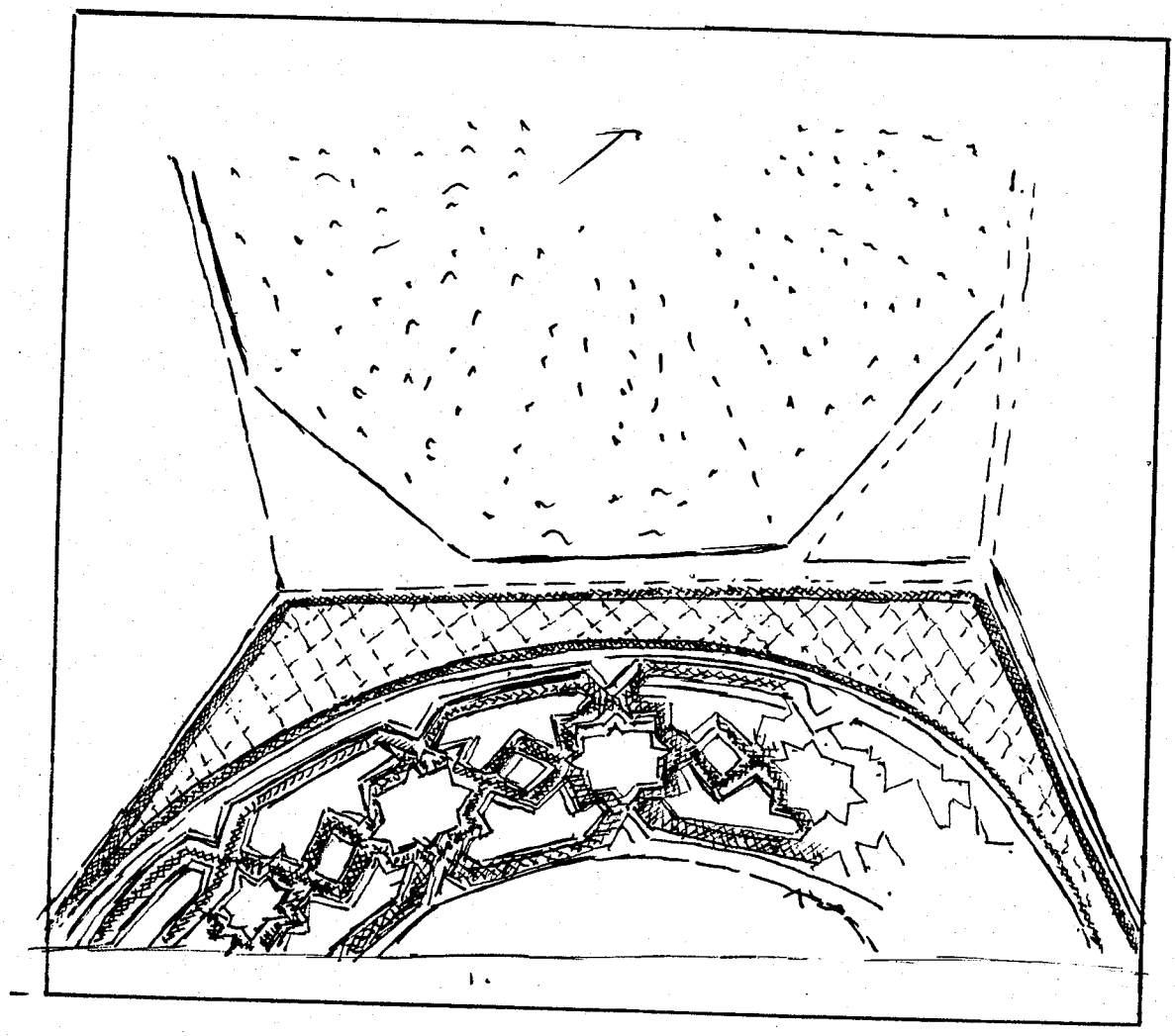

الشكل 7. مدرسة سيدي أبي مدين
زخارف (قبة) المحراب من الداخل بالعناصر الزخرفية الهندسية.

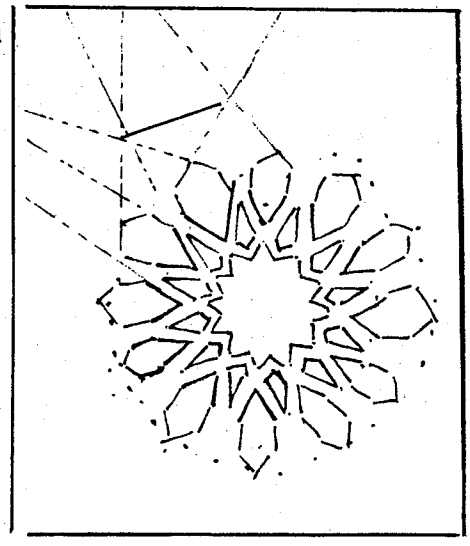

الشكل 8.
مدرسة سيدي أبي مدين
الطبق النجمي ذو الثنا عشر رأسا.

الشكل 09. مدرسة سيدي أبي مدين
زخارف الشريط المحيط
بعقد باب المدخل
والذي أضيفت عليه
بعض الأشكال

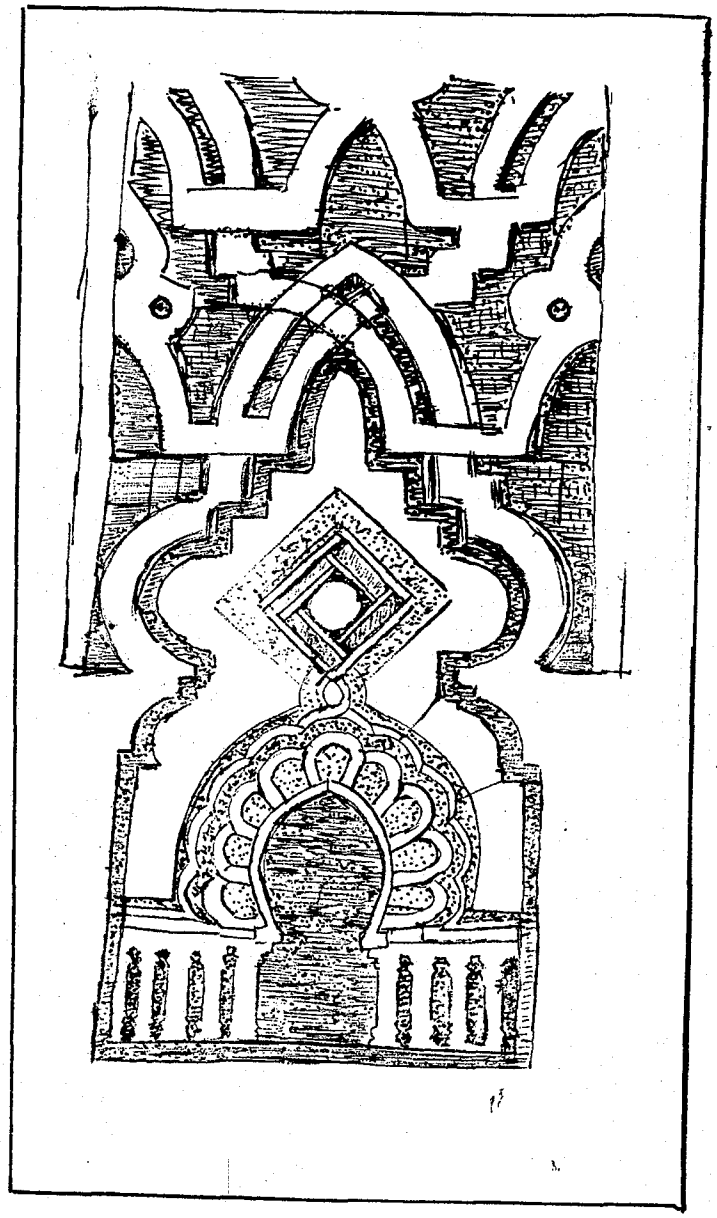

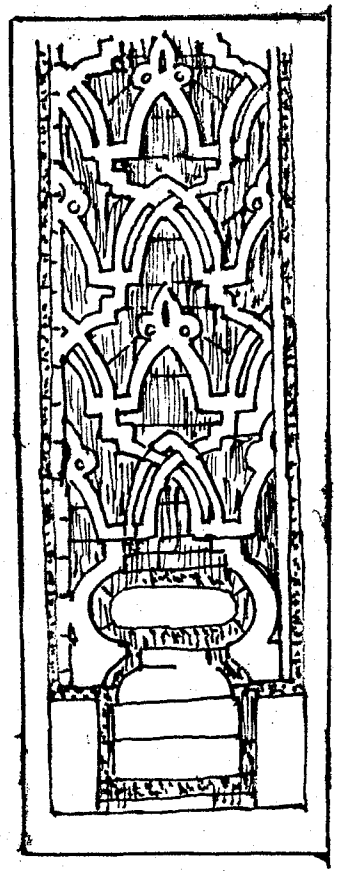

الشكل 10. مدرسة سيدي أبي مدين،
زخارف الشريط
المحيط بباب مدخل المدرسة
لوحة لمارسي.

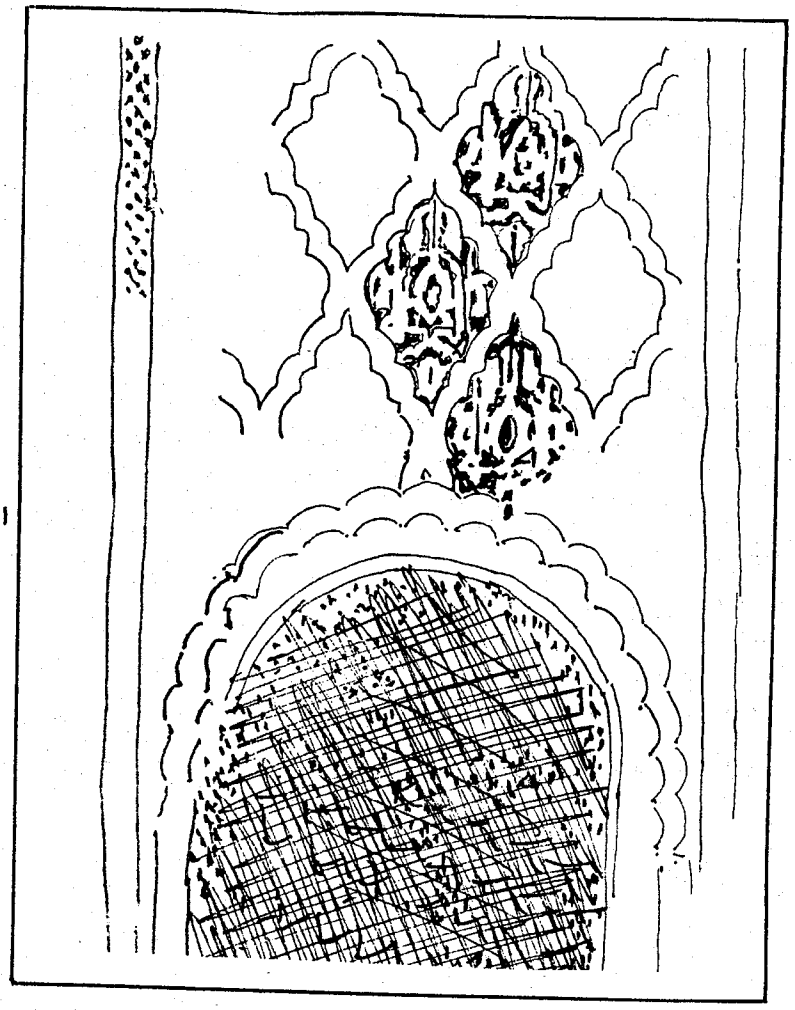

الشكل 11 مدرسة سيدي أبي مدين
الزخارف الجصية .
الأصلية وفقدان الجزء السفلي منها .
بقاعة الصلاة .

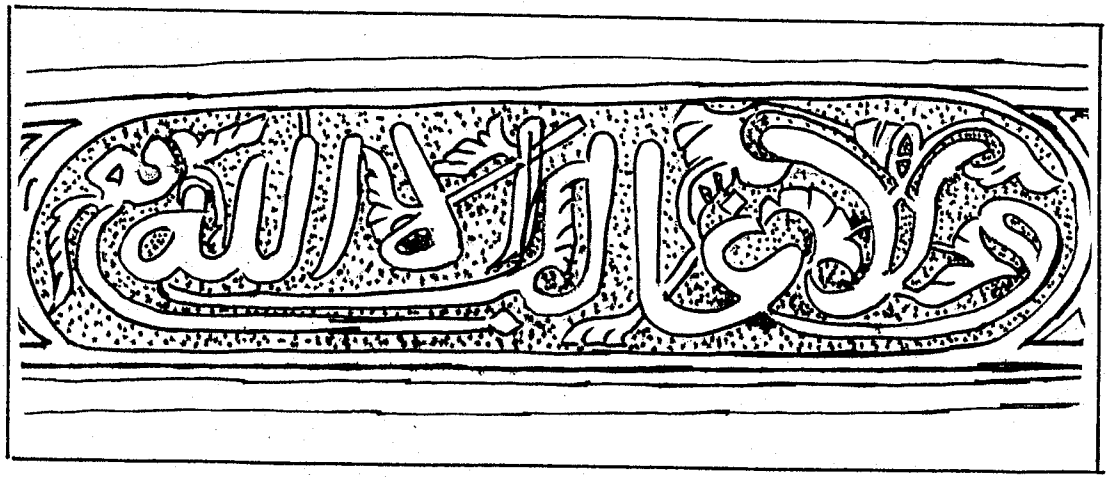

الشكل 12. مدرسة سيدي أبي مدين ، زخرفة كتابية ذات تأثير أندلسي .

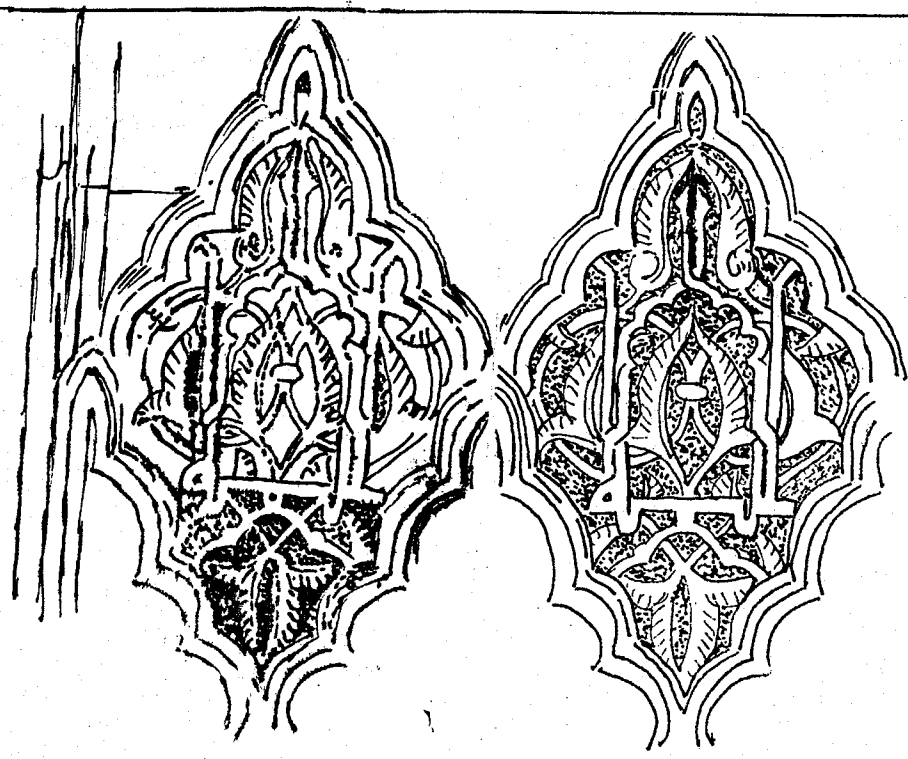

الشكل 13 ، زخارف جصية من الجدار الشمالي لقاعة الصلاة .
عن MARCAIS.(G), A.M.O.

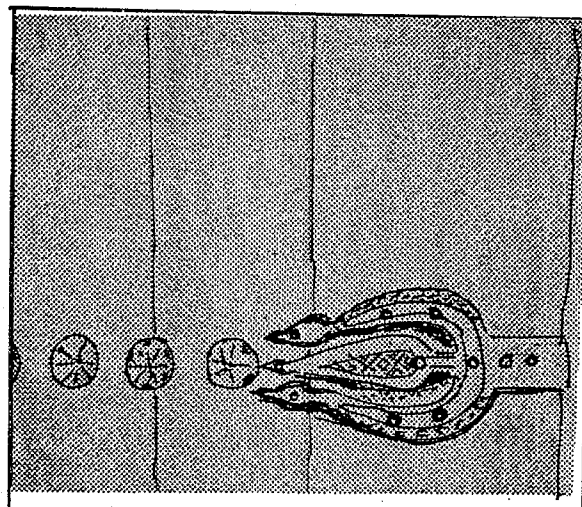

الشكل 15 مدرسة سيدي أبي مدين
المسامير الحديدية في باب المدخل
والصفائح المعدنية المثبتة على شكل
رماح .

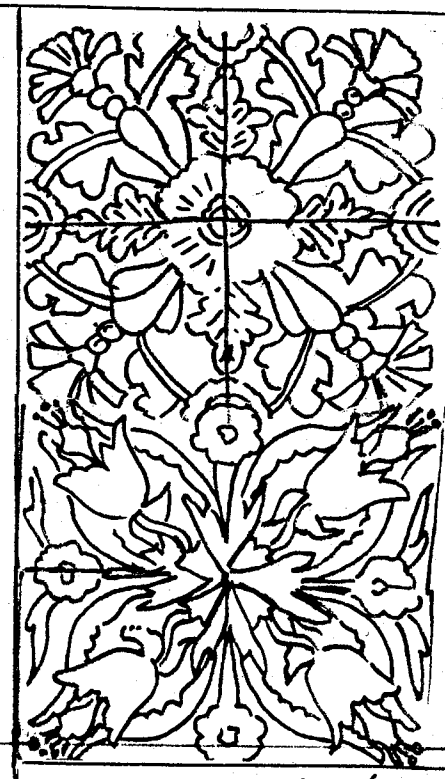

الشكل 14 مدرسة سيدي
أبي مدين
زخرفة البلاطات الخزفية
بجدار المحراب
تعود إلى العهد التركي .

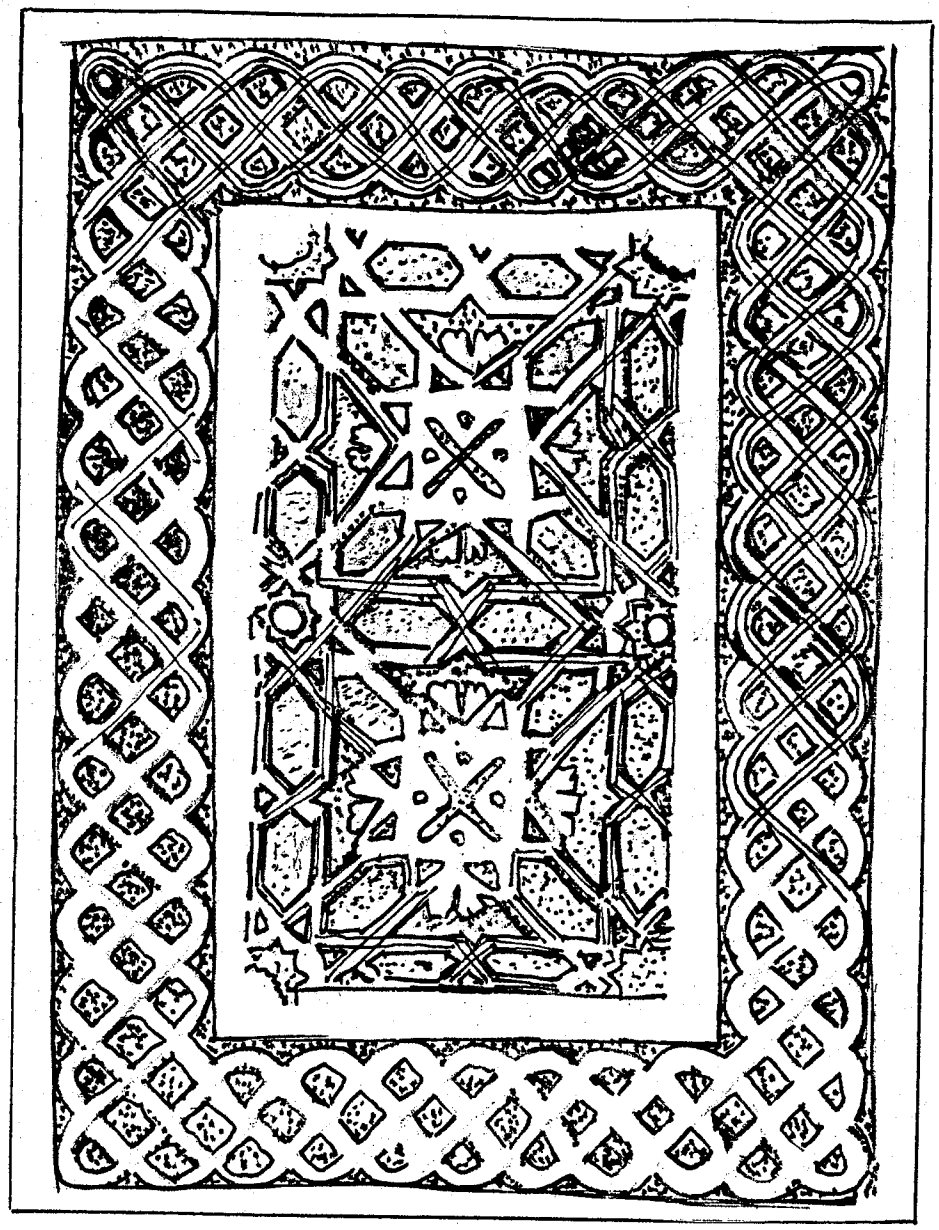

مدرسة سيدي أبي مدين ،
الشكل 16 . زخرفة جصية منفذة على إطار محراب
قاعة صلاة المدرسة .

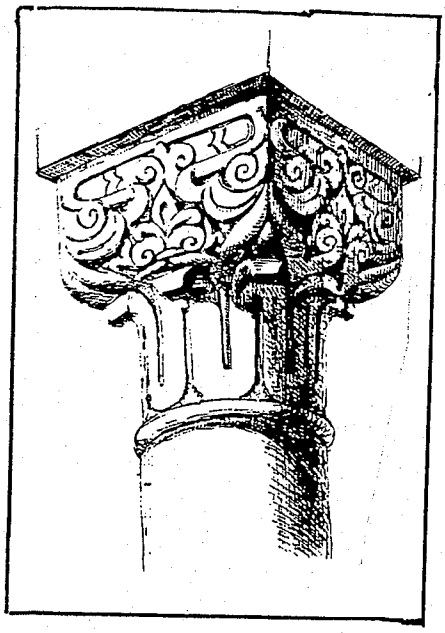

الشكل 17.
أحد تيجان ضريح سيدي
أبي مدين بتلمسان .

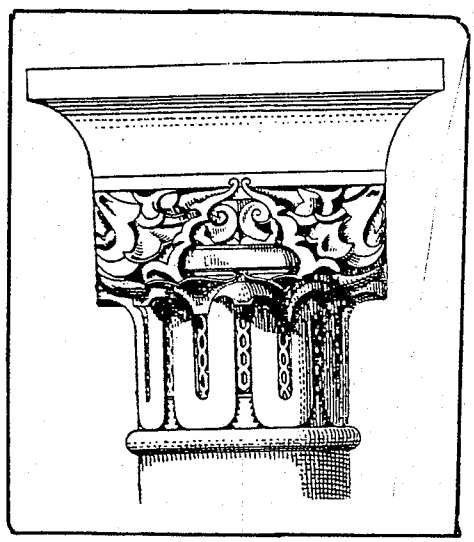

الشكل 18. نمط تيجان
المنصورة .

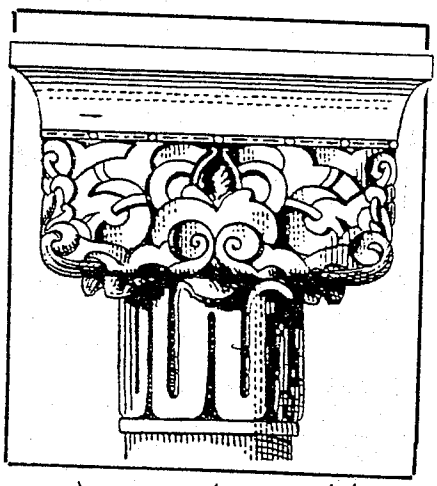

الشكل 19 . أحد تيجان
جامع سيدي أبي الحسن .

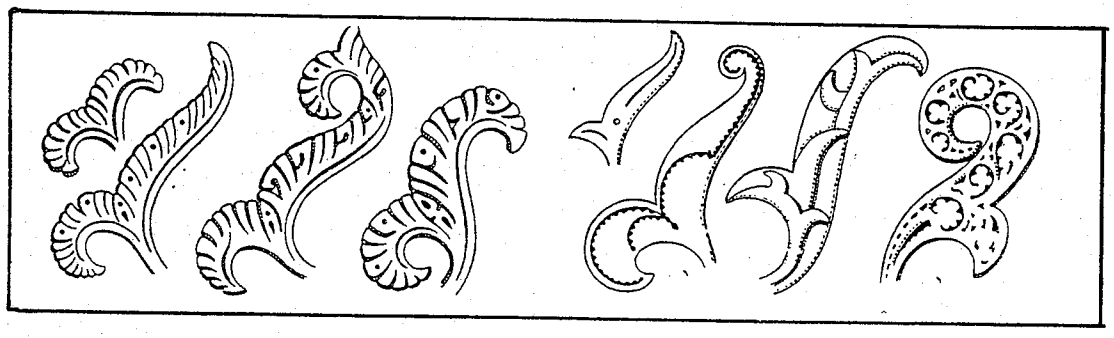

الشكل 20 الورقة النخيلية . الملساء ، والمسننة .

عن مارسيه MARÇAIS.G.A.M.O

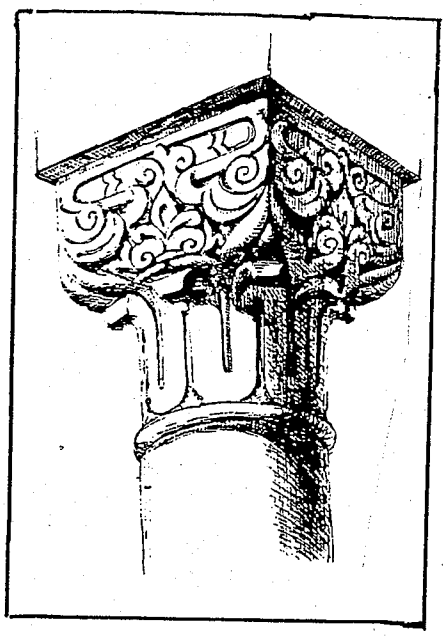

الشكل 17.
أحد تيجان ضريح سيدي
أبي مدين بتلمسان .

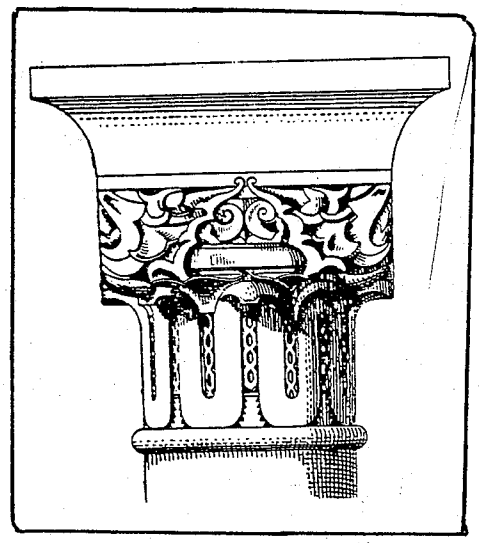

الشكل 18. نمط تيجان
المنصورة .

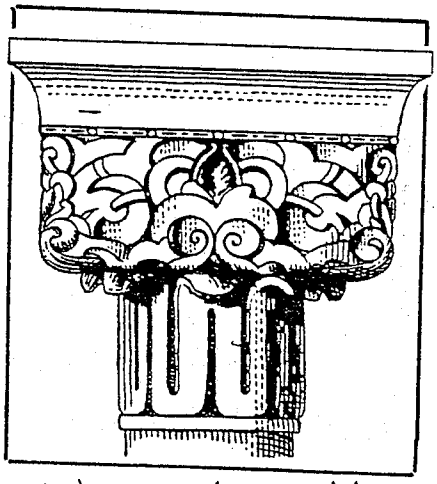

الشكل 19 . أحد تيجان
جامع سيدي أبي الحسن .

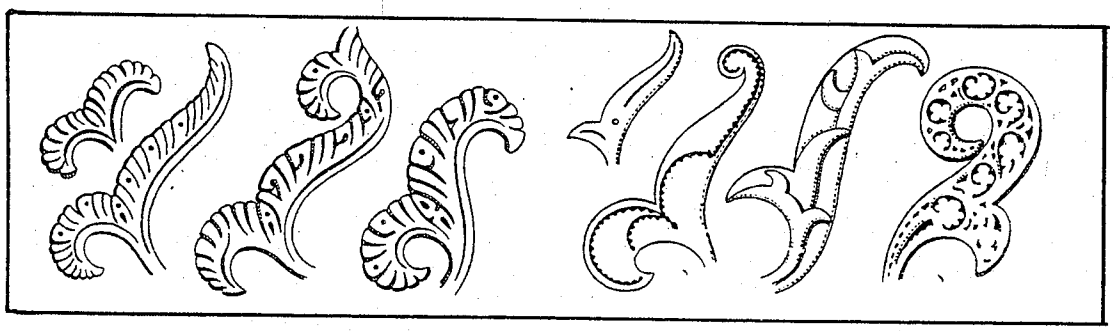

الشكل 20 الورقة النخيلية المسماة ، والمسننة .

MARCA.G. A.M.O عن مارسيه

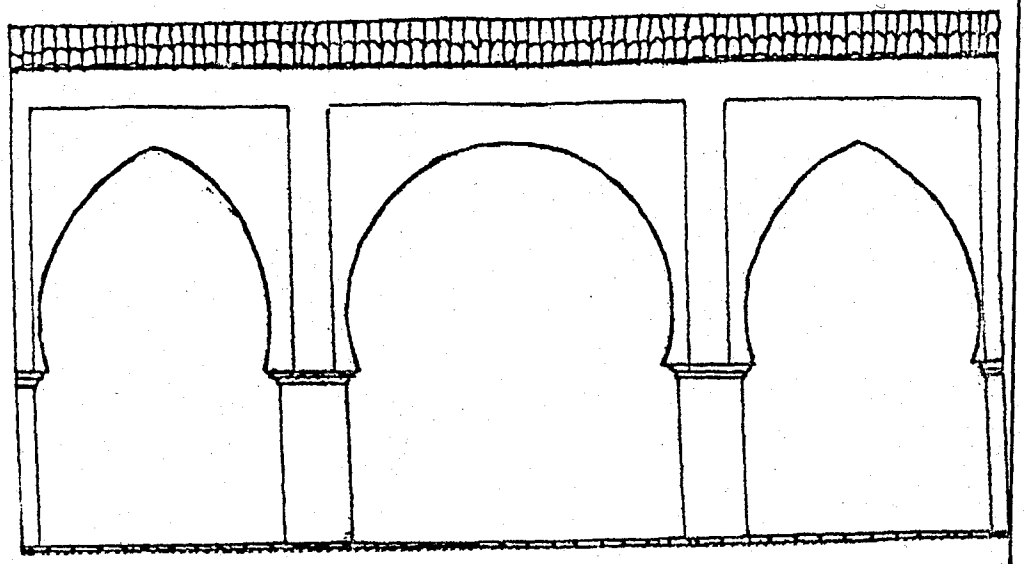

الشكل 23 . نمط عقود الصحن بمدرسة سيدي أبي مدين .

الشكل 24 . أنواع العقود في العمارة الاسلامية

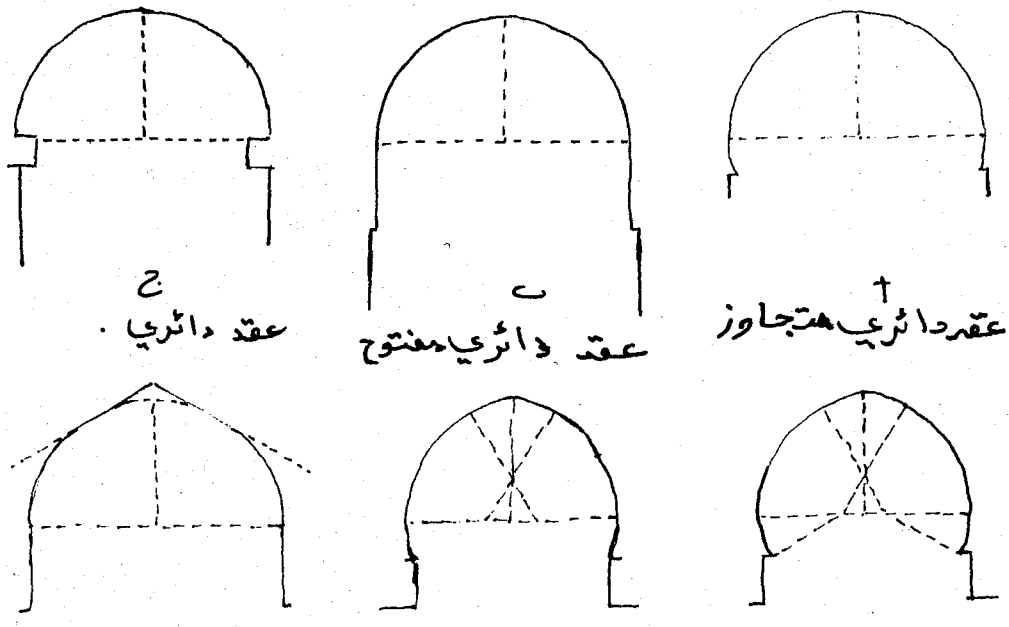

L. GOLVIN *La mosquée*. p. 40. عن

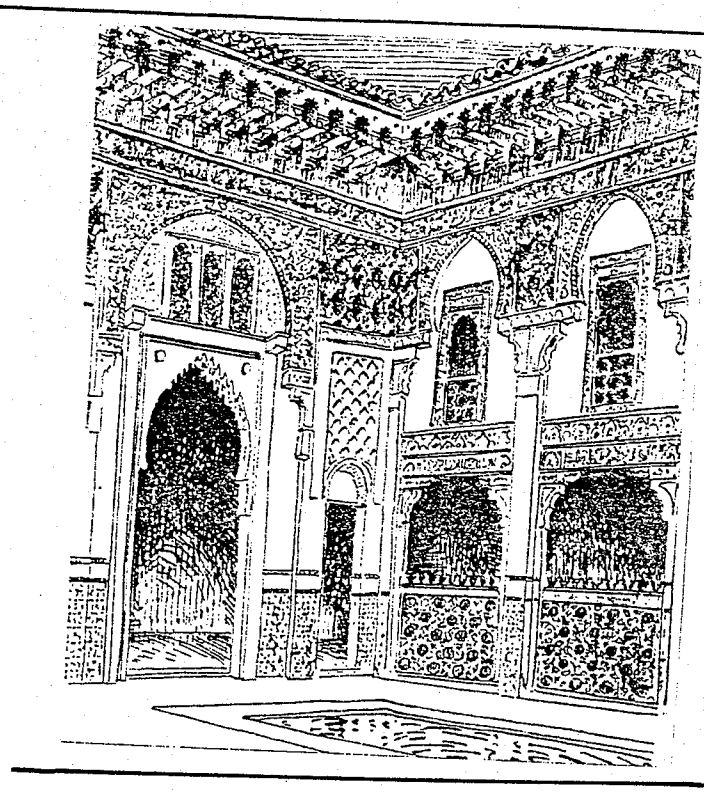

الشكل 25. مدرسة الصهريج
إنجاز مارسي.

MARÇAIS.G, A.M.O.

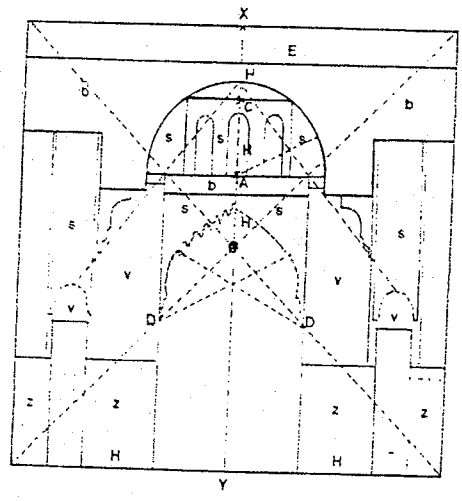

L.GOLVIN, عن
La madrasa,

الشكل 26. مدرسة الصهريج.
1. نظام توزيع الثقل لواجهة باب المدخل لقاعة الصلاة

أ. يحفر مكان للقطع الخشبية الحاملة للقالب قبل جفاف الطابية.

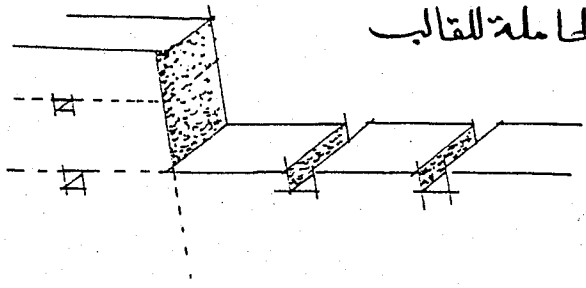

ب. ترتب القطع الخشبية على شكل قالب.

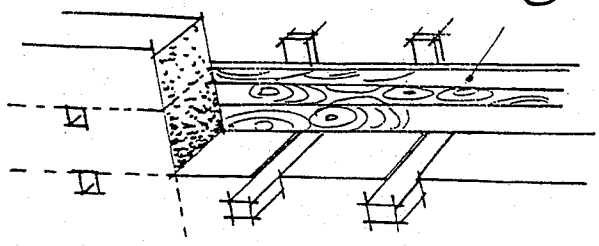

ج. تصب الطابية في القالب، وتضغط بواسطة مدكّاة.

(تربة طينية + بقايا الآجر + الجير + بقايا العظام، والصخور)

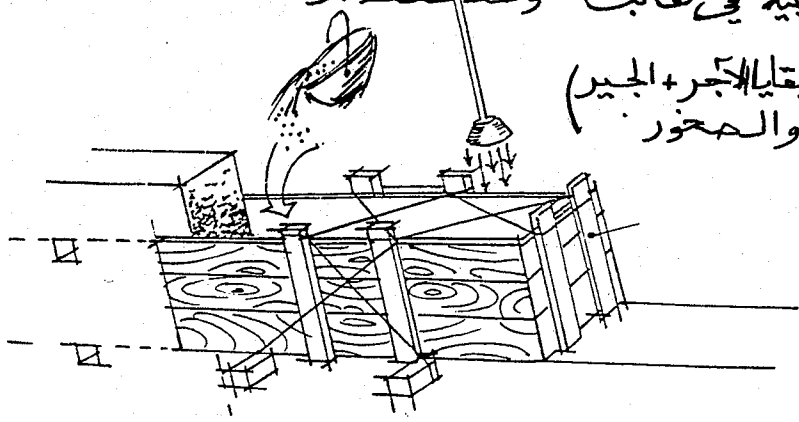

د. ينزع القالب بعد جفاف الطابية، ويحضر لقالب جديد.

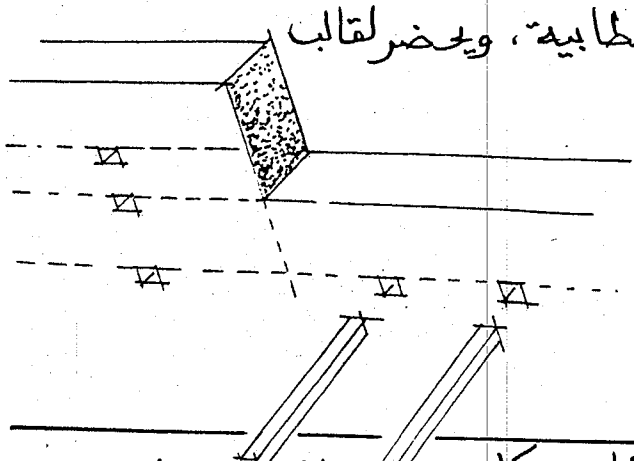

الشكل 27.

طريقة البناء بالطابية كما وصفها ابن خلدون.

عن أرشيف الدائرة الافريقية تلمسان

- د -

المخطوطات

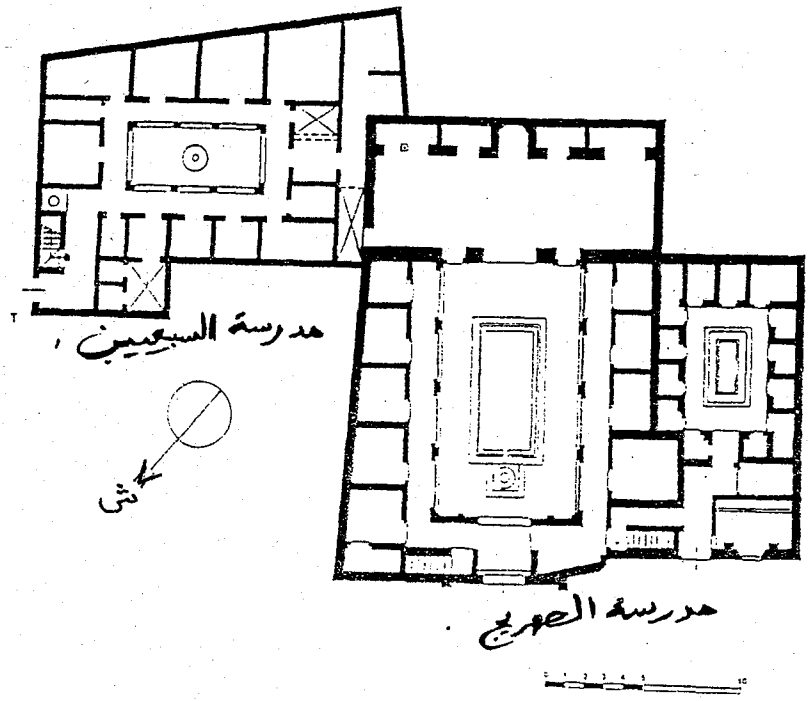

الخطط 1، مدرسة الصهريج، ومدرسة السبعيين.
عن L. GOLVIN LA Madrasa médiévale.

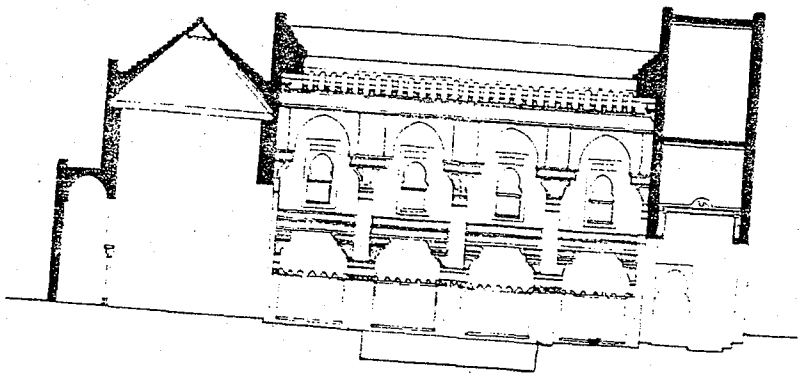

الخطط 2. مقطع عمودي لمدرسة الصهريج.

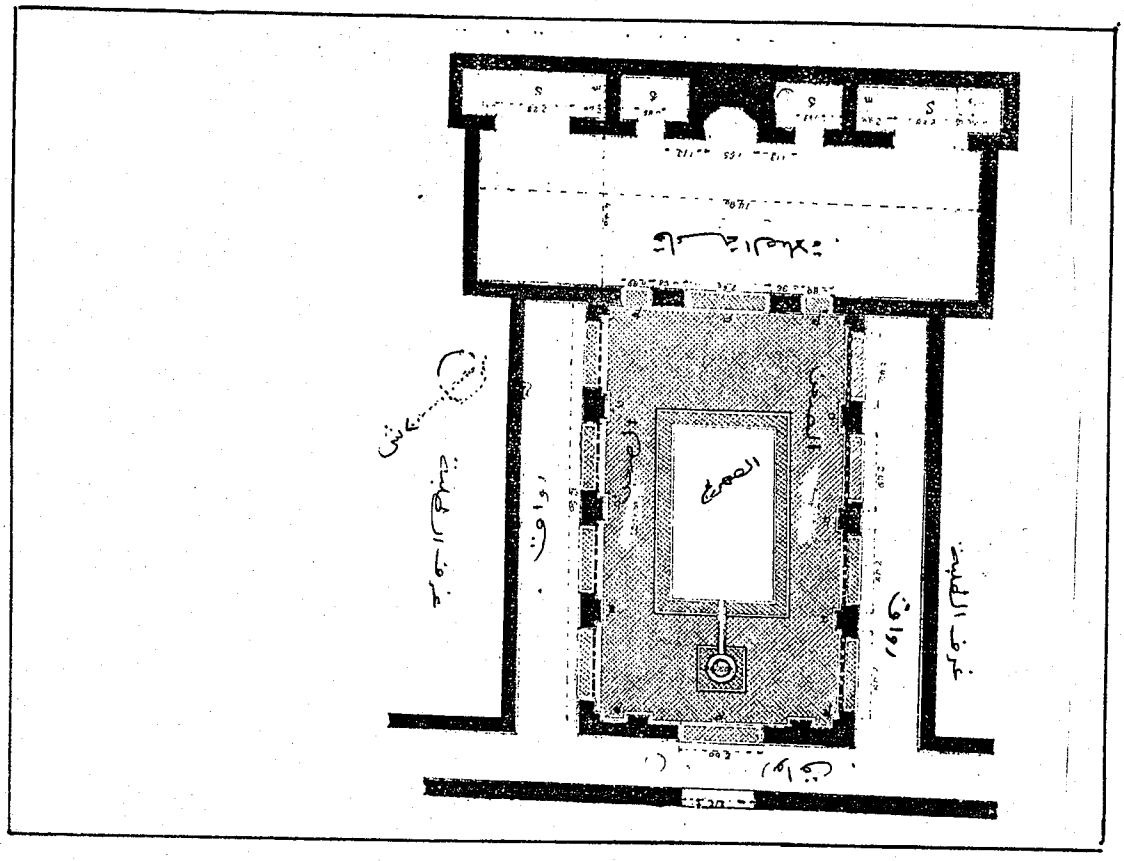

المخطط 3. مدرسة الصهريج.
مخطط الطابق الأرضي قبل عملية الترميم،
Bal Alfred, 1919.

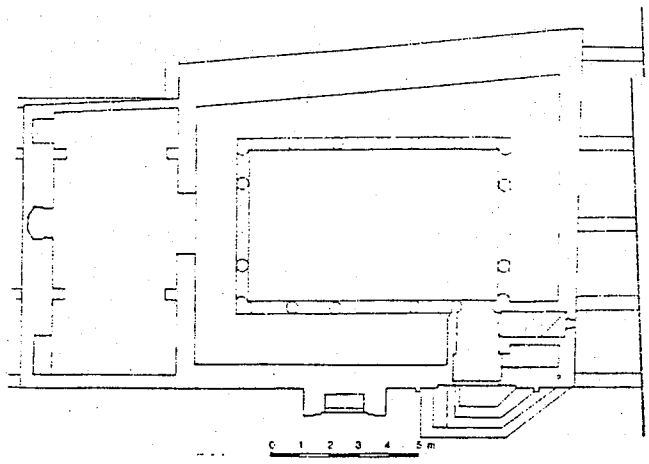

المخطط 4. مدرسة أبو الحسن بسلا.

مخطط الطابق الأرضي. عن L. GOLVIN,

La medersa médiévale.

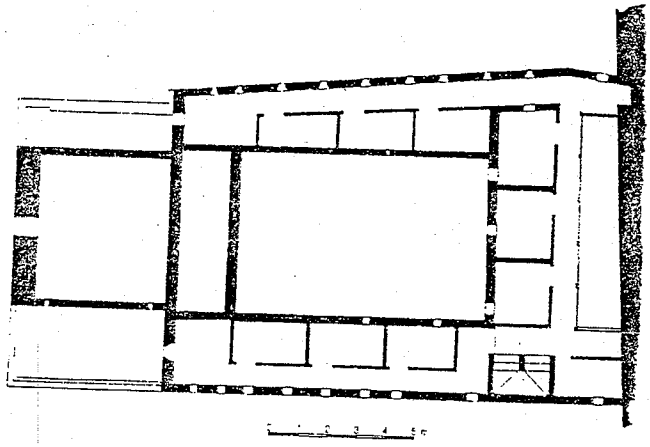

المخطط 5. مدرسة أبو الحسن بسلا.

الطابق الثاني.

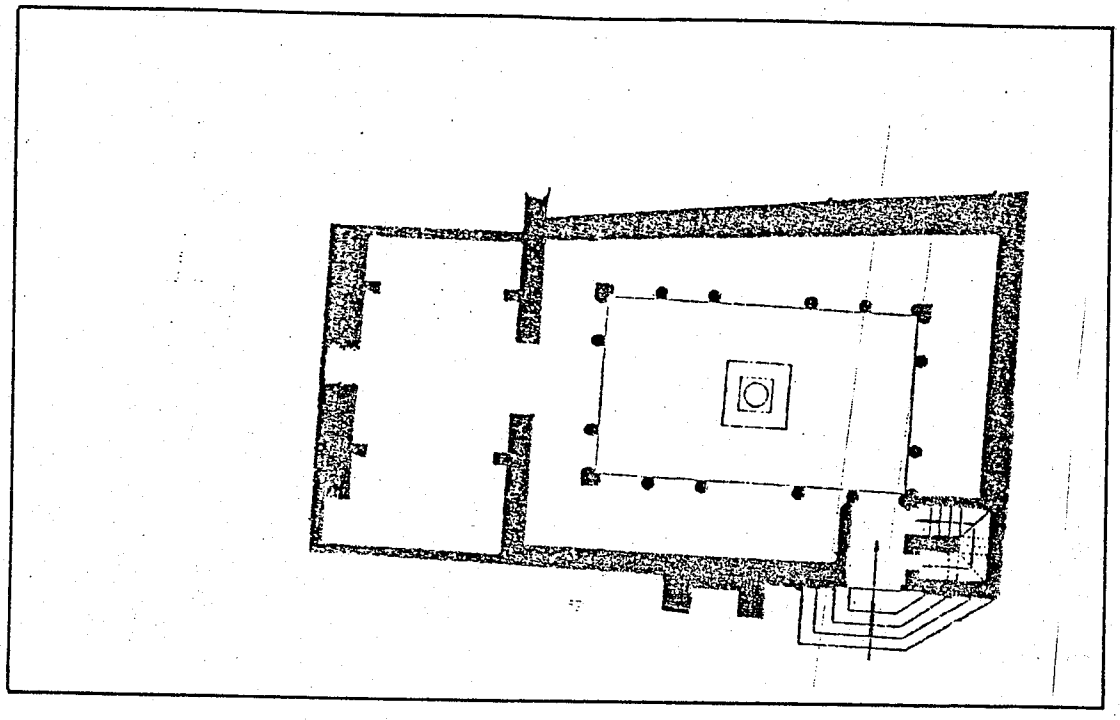

المخطط ٥٠. مدرسة أبو الحسن بسلا

مخطط الطابق الأرضي. عن

Terrasse. op.cit. p.15.

المخطط 7. المدرسة الصباحية

مخطط الطابق الأرضي.

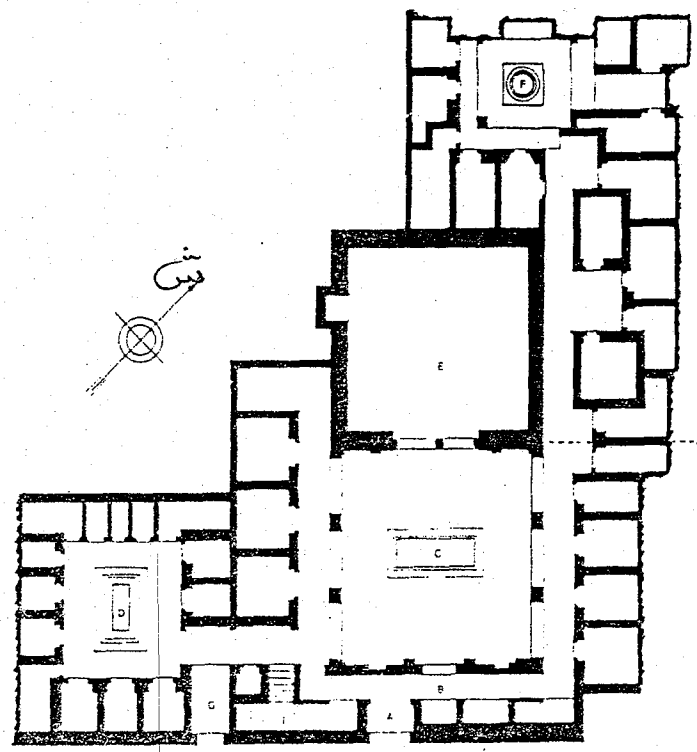

L. GOLVIN, La Madrasa, عن

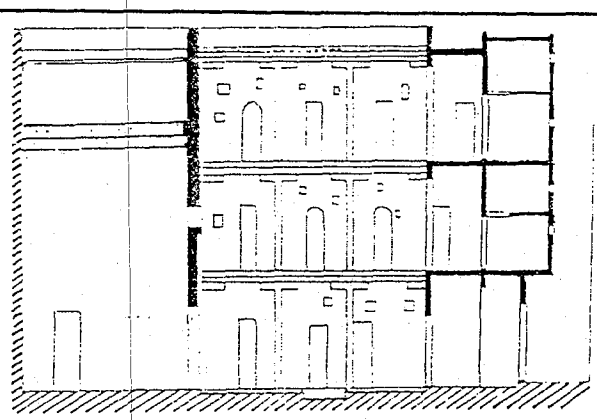

المخطط 8. المدرسة الصباحية.

مقطع لقاعة الصلاة، وغرف الطلبة.

L. GOLVIN, La madrasa, عن

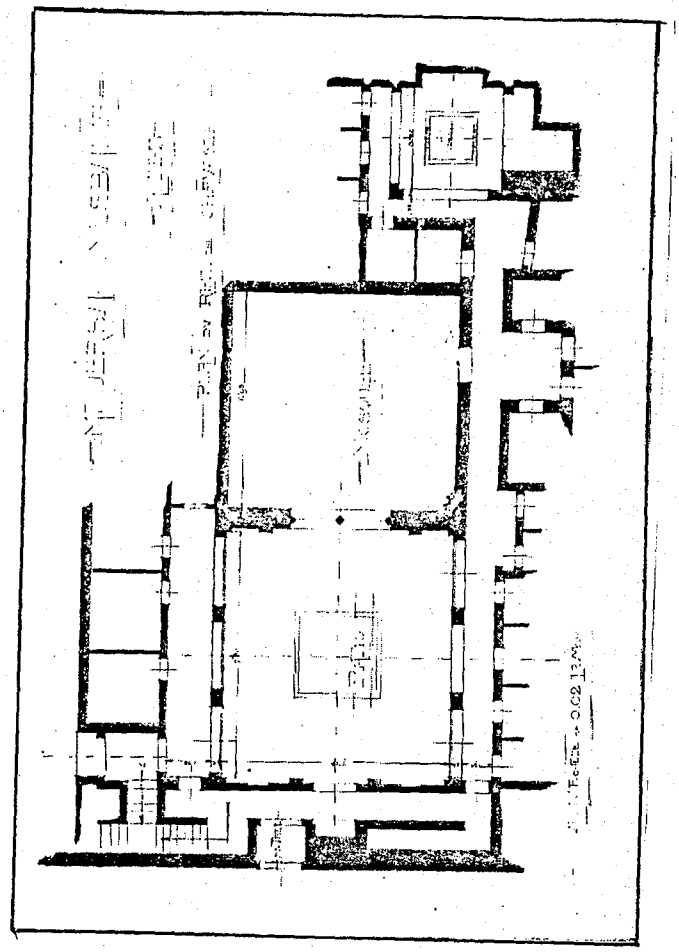

المخطط . 9. مخطط المدرسة المصباحية بفاس قبل الترميم
عن BEL ALFRED قبل سنة 1919 .

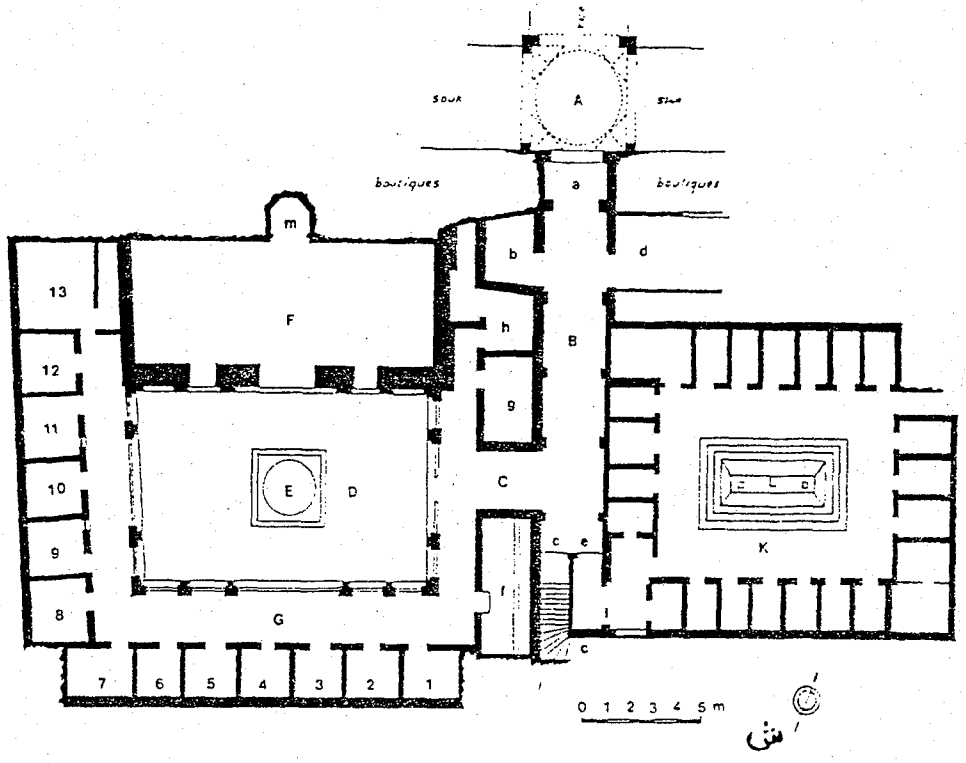

المخطط .10 . المدرسة البوعنانية بمكناس .

مخطط الطابق الأرضي .

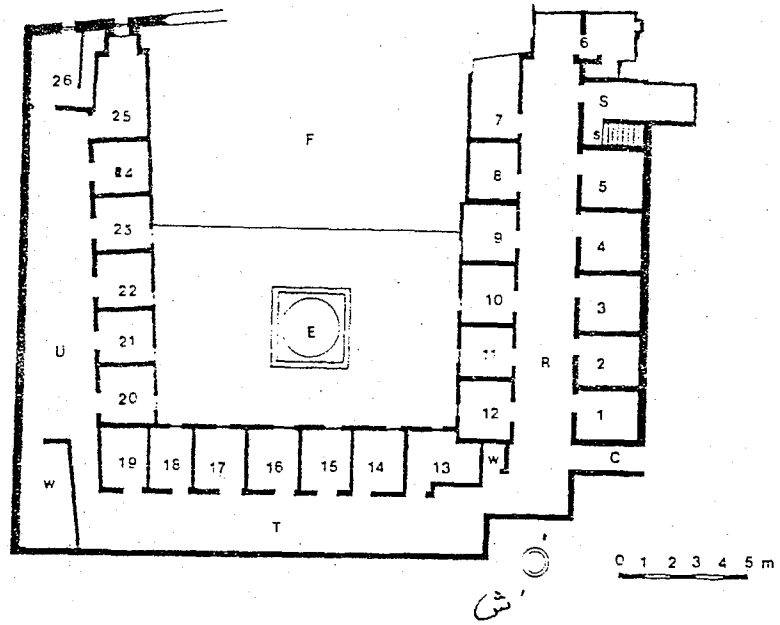

المخطط .11 . المدرسة البوعنانية بمكناس .

مخطط الطابق الثاني . عن

ل . GOLVIN, La Madrasa ، عن

X

المخطط العام للمركب المعماري العباد - تلمسان وموقع المدرسة فيه

المخطط .12.

السلم 1 / 400

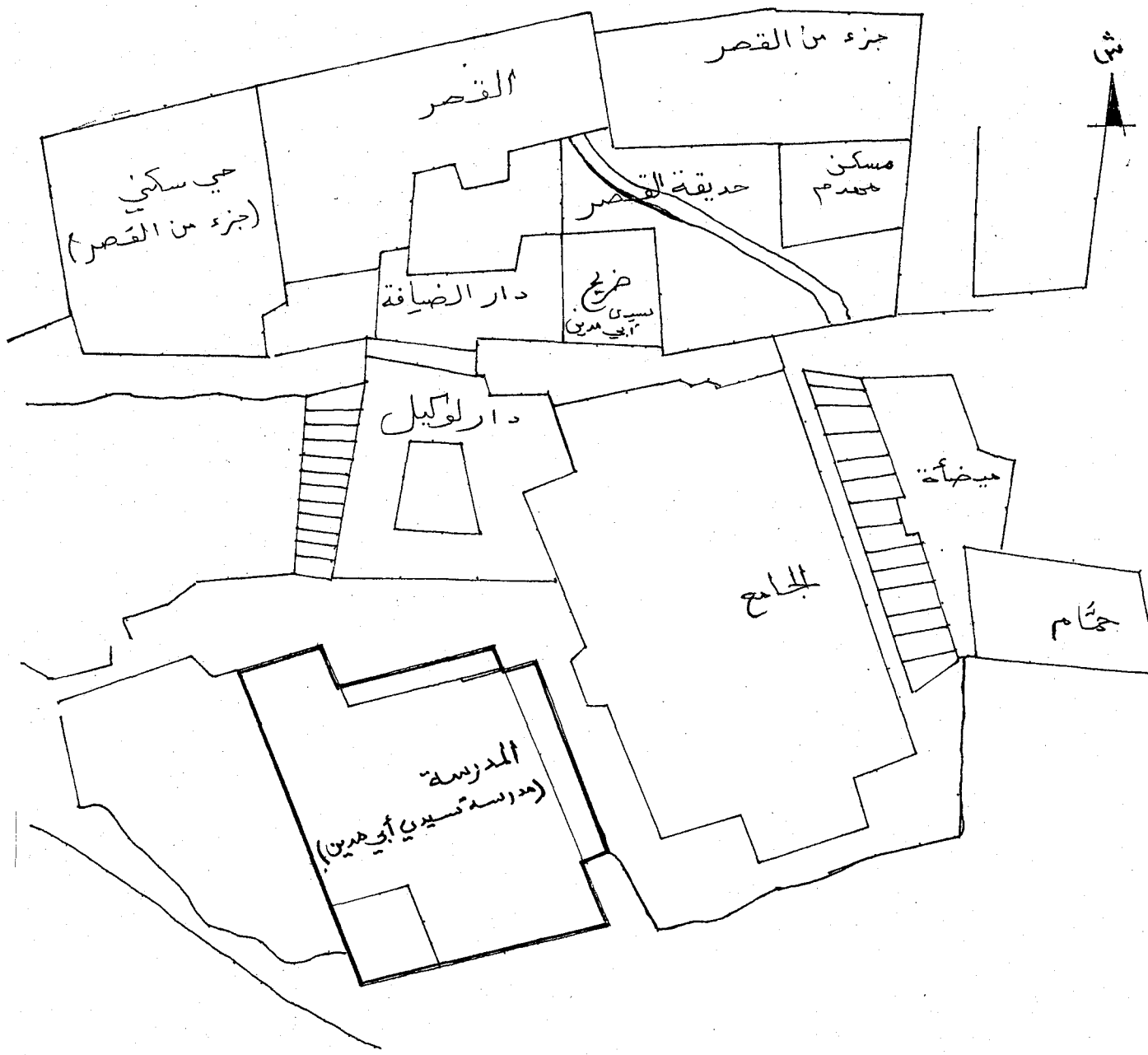

عن ارشيف الدائرة الأثرية لولاية تلمسان ، تقرير رقم 19 .

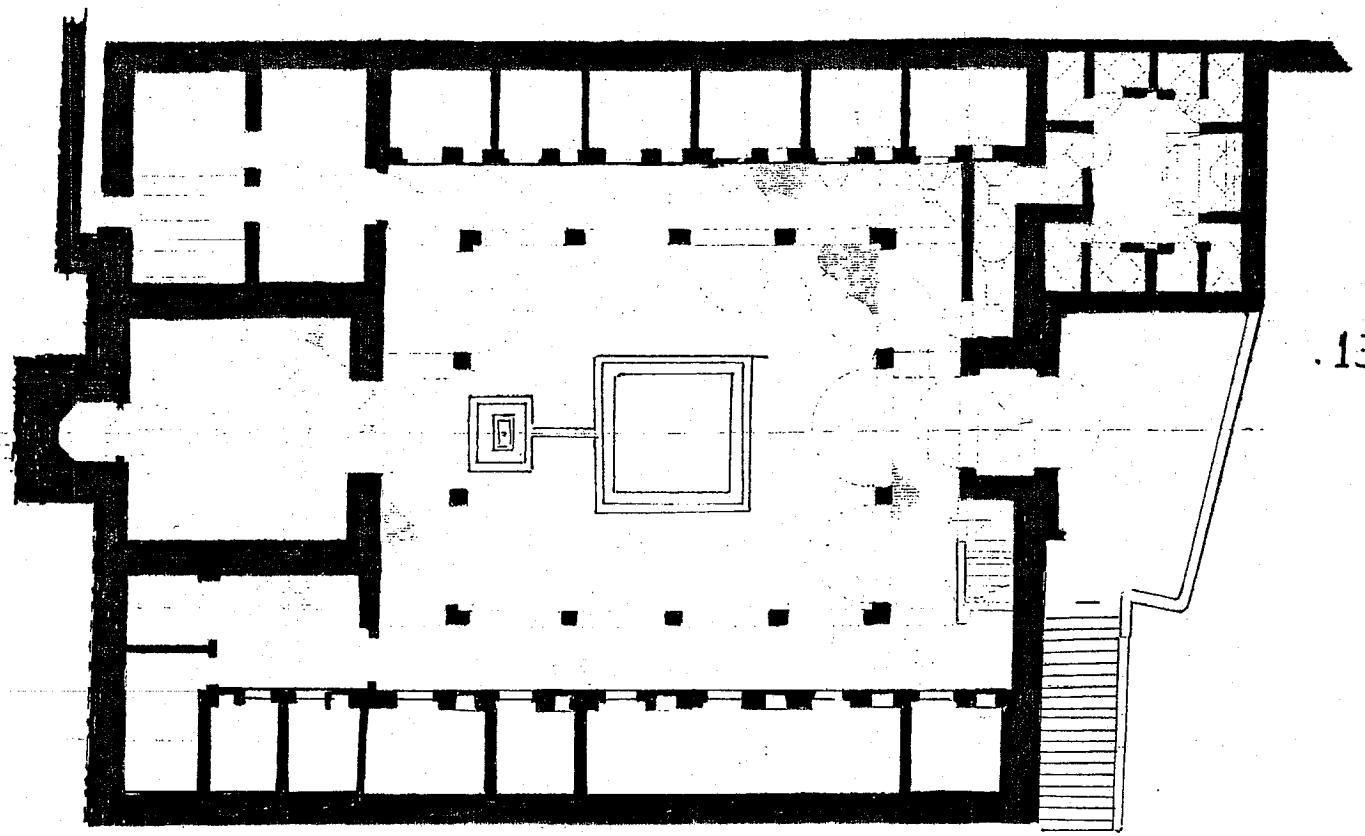

ش

سلم 5 4 3 2 1 0

المخطط الأرضي.

مدرسة "سيدي أبي مدين" العباد".

المخطط 13.

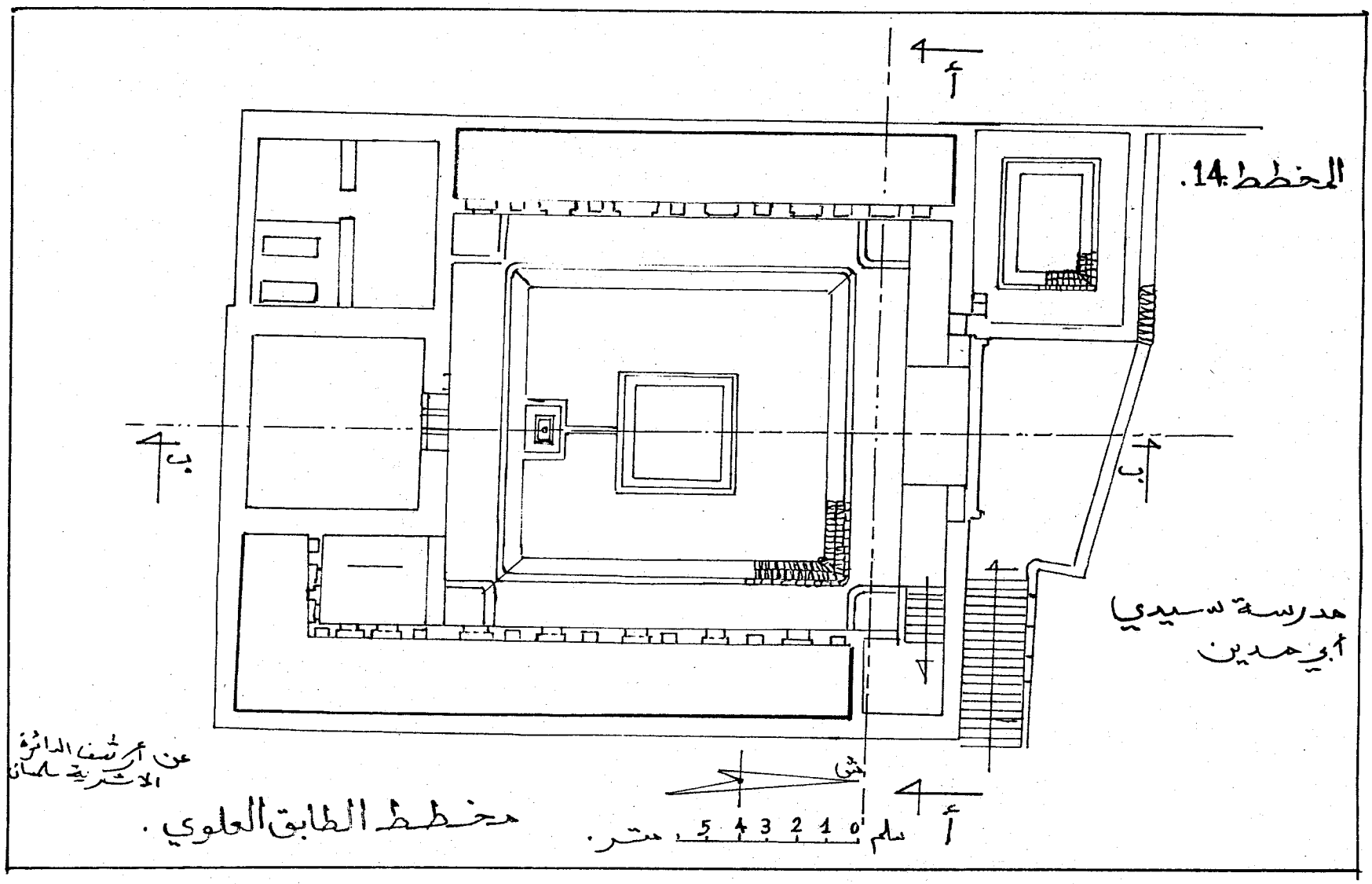

المخطط 14.

عن أرشيف الدائرة
الاشتراكية لسلمان

مخطط الطابق العلوي.

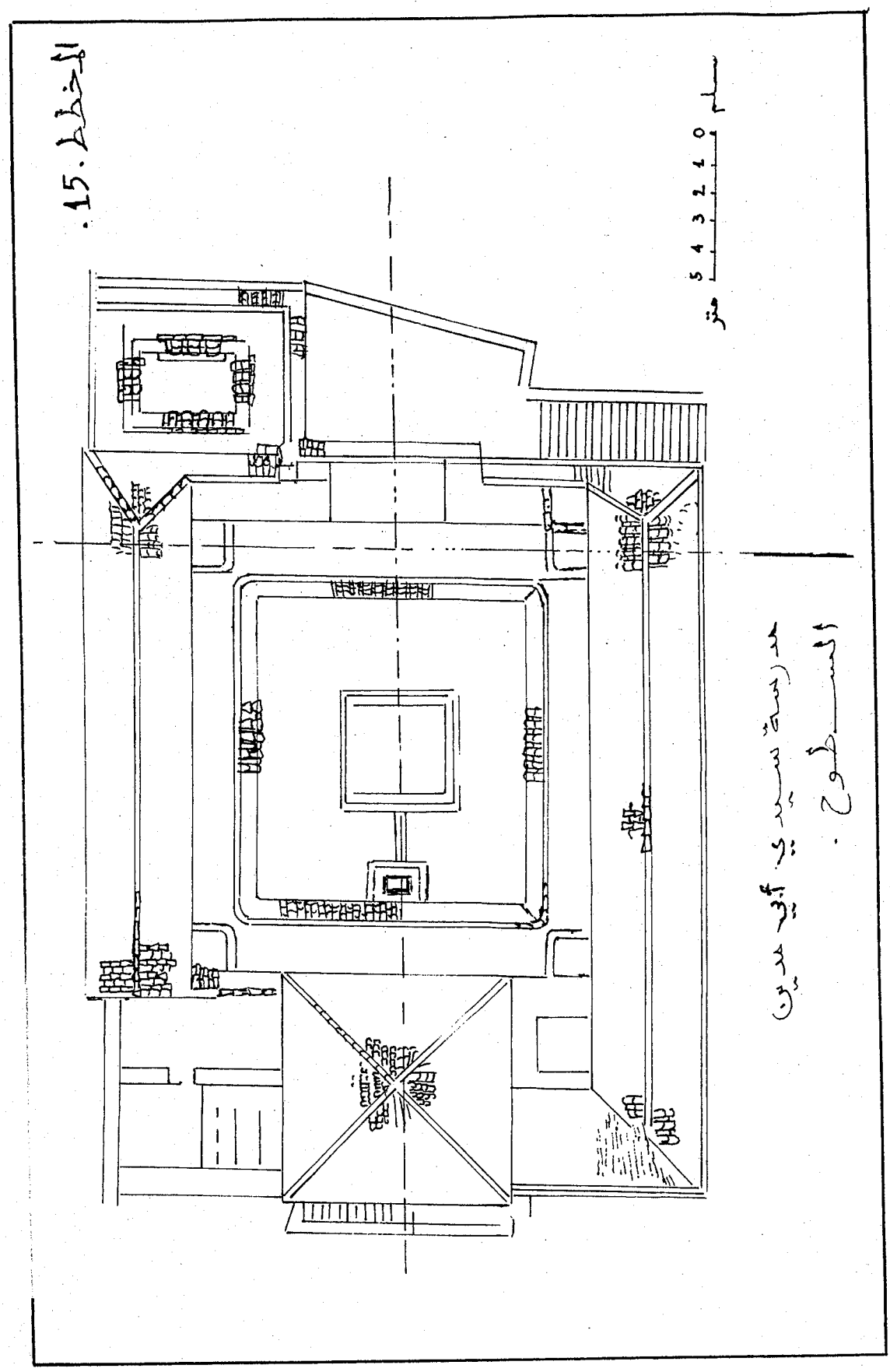
الخط. 15
سلم
0 2 4 6 3 5
متر
مدرسة سيدي أبو مدين
المسطوح

المخطط 16.

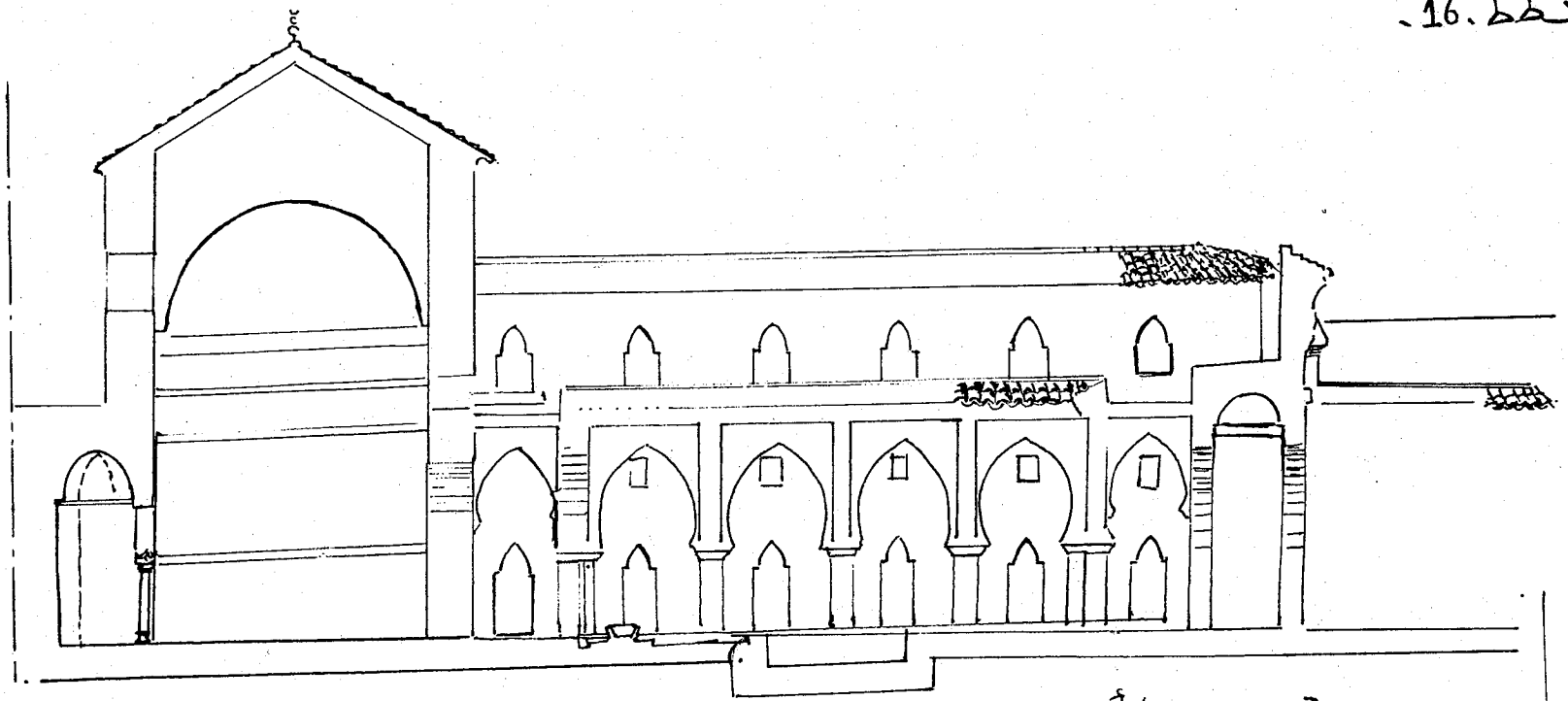

مدرسة سيدي أبي مدين.

السلم 0 1 2 3 4 5 متر مقطع ب - ب

عن أرشيف الدائرة الأثرية تلمسان

المخطط. 17.

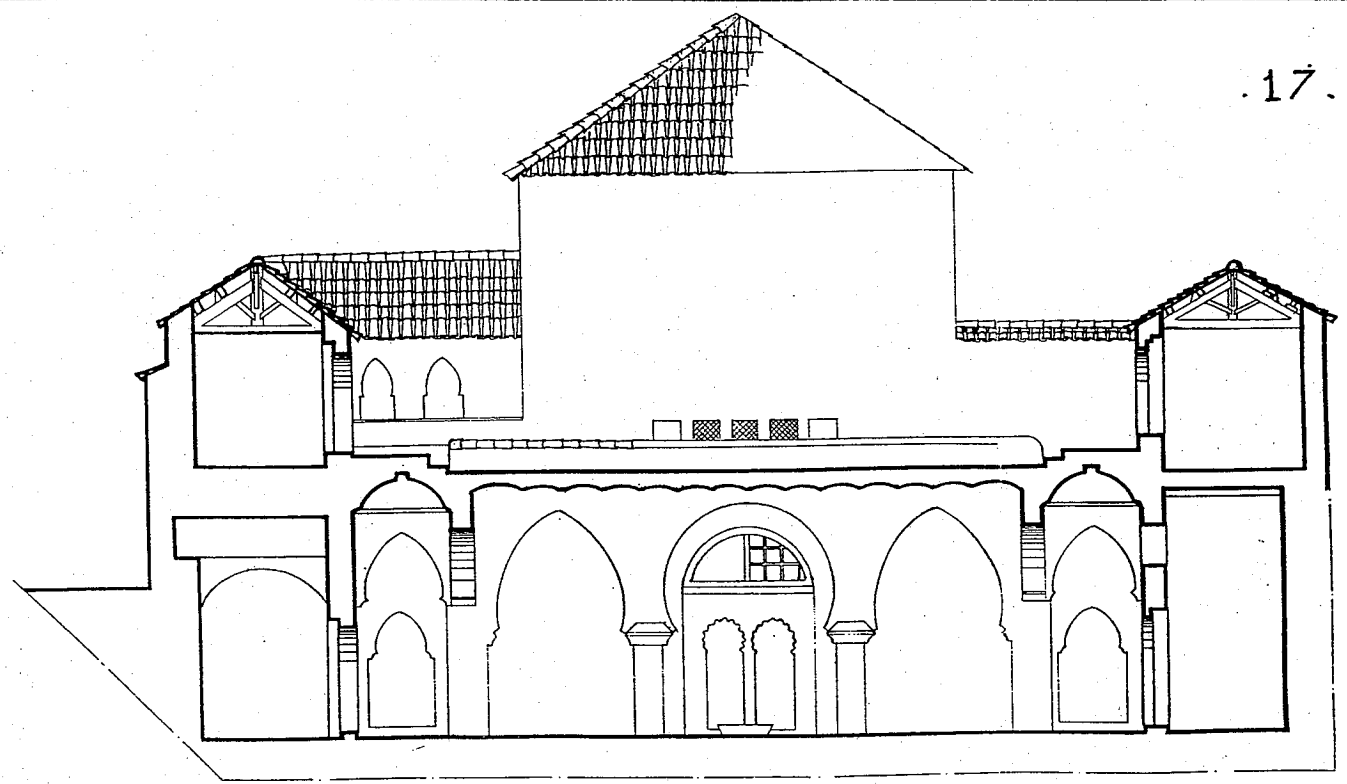

مدرسة "سيدي أبي مدين" (مخطط، 16).

السلم 0 1 2 3 4 5 متر مقطع أ أ

عن أرشيف الدائرة الأثرية تلمسان.

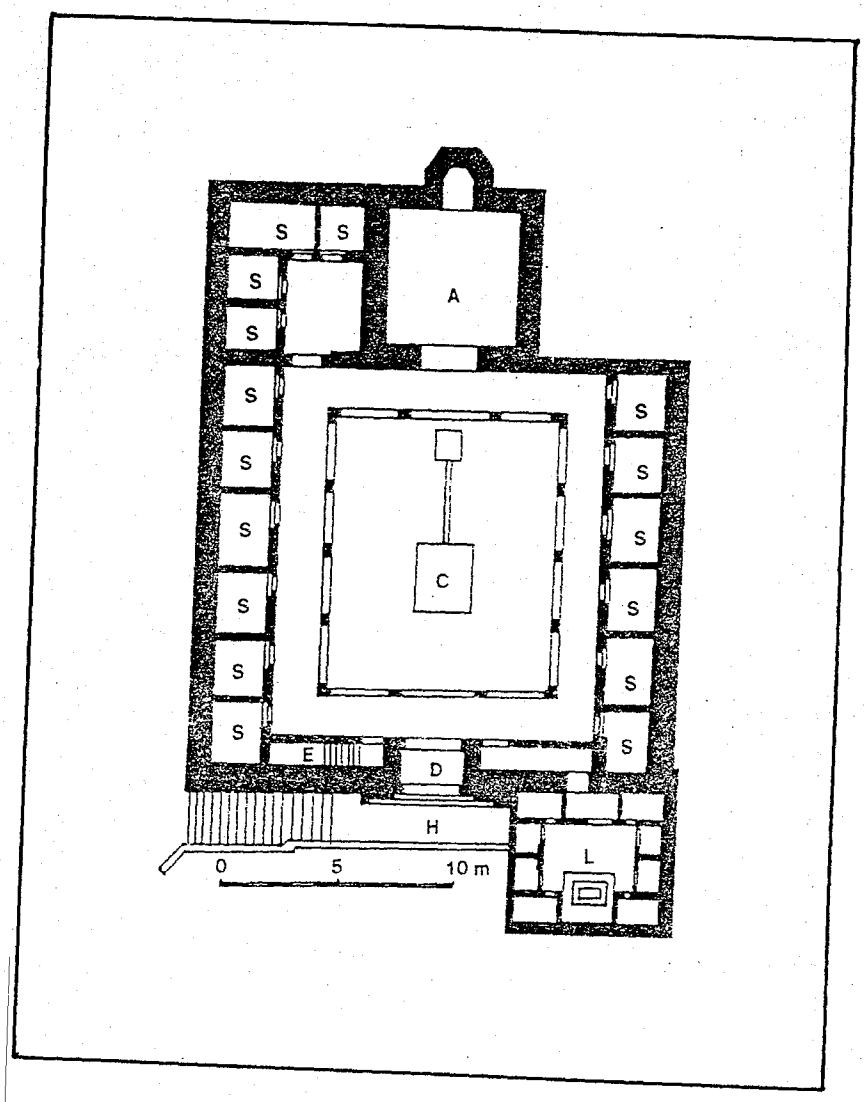

المخطط 18. مدرسة سيدي أبي مدين "العباد".

مخطط الطابق الأرضي الذي أنجزه مارسي.

MARÇAIS. G. A.M.O.

- هـ -

اللـــوحـــــات

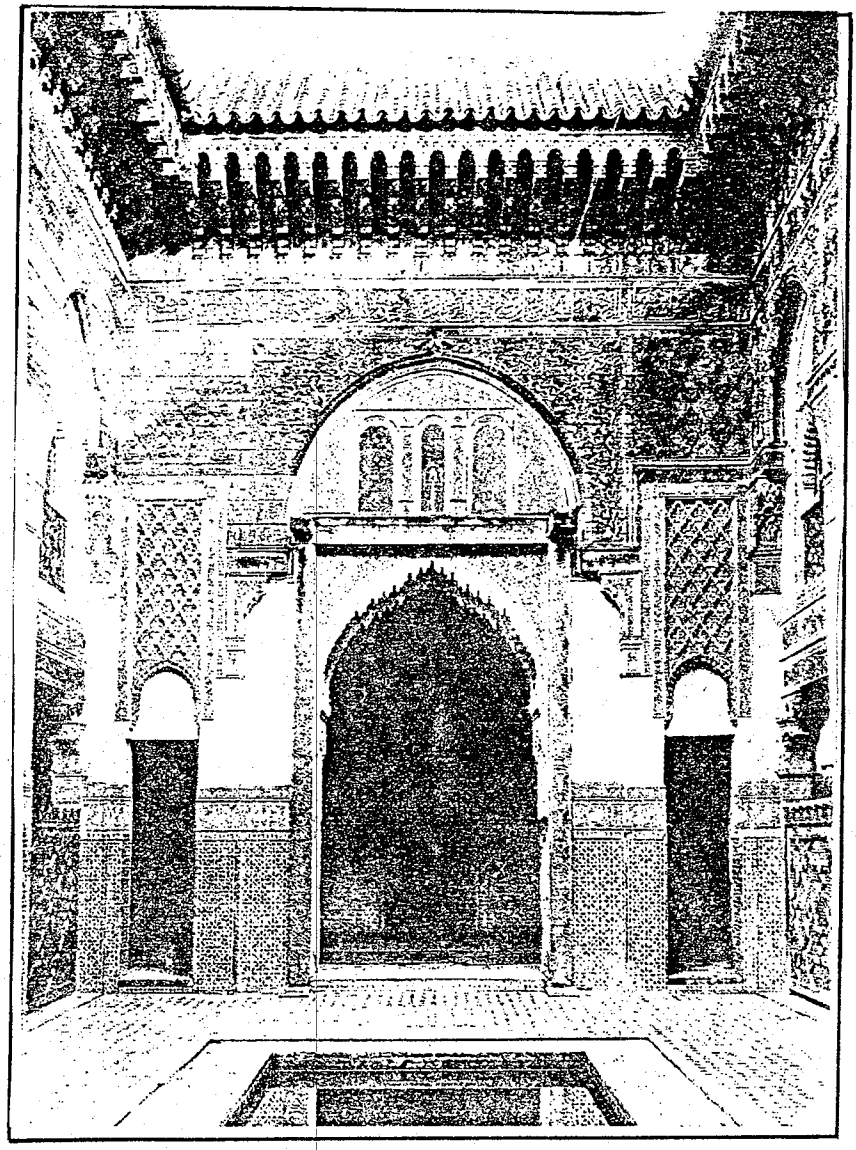

اللوحة رقم 1. مدرسة الصهريج بفاس.
الصحن ومدخل قاعة الصلاة بعد الترميم.

L. GOLVIN. La madrasa médievale. عن

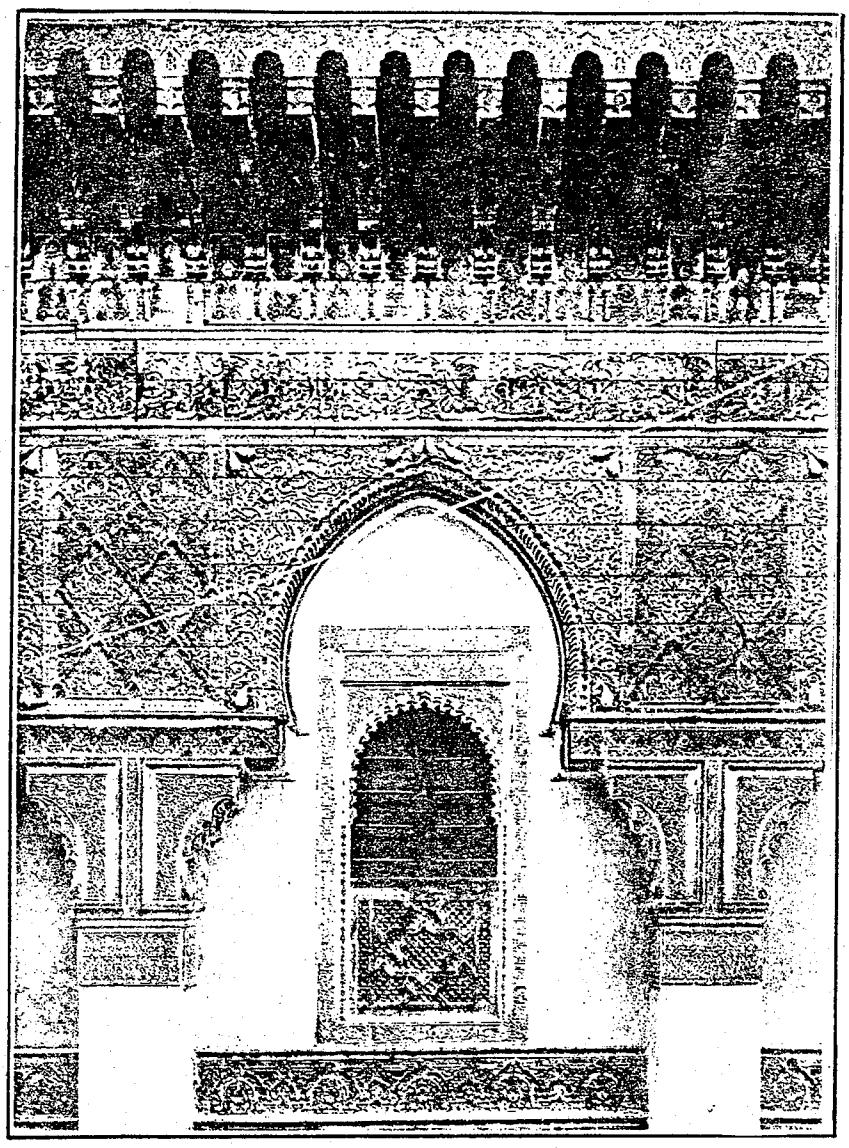

اللوحة رقم 20 . مدرسة الصهريج بفاس .
الجزء العلوي لأحد جدران الصحن .

عن L. GOLVIN, La madrasa,

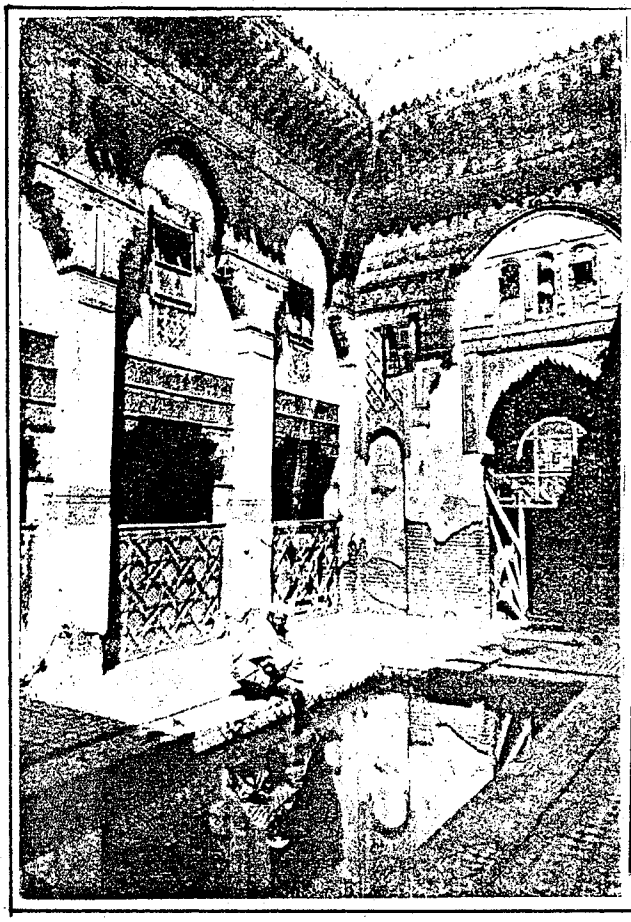

اللوحة رقم 3 .
مدرسة الصهريج قبل الترميم
صور للزاوية الشمالية
الغربية من الصحن

صورة لألفرد بال 1919.

عن Bel. Alfred.

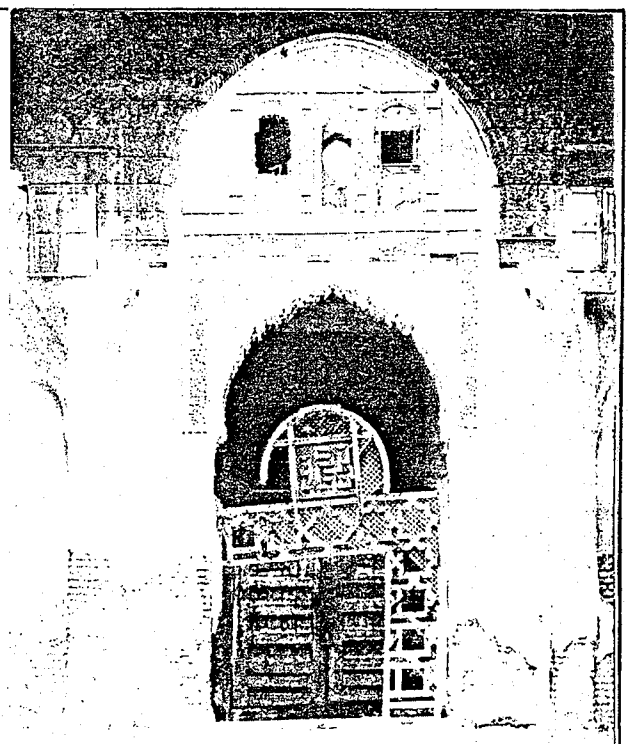

اللوحة رقم 4 .
مدرسة الصهريج قبل الترميم
واجهة مدخل قاعة الصلاة .

عن Bel. Alfred.

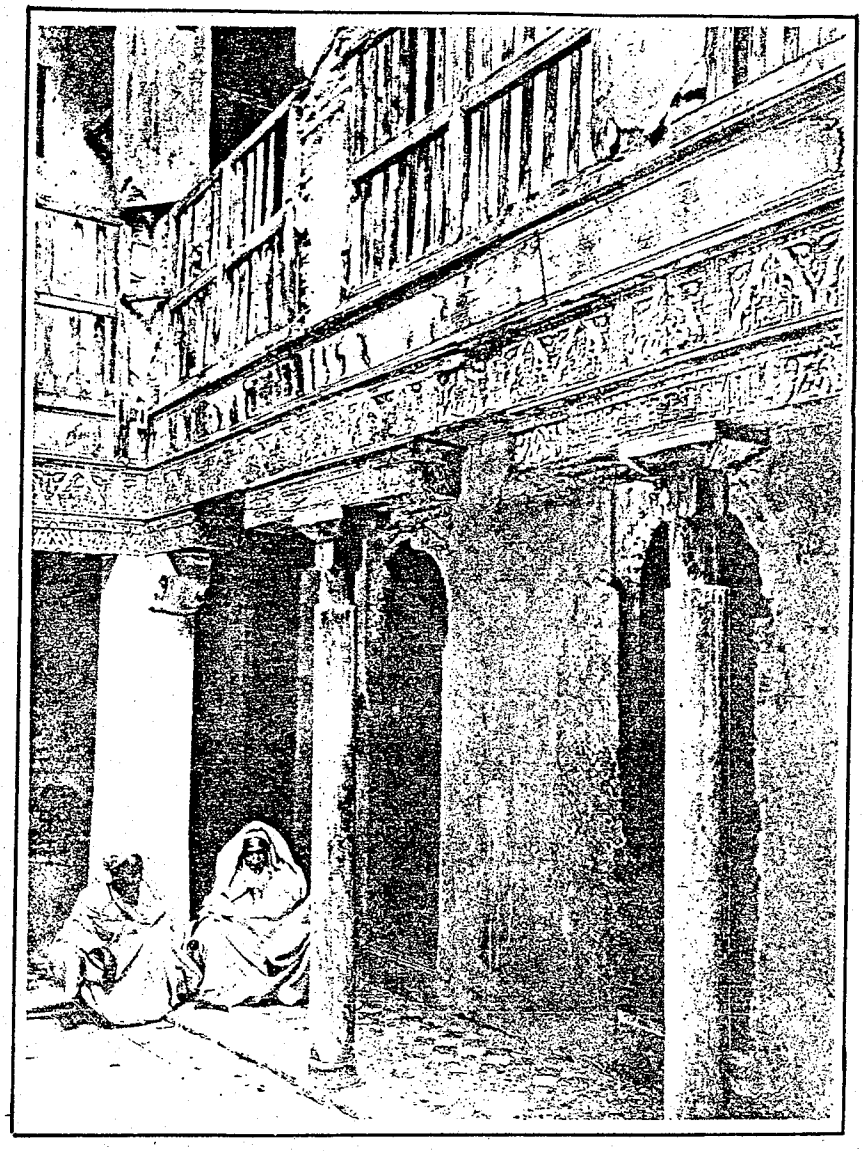

اللوحة رقم 5. مدرسة السبعيين بفاس.

حالة الصحن قبل الترميم.

عن

Bel. ALFaul,

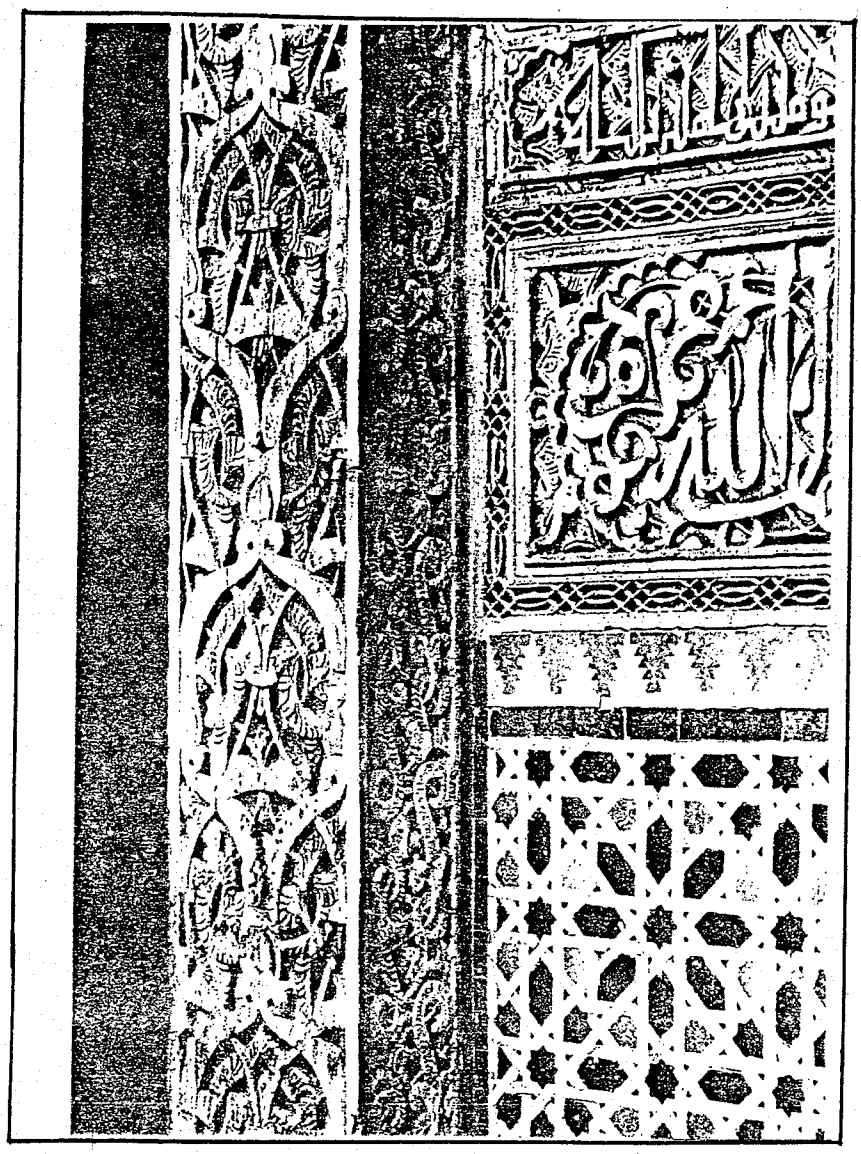

اللوحة رقم ٦٠ . مدرسة الصهريج بفاس .
زخارف على الزليج و الجص ، و الخشب .

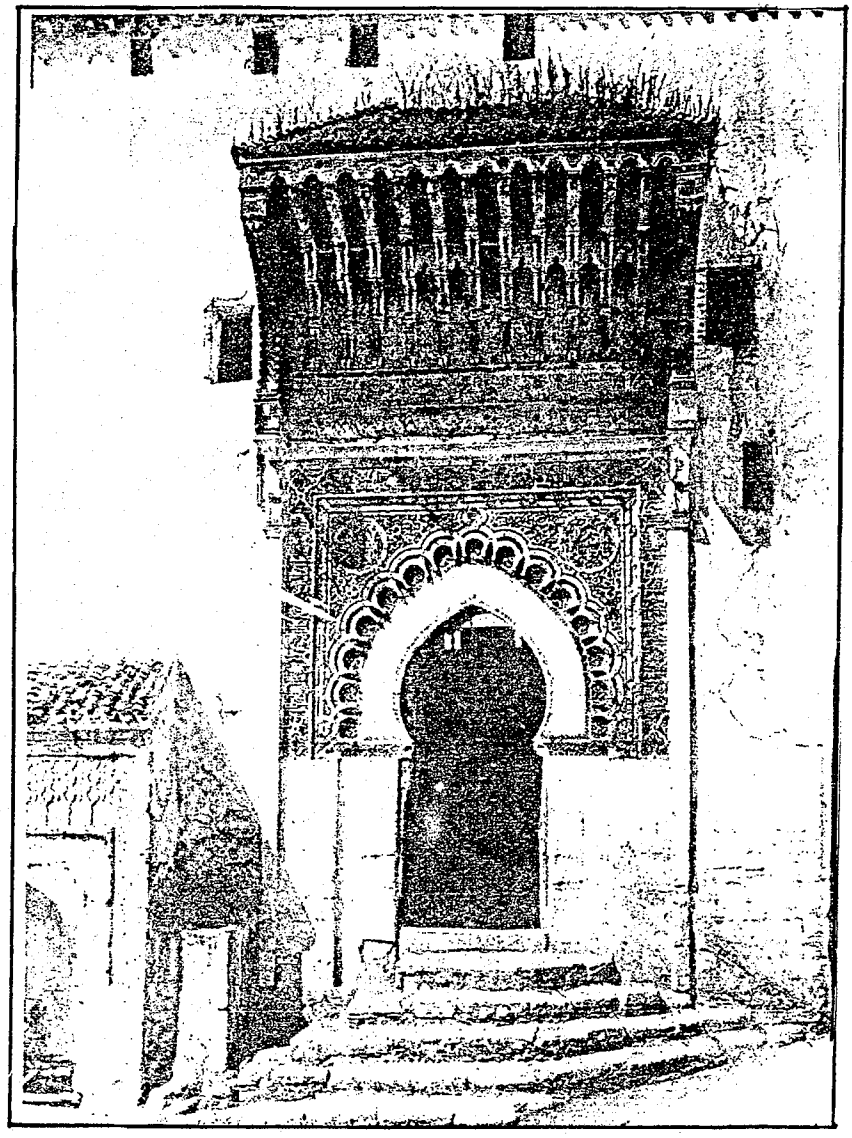

اللوحة رقم 7. مدرسة أبو الحسن بسلا - المغرب الأقصى.
المبوابة التذكارية.

L. GOLVIN. La Madrasa. عن

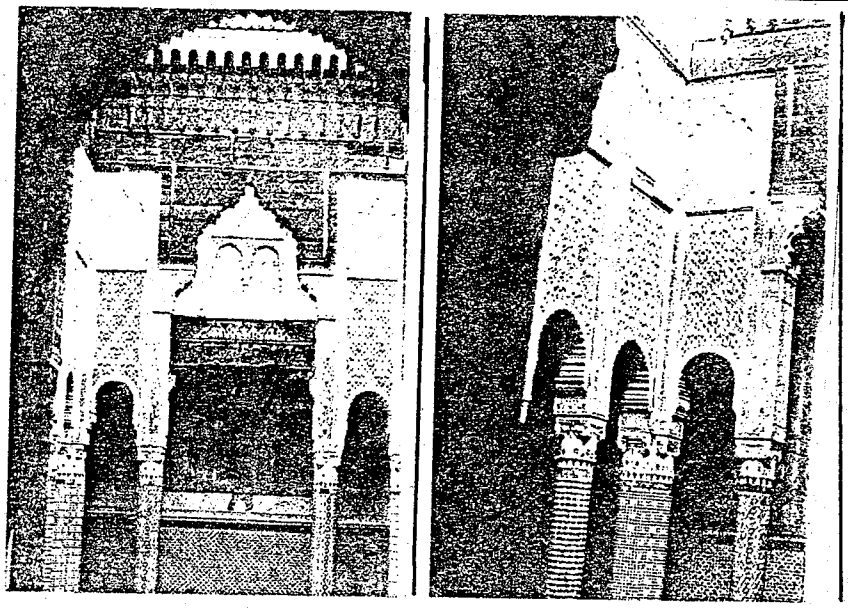

اللوحة رقم (8) مدرسة أبو الحسن بسلا .
من اليمين إلى اليسار ، الزاوية الشمالية الغربية للصحن .
الجدار الشمالي للصحن .

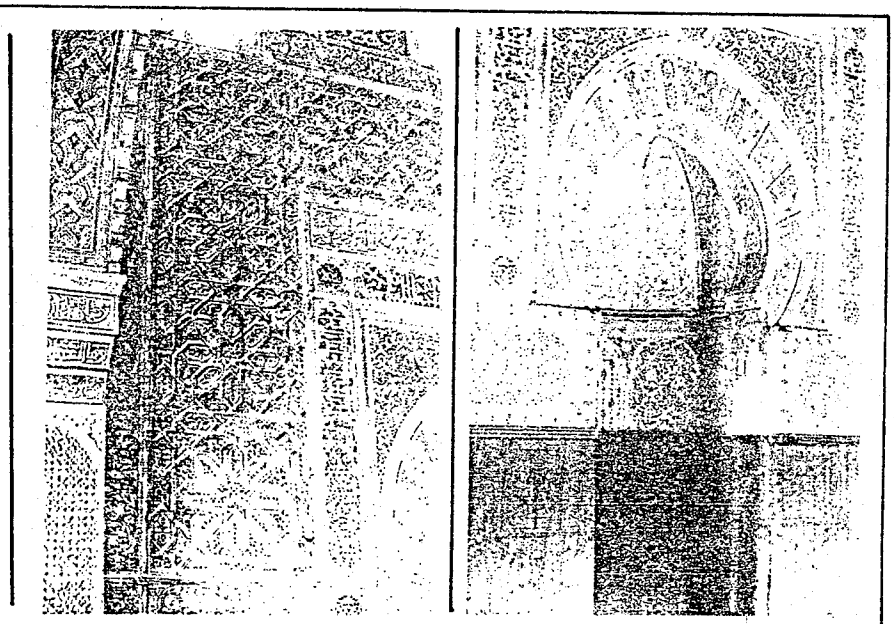

اللوحة رقم (9, 10) مدرسة أبو الحسن بسلا . من اليمين إلى اليسار ،
محراب قاعة الصلاة ، زخارف المحراب .

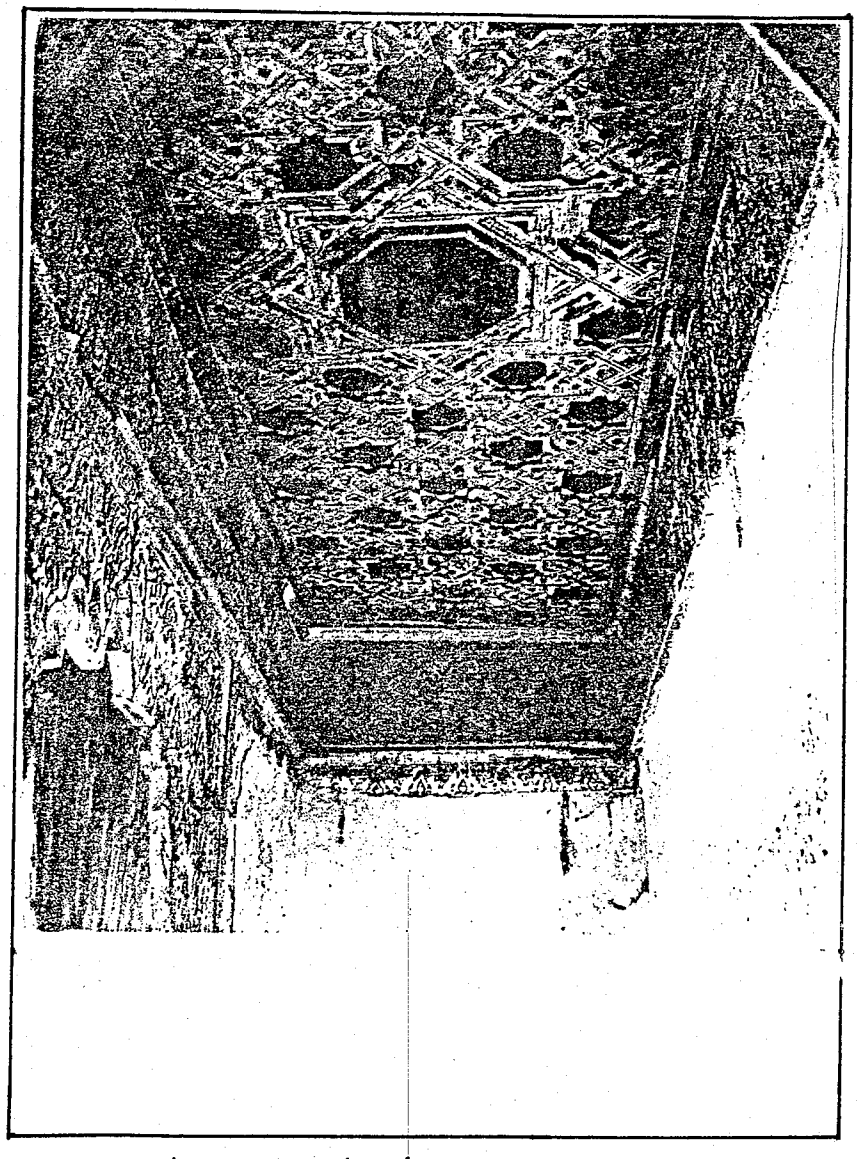

اللوحة رقم 11. مدرسة أبو الحسن بسلا .
الزخارف الخشبية لسقف الرواق المحيط بالصحن .

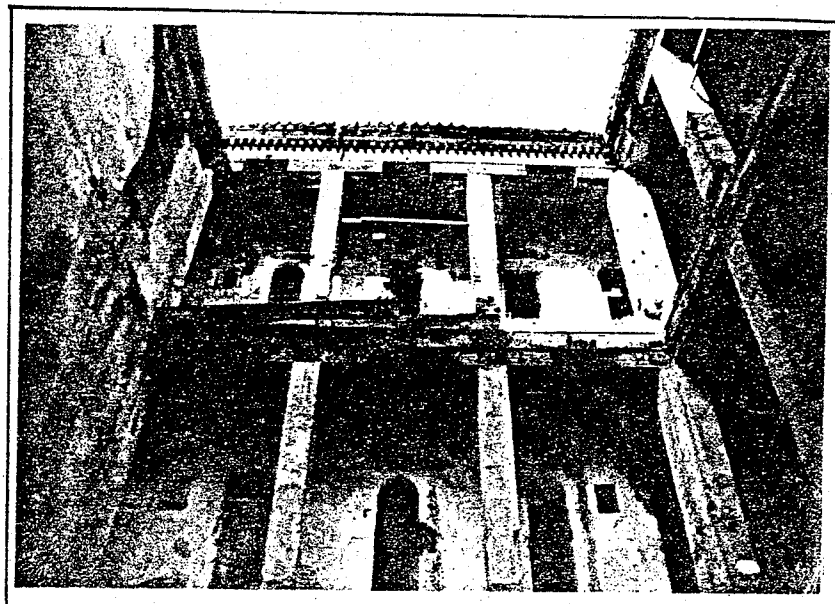

اللوحة رقم 12. المدرسة المصباحية بفاس.
صورة الصحن، وغرف الطلبة.
عن L.GOLVIN, Lamadrasa.

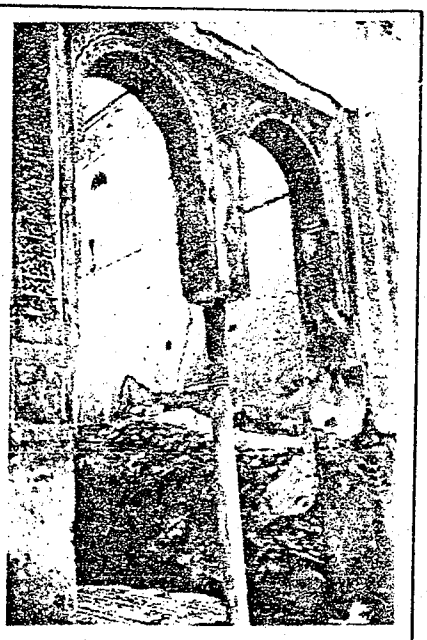

اللوحة 13. المدرسة المصباحية بفاس.
باب مدخل قاعة الصلاة
عن L. GOLVIN, La madrasa.

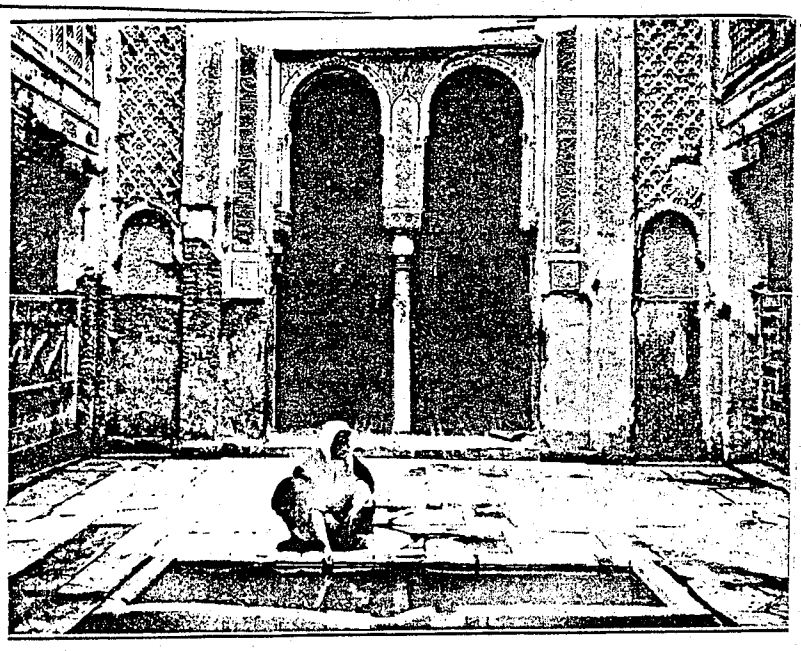

اللوحة رقم 14.

المدرسة المصباحية بفاس.
الصحن وباب قاعة الصلاة.
صورة لألفرد بال. 1919.
عن BO. Alfred.

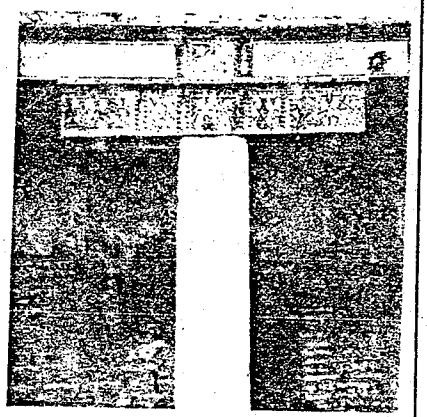

اللوحة رقم 15.

المدرسة المصباحية
المساند الخشبية عليها زخارف فنية.

عن L. GOLVIN, Lamadrasa,

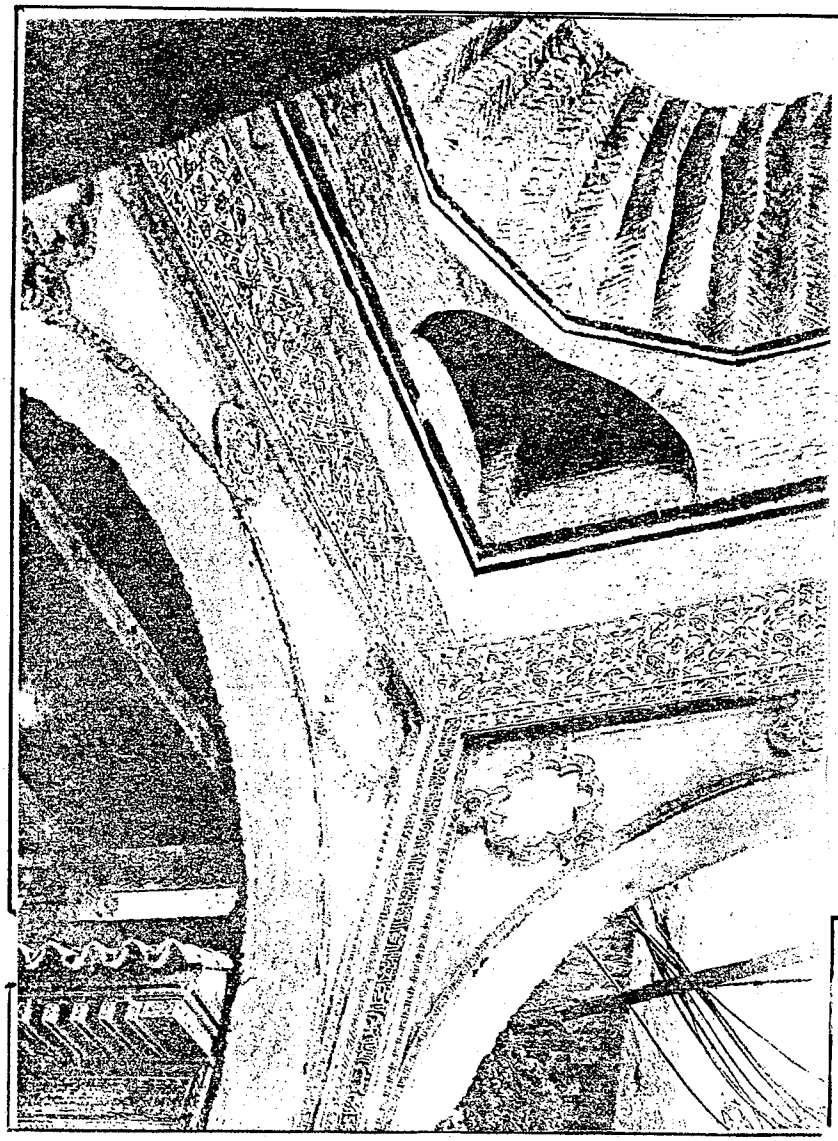

اللوحة رقم 16.
المدرسة البوعنانية بمكناس
القبة المفتوحة لمدخل المدرسة.

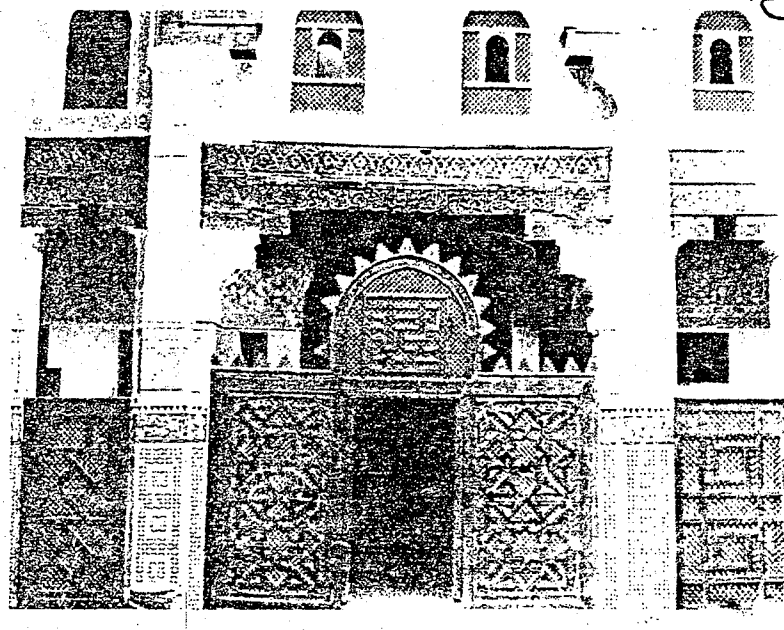

اللوحة رقم 17.
المدرسة البوعنانية بمكناس
واجهة المدخل من الصحن.

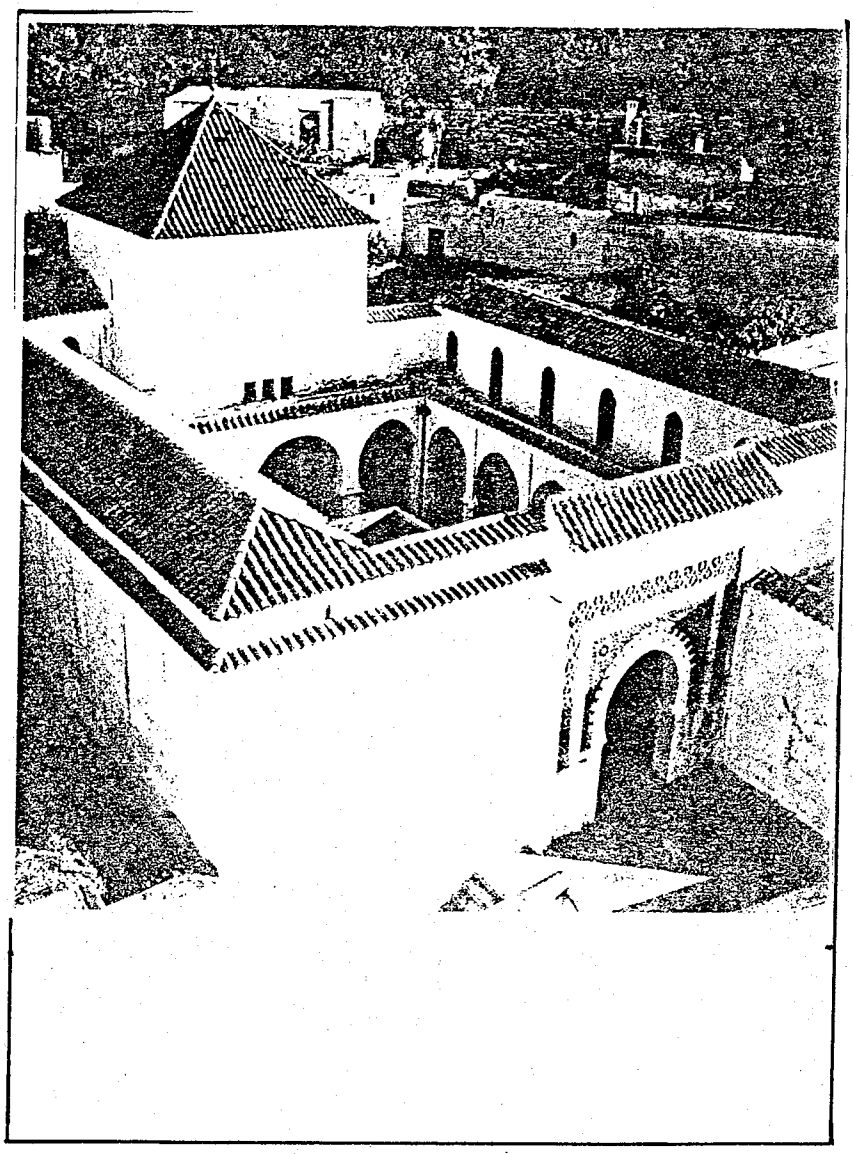

اللوحة: 18 مدرسة "سيدي أبي مدين" العباد"
منظر علوي.
عن L.GOLIN, La madrasa.

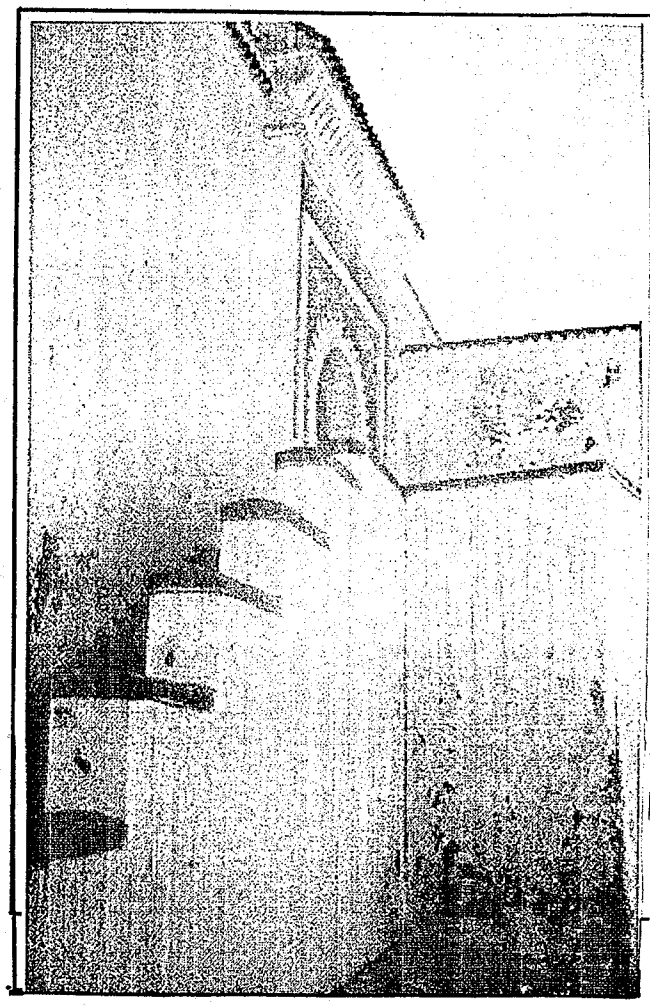

اللوحة 19 - مدرسة سيدي أبي مدين
واجهة المدخل التذكاري والسلم المؤدي إليه

اللوحة 20.
مدرسة سيدي أبي مدين
الرواق الفاصل بين المدرسة والجامع.

اللوحة 21. مدرسة سيدي أبي مدين
إتصال المدرسة بالجدار الصخري من الجهة الجنوبية.

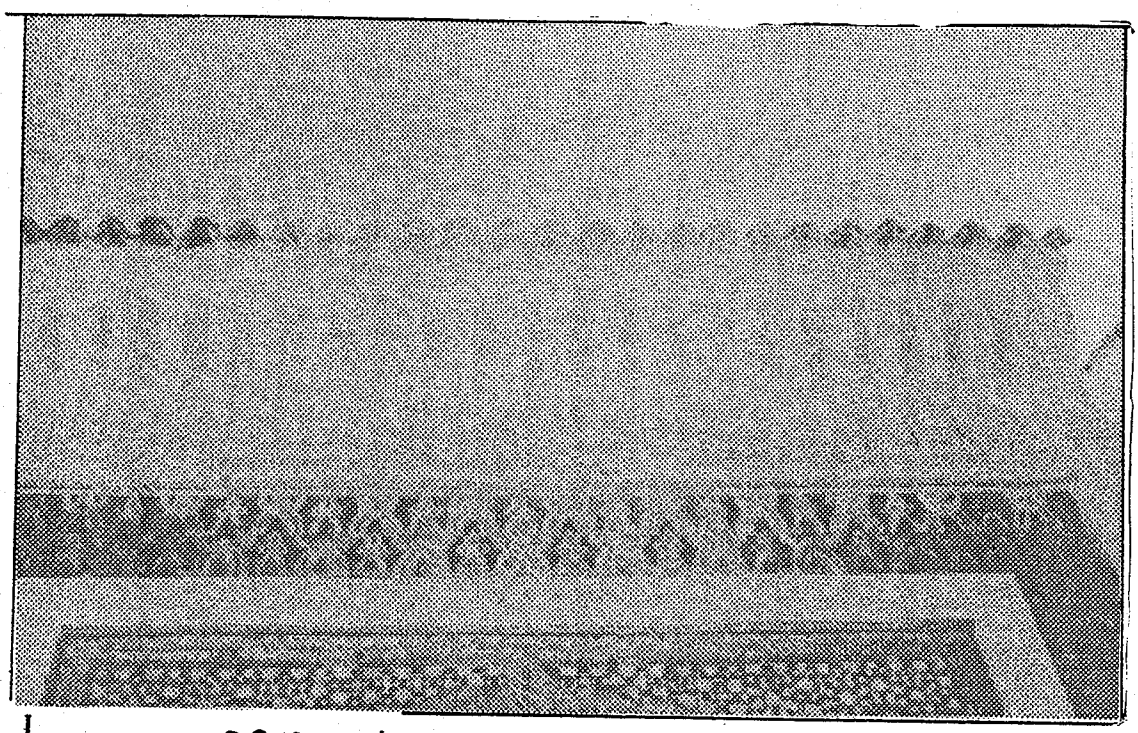

اللوحة 22.
مدرسة سيدي أبي مدين
الضلة التي تعلو الباب

اللوحة 23.
مدرسة سيدي أبي مدين
الباب الخشبية.

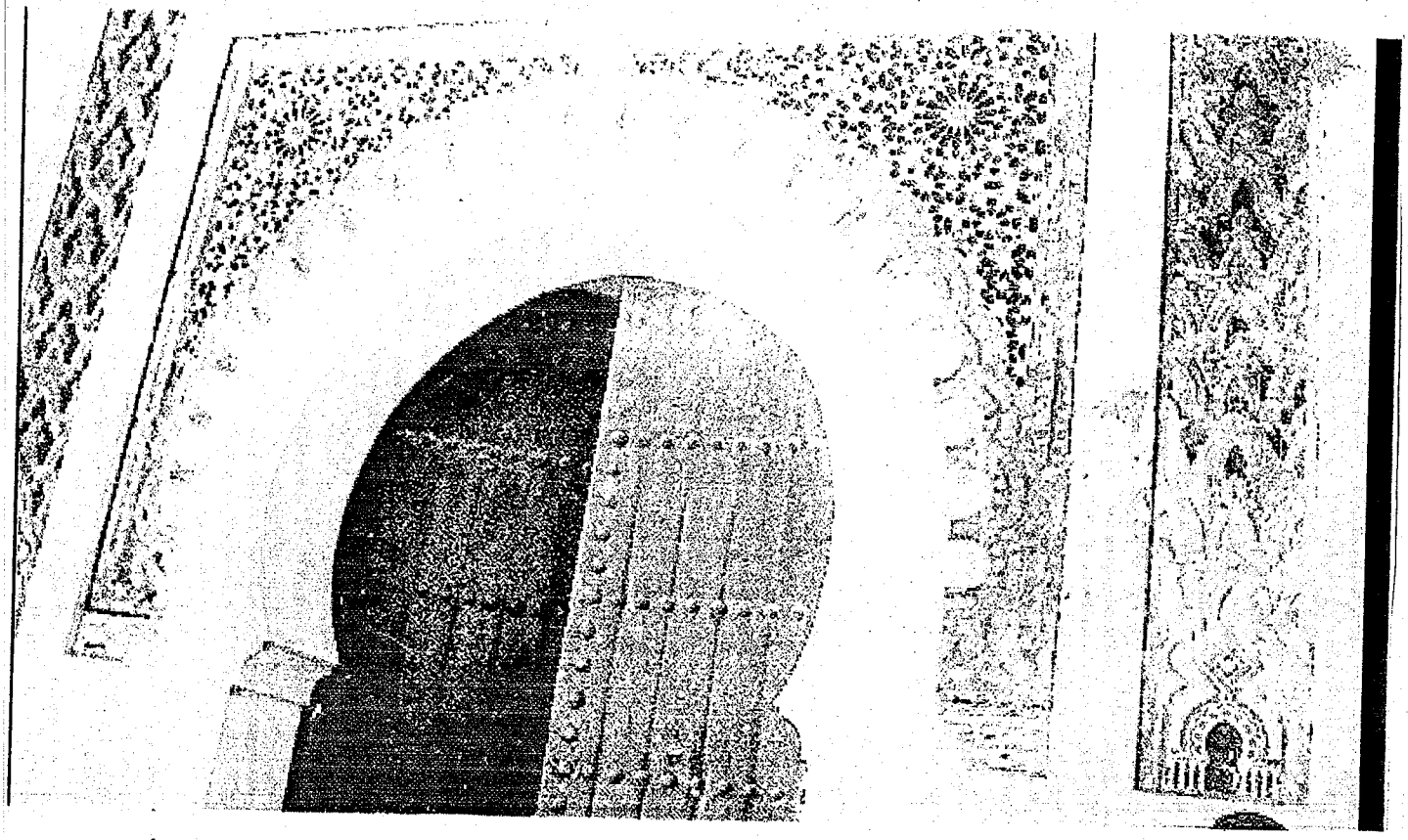

اللوحة 24. مدرسة سيدي أبي مدين. الشريط الزخرفي المحيط بإطار باب المدخل، والأطباق النحيلة

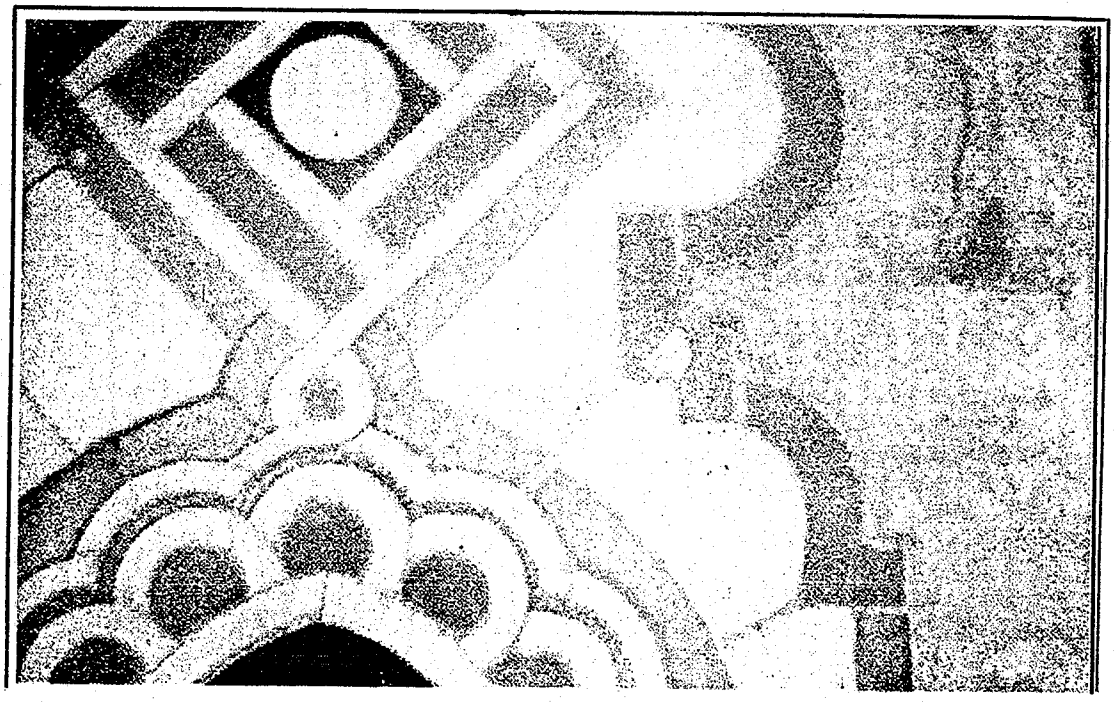

اللوحة 25: مدرسة سيدي أبي مدين.
مقطع من زخارف الزليج المكونة للشريط الزخرفي المحيط بعقد المدخل

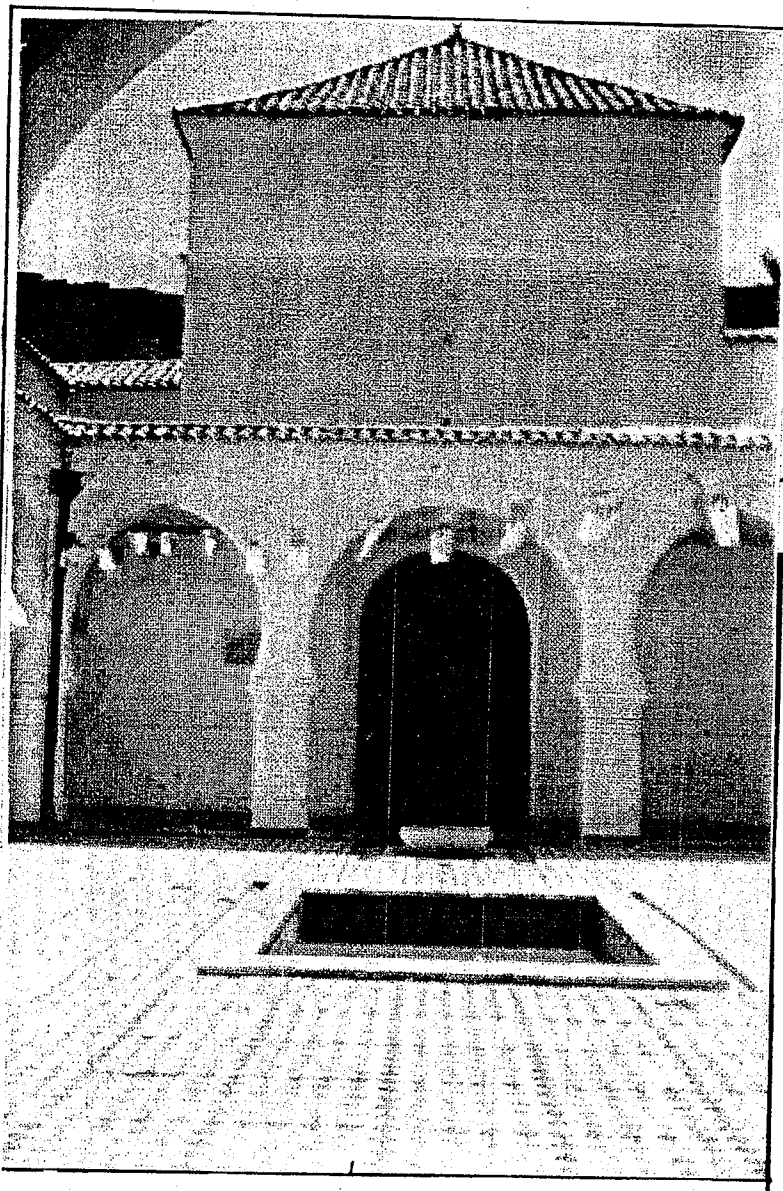

اللوحة 26.
مدرسة سيدي
أبي مدين
الجهة الجنوبية
من الصحن
وباب قاعة الصلاة.
- القبة المرصعة

اللوحة 27.
مدرسة سيدي
أبي مدين
الزاوية الجنوبية الغربية
للصحن.

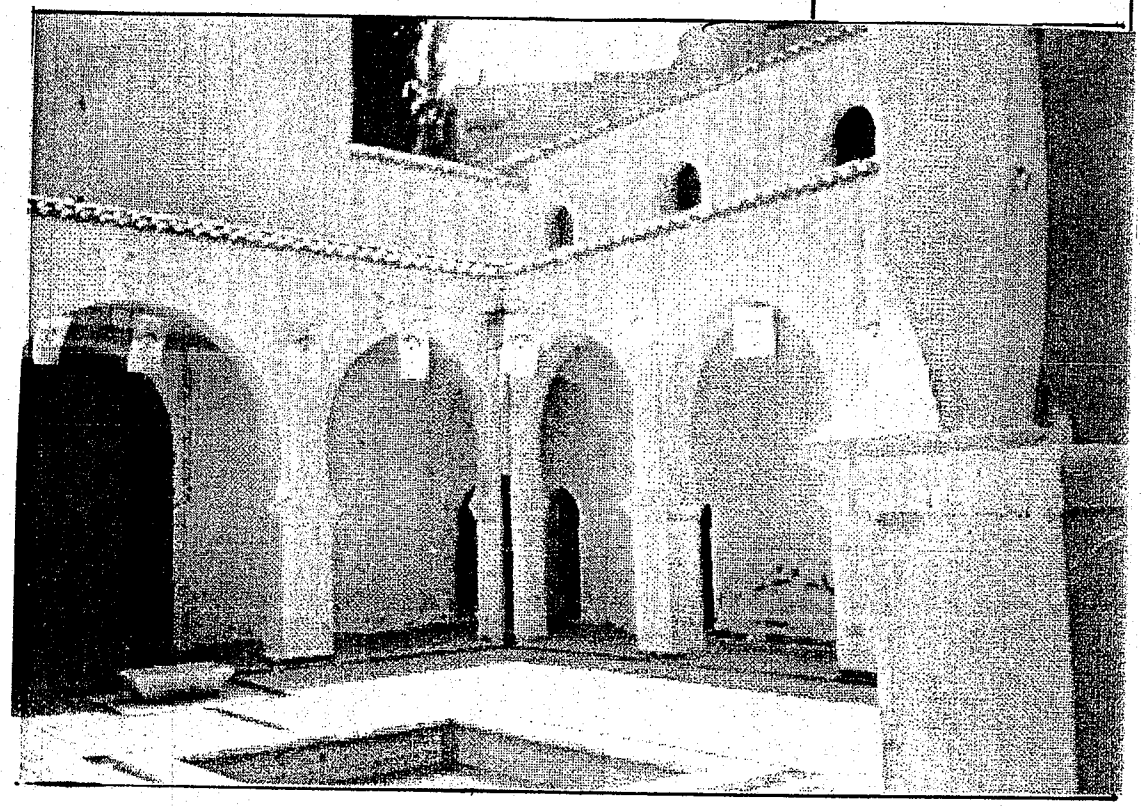

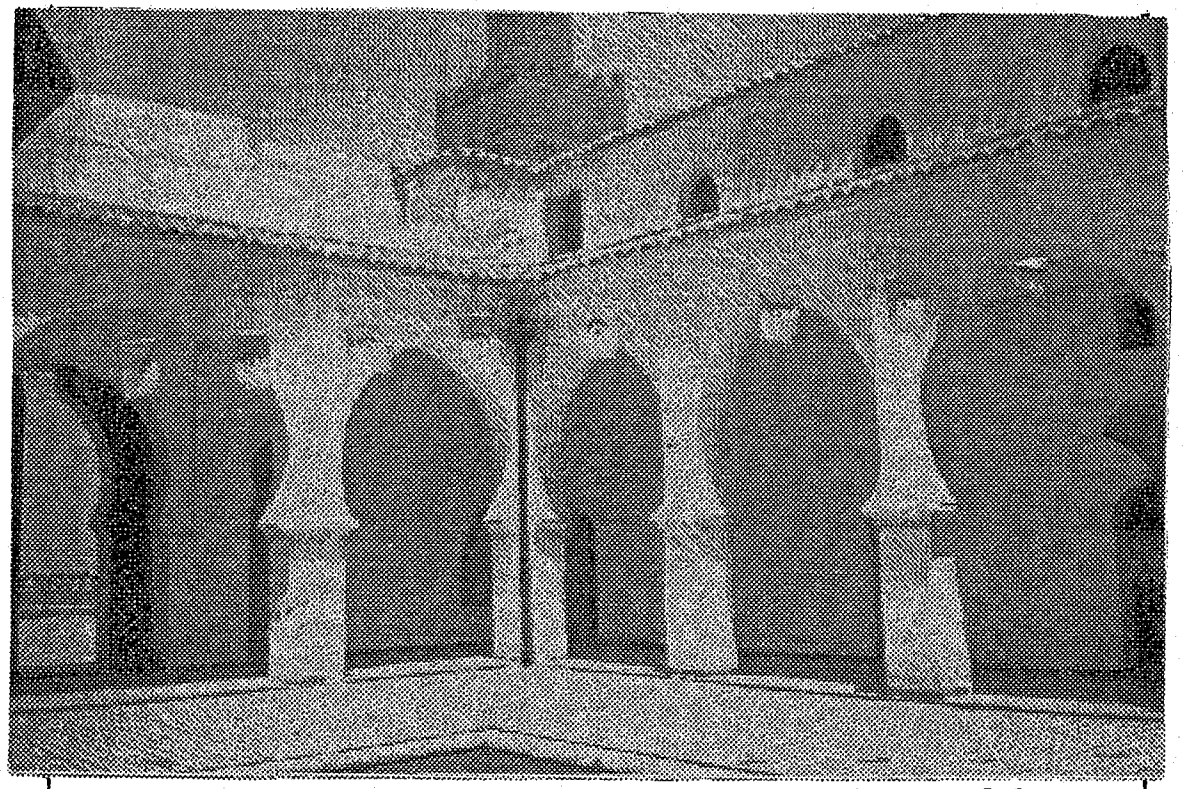

اللوحة 28. مدرسة سيدي أبي مدين
الزاوية الشمالية الشرقية للصحن (في أعلى الصورة تظهر مئذنة الجامع)

اللوحة 29. مدرسة سيدي أبي مدين.
الجدار الشمالي للصحن يتوسطه باب المدخل.

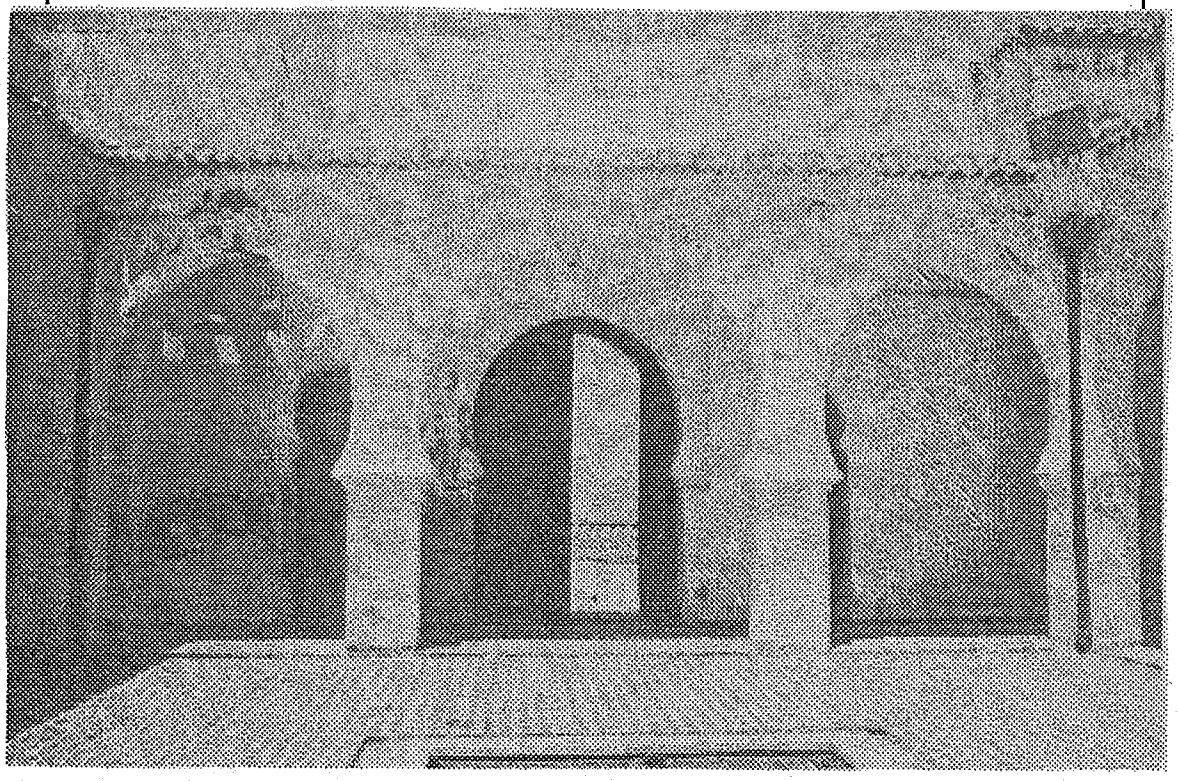

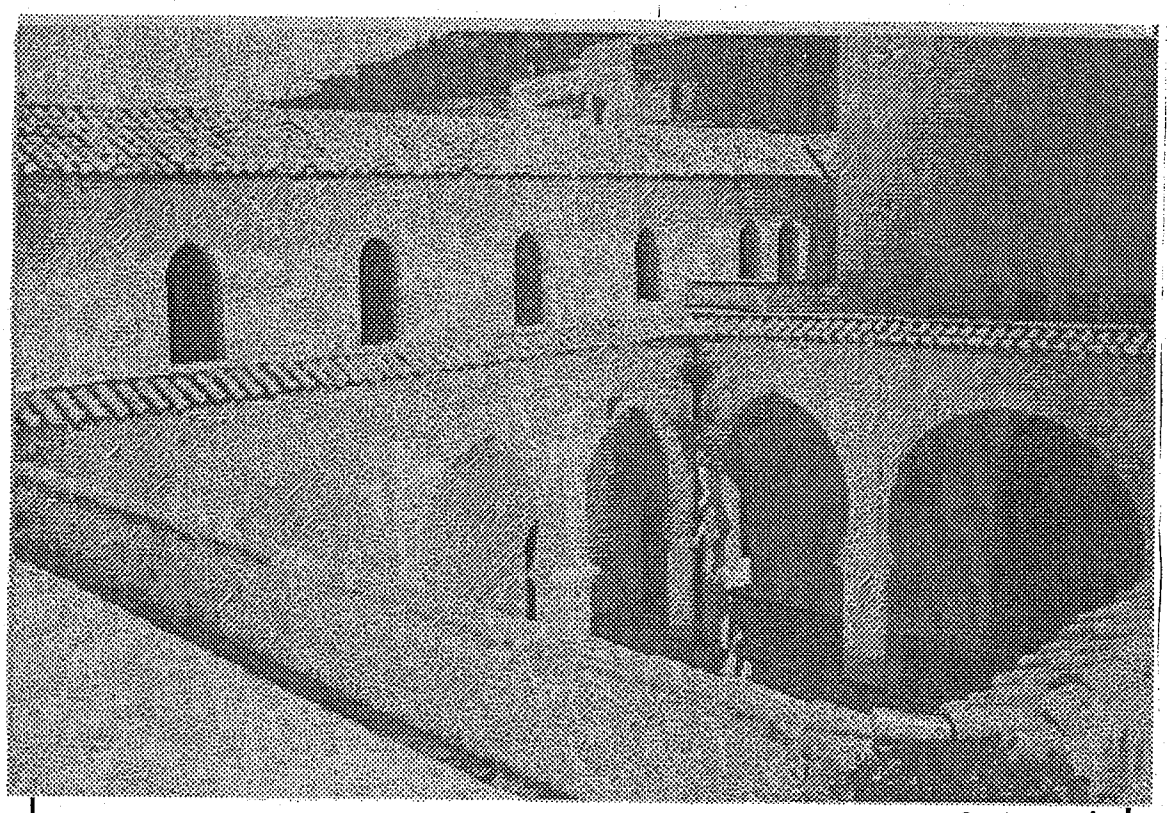

اللوحة 30 . مدرسة سيدي أبي مدين
منظر علوي للصحن تظهر فيه غرف الطابق العلوي .

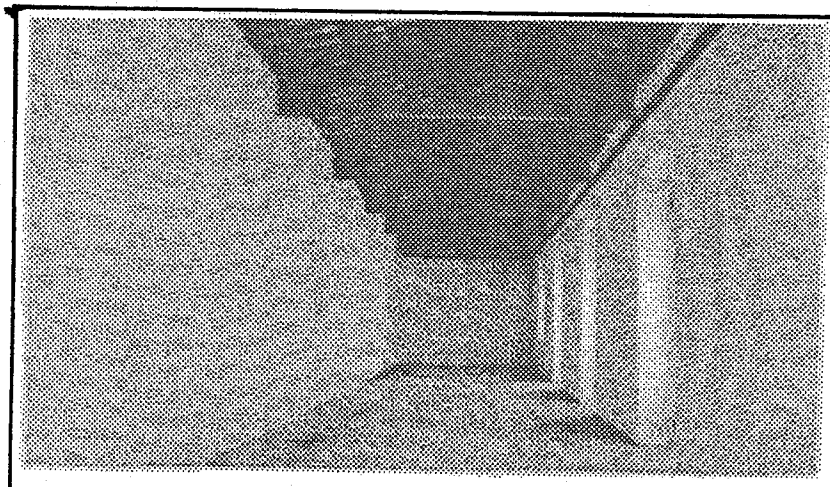

اللوحة 31 . مدرسة سيدي أبي مدين .
غرف الطابق العلوي . فتحت إلى بعضها البعض حديثا .

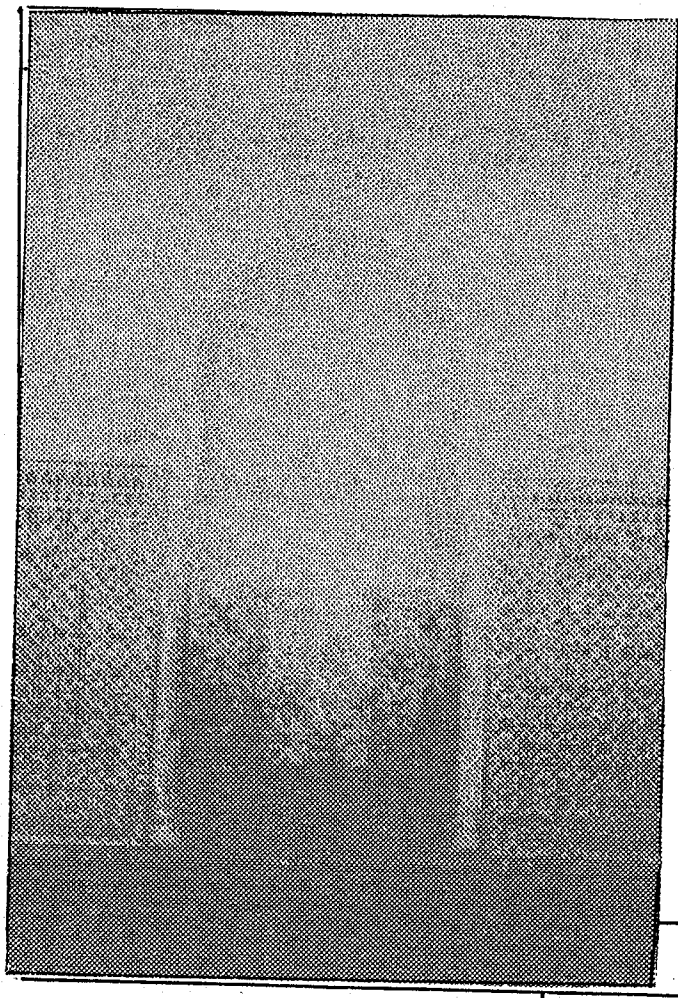

اللوحة . 32 .
مدرسة سيدي أبي مدين
المحراب .
(بقاعة الصلاة والدرس) .

اللوحة . 33 . مدرسة سيدي أبي مدين
التاج الذي يعلو عمود الرخام
بالمحراب

اللوحة 34.
زخرفة جصية
الإطار المحيط بعقد المحراب

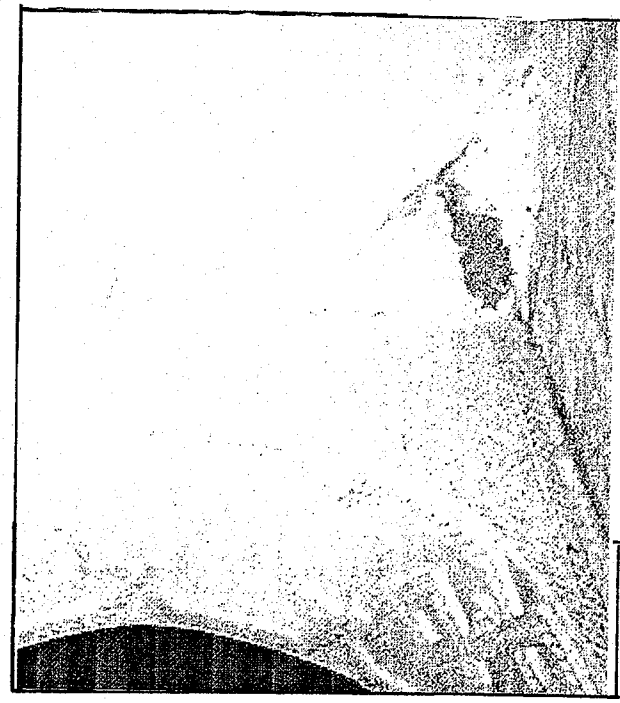

اللوحة 35.
زخارف بدن عقد المحراب
والزخارف المحيطة به
من الداخل - القبة التي تعلو المحراب
من الداخل.

اللوحة 36. مدرسة سيدي أبي مدين
زخارف الجدار الغربي لقاعة الصلاة. (منفذة على الجص).
وتتماثل تماما مع زخارف الجدار الشرقي.

اللوحة 37.
مدرسة سيدي أبي مدين
لوح زخرفي. من الجص.
وهي زخارف أصلية.
(الجدار الشمالي لقاعة الصلاة).

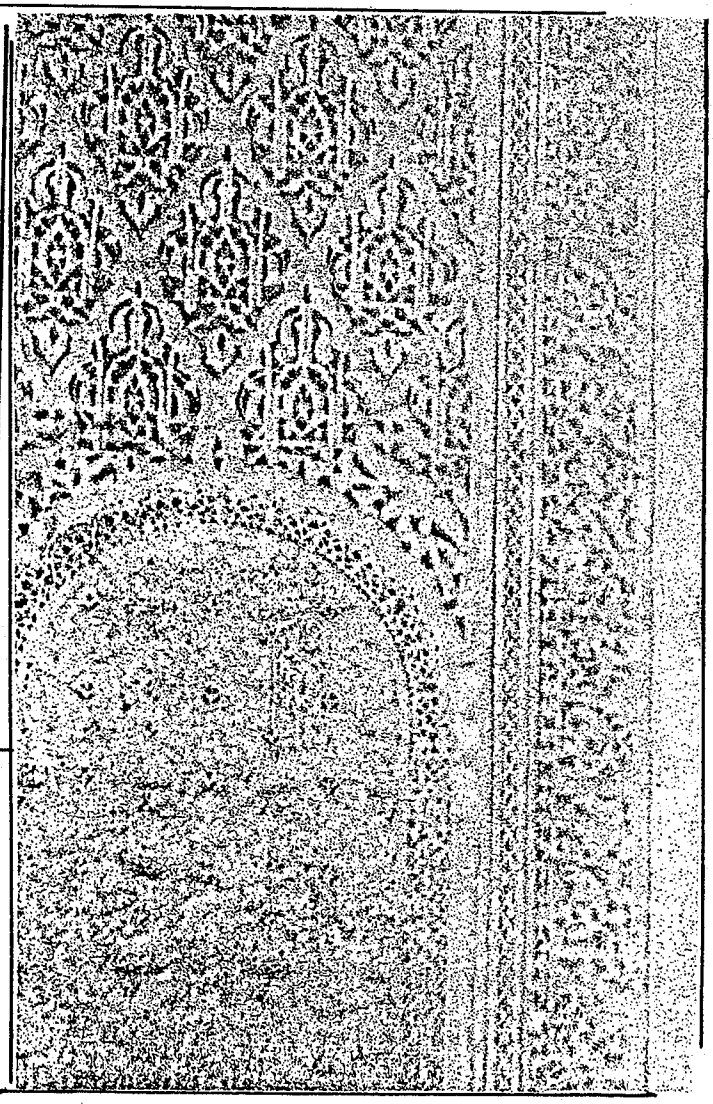

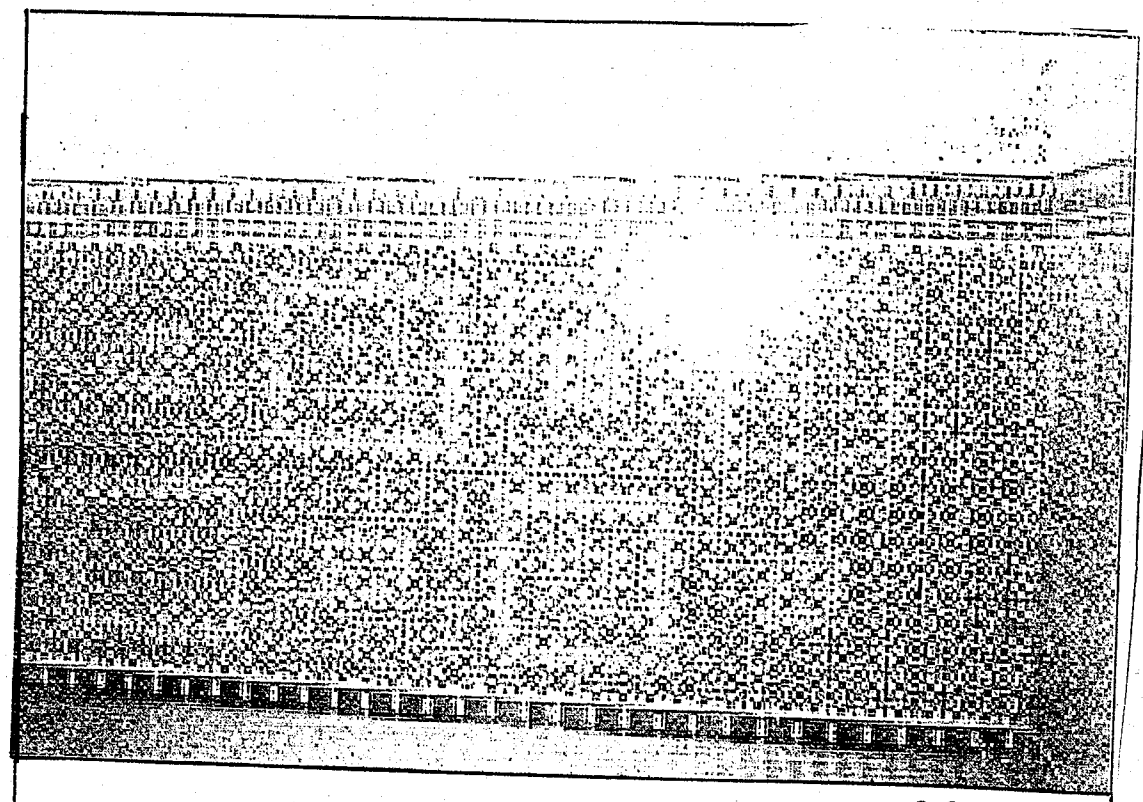

اللوحة 38 . مدرسة سيدي أبي مدين
تغطية أسفل الجدران وأرضية قاعة الصلاة بالزليج .

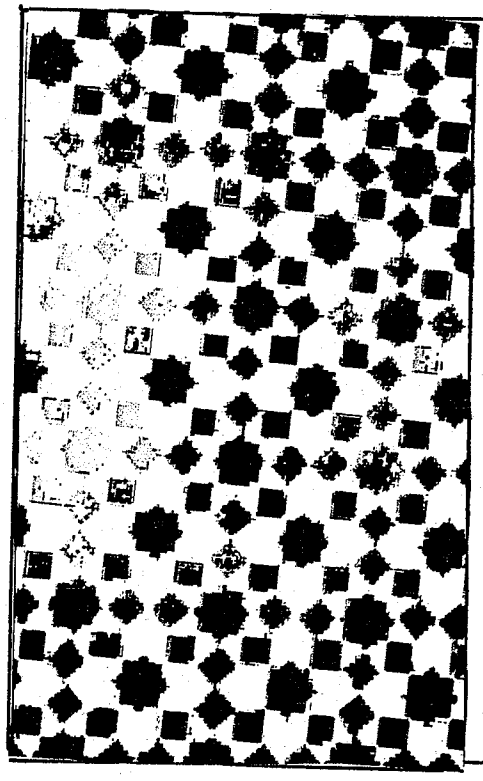

اللوحة 39 .

مقطع من زخارف الزليج بقاعة الصلاة . يظهر الطبق النجمي ذو الثمانية رؤوس .

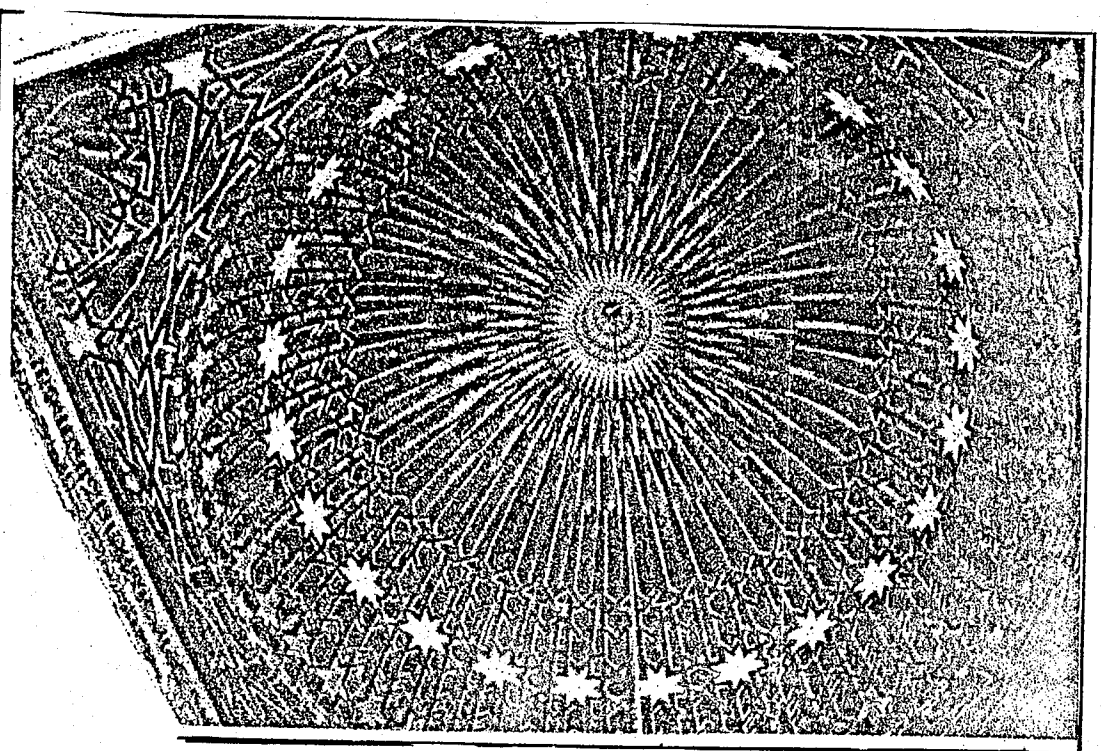

اللوحة 40. مدرسة سيدي أبي مدين "العباد".
صورة لقبة قاعة الصلاة.
عن المرحوم عبد العزيز المباني المرينية

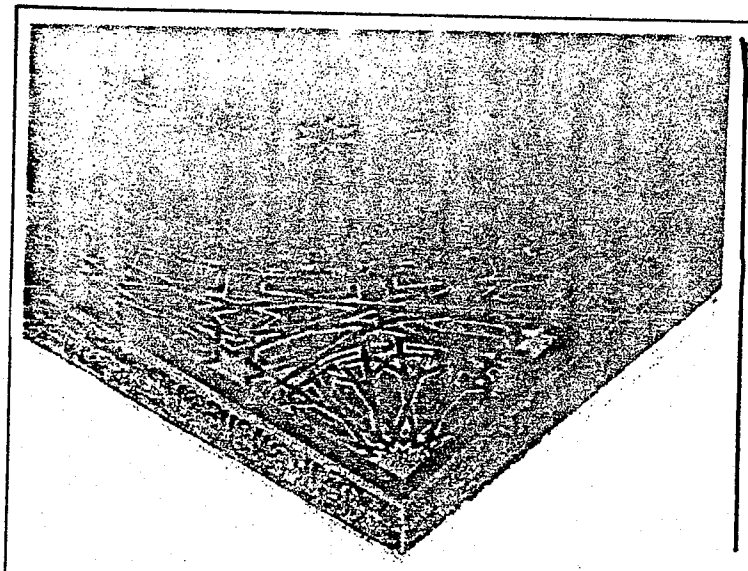

اللوحة رقم 41. مدرسة سيد أبي مدين "العباد"
حنية القبة، والشريط الكتابي التاريخي
عن المرحوم عبد العزيز المباني المرينية.

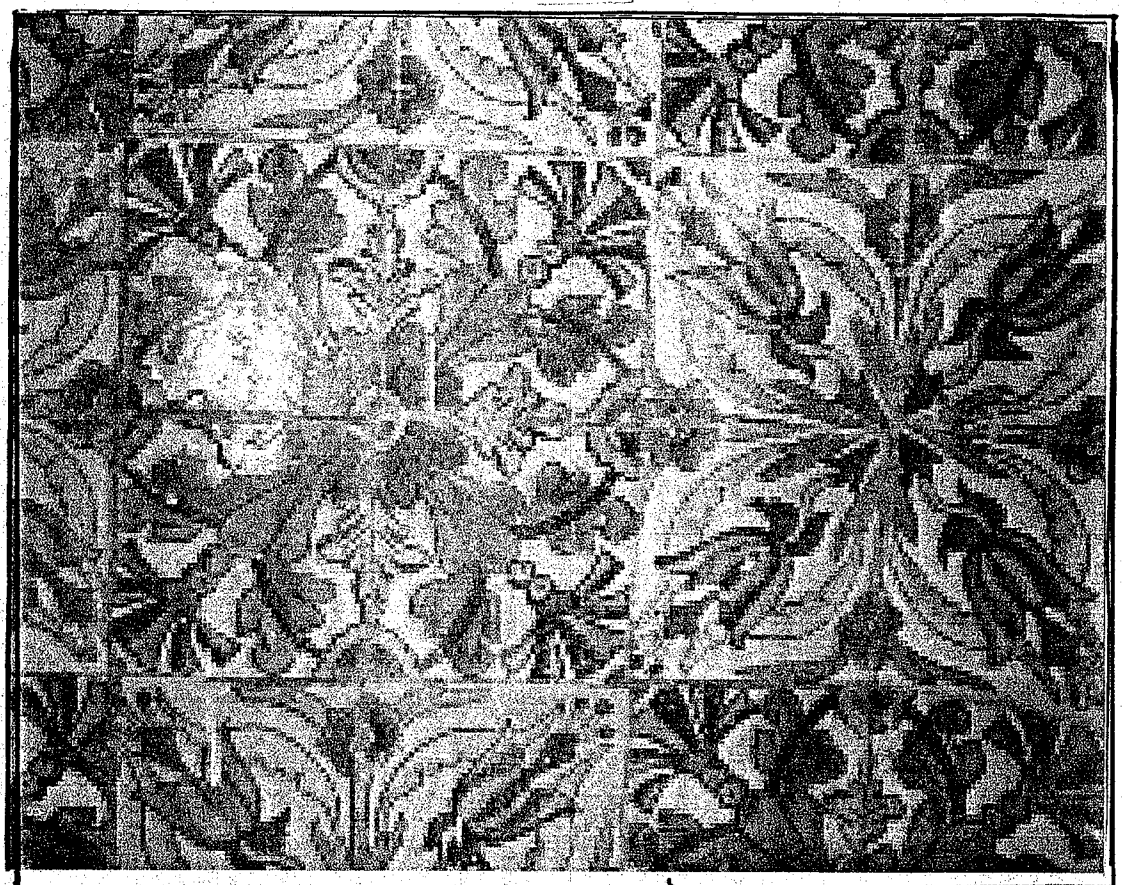

اللوحة 42. مدرسة سيدي أبي مدين
زخارف البلاطات الخزفية بجدار محراب قاعة الصلاة
ترجع إلى العهد التركي.

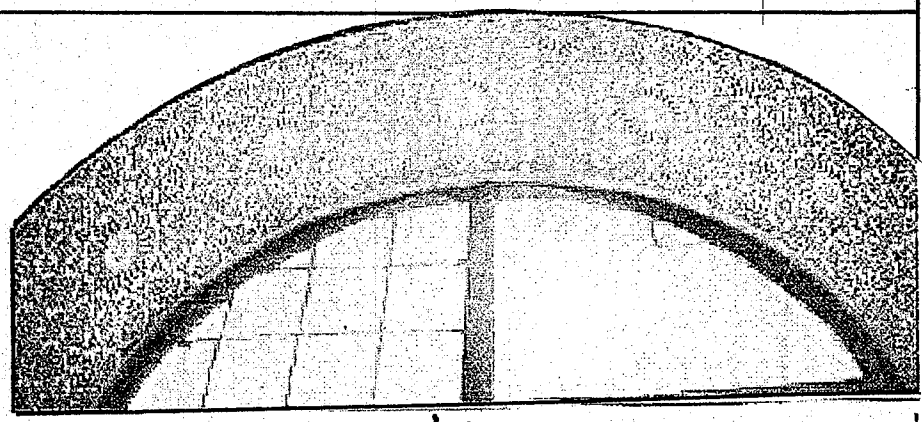

مدرسة سيدي أبي مدين،
اللوحة 43. زخارف بدن عقد باب مدخل قاعة الصلاة

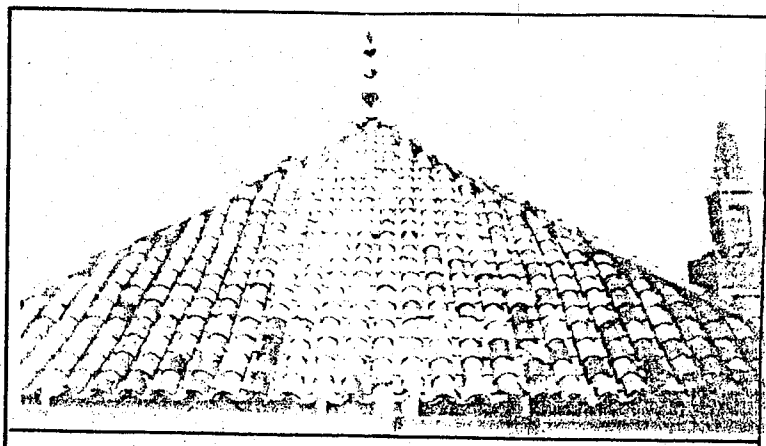

اللوحة 44. 45. 46.
مدرسة سيدي أبي مدين
- القبة الهرمية المسقوفة بالقرميد.
- القبة الخشبية.
- متطع من القبة الخشبية.

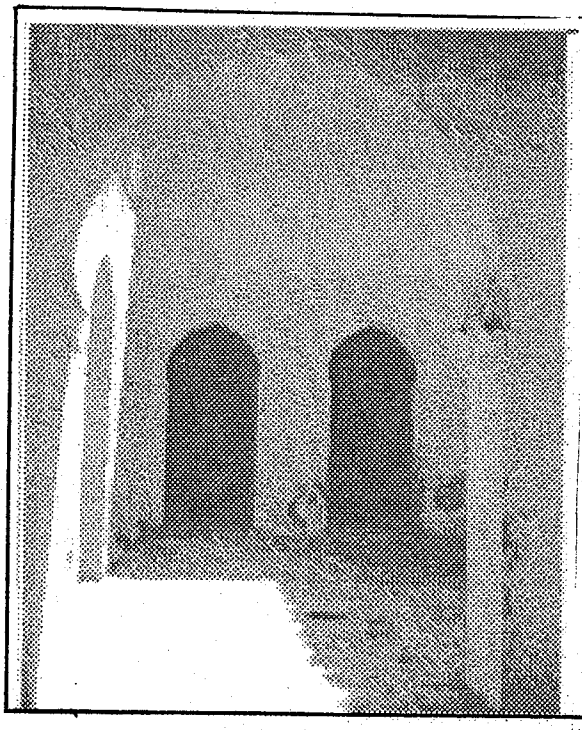

اللوحة: 47.

صورة للفناء الصغير
وتحيط به غرف الأساتذة

اللوحة: 48. مدرسة سيدي أبي مدين.
منظر علوي لفناء الميضأة.

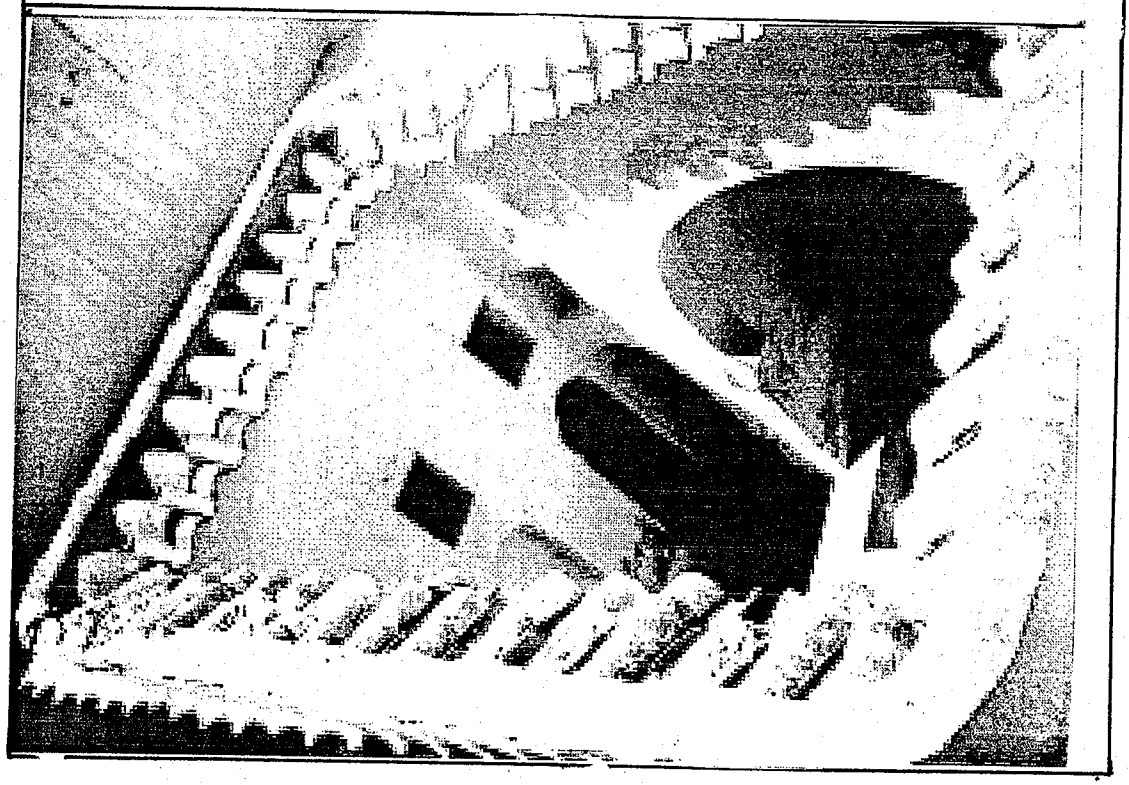

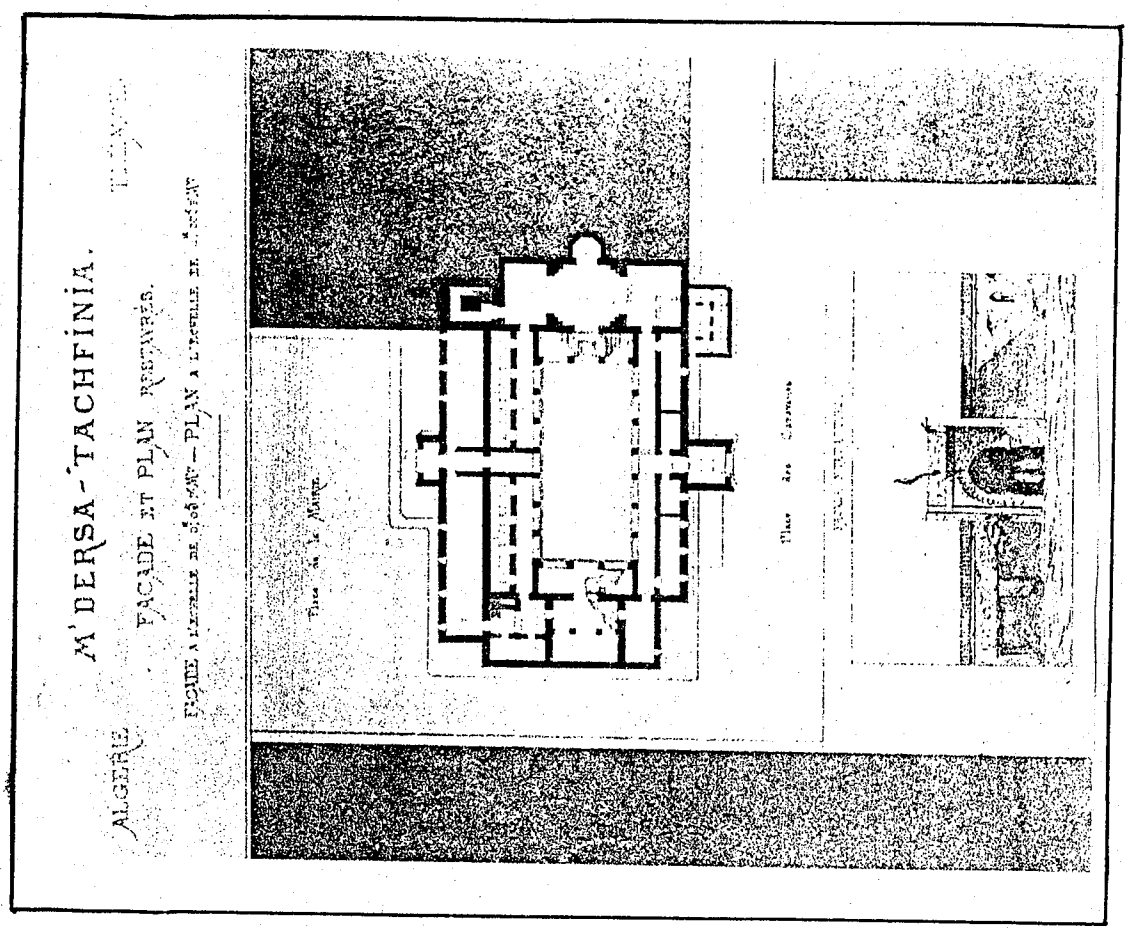

عن Golvin. La madrasa. p. 202.

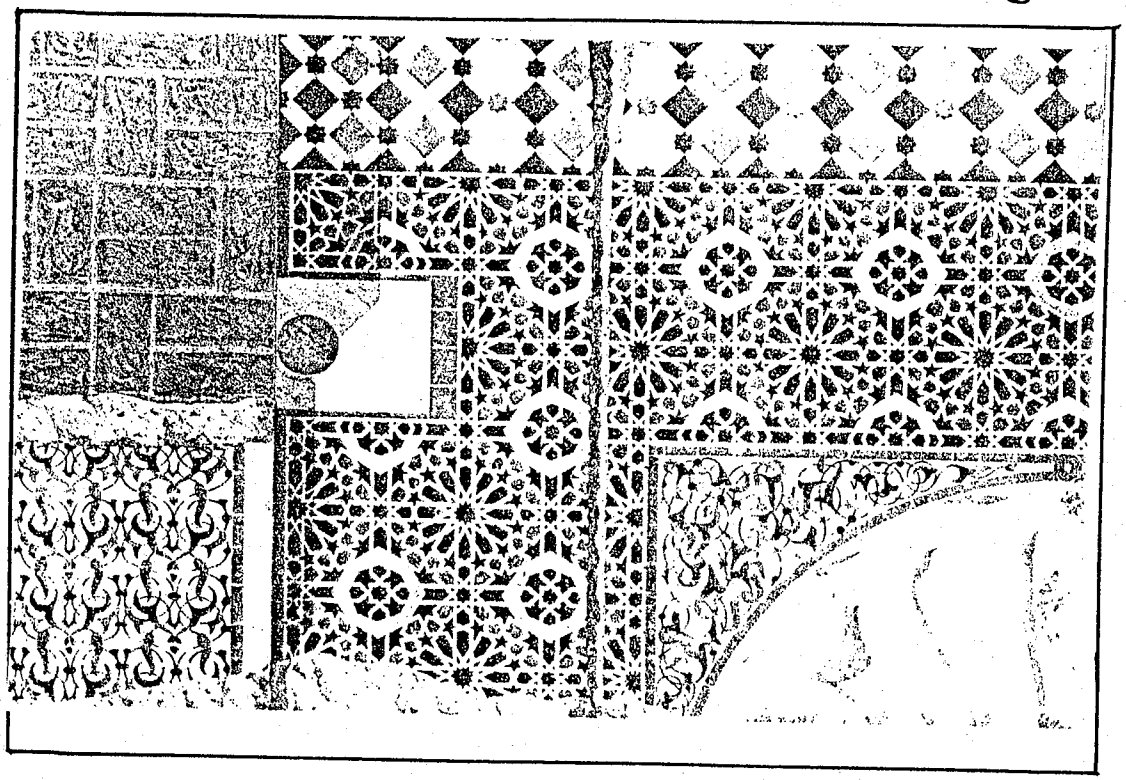

اللوحة 49، 50. المدرسة التاشفينية - تلمسان.
مخطط المدرسة، واجهة المدخل التذكاري، قطع من زخارف الزليج الباقية.

المصـــادر و المـــراجـــع

المـــصـــادر

- **أبو زكريا يحي ابن خلدون**، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، جـ1، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر، 1980.
- **ابن أبي زرع**، الأنيس المطرب، بروض القرطاس فـي أخبـار ملـوك المغـرب و تـاريخ مدينة فاس ، نشر .C. J. Iornbergub Salire 1843.
- **إبن الأثير**، الكامل في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ج8 ،
- **ابن خلدون عبد الرحمان**، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر فـي أيـام العـرب و المعجـم و البربر، و من عـاصرهم مـن ذوي السـلطان الأكبر،ج7 ، دار إحيـاء الـتراث العربـي ، بيروت- لبنان 1999.
ابن الأحمـــر، روض الترسين فـي دولـة بنـي مريـن، تحقيـق عبـد الوهـاب بـن منصـور، منشورات مطبعة القصر الملكي، الرباط، المطبعة الملكية، 1962.
- **إبن مرزوق**، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق، ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981.

- **البكري أبي عبيد الله بن عبد العزيز**، المعجب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، الطبعة المترجمة إلى الفرنسية .Mac Quikin de slane, Paris 1965.
- **التنسي محمد بن عبد الله** ، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيـان شـرف بـي زيـان ، تحقيق محمود بوعياد، م. و .ك، الجزائر ،1985.
- **حسن الـــوزان**، وصـف إفريقيـا، جـزآن، ترجمـة محمـد حجـي، و محمـد الأخضـر، دار المغرب الإسلامي ، بيروت –لبنان، ط2، 1983، ج2 ، ص.227.
- **المقريزي تقي الدين أحمد، الخطط و الآثار في مصر و القاهرة** ، و النيل و ما يتعلق بها من أخبار، المعروف بكتـاب المواعـظ والإعتبـار بـذ كرالخطـط و الأثـار، دار الطباعـة المصرية بولاق القاهرة 1270 هـ.
- **الســـلاوي**، الاستقصاء لأخبـار دول المغـرب الأقصـى، تحقيـق جعفـر النـاصري، و محمد الناصري ، ج3 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1954.

* المـراجـــــع *

* بالـعربيـة :

- أوقطاي أصلان آبا، فنون الترك و عمائرهم، ترجمة أحمد و محمد عيسى مركز ، الأبحاث للتاريخ و الفنون الثقافية، اسطنبول، 1987.
- بوشنا قي منير، المدن القديمة في الجزائر، سلسلة الفن و الثقافة وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1978 .
- بروكلمان كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين، منير البعلبكي، دار العربية للملايين، ط11، بيروت-لبان، 1988.
- التازي عبد الهـــادي ، جامع القرويين ، المسجد و الجامعة بمدينة فاس ،ج2 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان 1973 .
- ثروت عكاشة القيم، الجمالية في العمارة الإسلامية،دار المعارف بمصر ،1981 .
- الجزائري أبو بكر جابر ، العلم و العلماء، دار الشهاب ، الجزائر، 1985.
- حاجيات عبد الحميد ، أبو حمو موسى الزياني ، الجزائر 1974، ص ص 44.46.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام،ج3 ،القاهرة 1968.
- الدولالتي عبد العزيـــز ، مسجد قرطبة و قصر الحمراء ، دار الجنوب للنشر تونس،1977.
- الزحيلي محمد، مرجع العلوم الإسلامية، ط2 ، دار المعرفة، دمشق، سوريا 1922.
- شاوش الحاج رمضـــان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية 1995 .
- عبد الله علام، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف بمصر،1971.

- **عقاب الطيب**، لمحات من العمارة و الفنون الإسلامية في الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1990 .
- **غنيمة محمد عبد الرحيم** ، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان- المغرب 1953.
- **فكري أحمد** ، مساجد القاهرة و مدارسها، ج2، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة 1965.
- **لعرج عبد العزيز**، الزليج في العمارة الإسلامية في العهد التركي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1991 .
- **لوبون غوستاف**، حضارة العرب ، نقله إلى العربية ،عادل زعيتر ،مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه ،دار الكتب ، بيروت –لبنان ،1969 .
- **مانويل جوميت مورينو**، الفن الإسلامي في إسبانيا ، ترجمة لطفي عبد البديع و عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، دون تاريخ .
- **متز آدم** ، الحضارة الإسلامية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ،ج1 ، دار الكتاب العربي، 1971 .
- **مرزوق عبد العزيز**، الفنون الزخرفية في المغرب و الأندلس ، دار الثقافة، بيروت- لبنان، دون تاريخ.
- **الدولالتي عبد العزيز**، مسجد قرطبة و قصر الحمراء، دار الجنوب للنشر، تونس1977 .
- **المنوني محمد** ، العلوم و الآداب على عهد الموحدين، تطوان ، المغرب1950 .

* رسائل جامعية ومقالات *

- **بوطار مبارك**، العمائر الدينية في المغرب الأوسط من القرن السادس حتى نهاية القرن الثامن رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية كلية الآداب ، قسم التاريخ، مصر، 1991، مخطوط بمكتبة قسم الثقافة الشعبية جامعة تلمسان ، الجزائر.

- **لعرج عبد العزيز**، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، أطروحة دكتوراه دولة، سنة 1999، مخطوط، مكتبة قسم الآثار جامعة الجزائر.

- **لعرج عبد العزيز**، دراسة تحويل وظيفي لمدرسة سيدي أبي مدين – العباد- المرحلة الأولى المشروع التمهيدي ، الورشة التقنية للهندسة المعمارية و الترميم atar (199) مخطوط من أرشيف مديرية الثقافة بتلمسان،1999، ص.32 .

- **أسعد عرابي**، الصناعة الروحية و الهبوط إلى الساحة الفلكلورية،مجلة البحرين الثقافية ، الدوحة –البحرين ، العدد15، جانفي 1998 ، من ص. 124 إلى ص.131 .

- **حملاوي علي** ، الزخرفة الجصية بين التطور و إنحطاط في المباني الإسلامية بالجزائر(ق4-8هـ/10-14م)،مقالة بمجلة الدراسات الأثرية جامعة الجزائر، العدد01 ،1992 من ص. 57 إلى ص.68.

- **وليد الجار** إستقراء التراث الفني و أثره في نهوض الحضارة ، مقال مجلة تاريخ و حضارة المغرب ، العدد 12 ، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر ديسمبر 1974 من ص. 95 إلى ص.102 .

– **الكحلاوي محمد**، المدارس المغربية، مقال بمجلة العصور (مجلة علمية نصف سنوية تعنى بنشر البحوث العلمية و التاريخية و الحضارية) تصدر عن دار المريخ للنشر ، لندن – انجلترا ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، جانفي 1991 ، من ص. 71 إلى ص.153.

المراجع باللغة الأجنبية

Bel.Alfred , inscription arabes de Fès, Extrait du journal asiatique (1917-1919), Paris 1919.

Bourouiba Rachid, l'Art religieux musulman en Algérie 2ème Ed, S.N.E.D, Alger 1983.

Criswell A.C, Muslim Architecture of Egypt Vol II Ayubids and early Mamluks , Oxford London 1960.

Claude Cahem , l'islam des origines au début de l'empire ottanan, histoire universelle 14 : Paris 1970, P.126.

D. et J. Sourdel , la civilisation de l'islam classique , artaud, Paris, 1976.

Dhina Attalah, les états de l'occident musulman aux XIII, XIV et XV siècles, institutions gouvernementales et administratives O.P.U., Alger + E.N.A.L. 1984,

Duthoit , Rapport sur une mission scientifique en Algérie archive des missions scientifiques, 1873 3ème série TL.

Golvin Lucien , la mosquée, ses origines – samarphologie, ses diverses fonctions son rôle dans la vie musulmane, plus spécialement en Afrique du nord Alger, 1960,

Golvin Lucien , la maderssa médiévale, Paris 1995,

Katharina otto – dow , l'art de l'islam dans les le monde , fondements historiques sociologiques et religieux , civilisation non europiennes , paris, 1967.

Marçais. G, L'art musulman, Presse Universitaire de France, Paris 1962.

Marçais. G , L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954,

Terrasse Charles, Mederssas du Maroc, Paris 1927,..

Tutus. Burckhardt , l'art de l'islam ,langage et signification ,édition sundbad , paris.1985,

Van Berchem, Matgériaux pour un corpus 1re partie Egypte .

W. G. Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Paris 1903,

الفهرس

الموضوعات	الصفحة
* الإهداء	2
* شكر و تقدير	3
* المقدمة	4
* المدخل	8
نشأة المدرسة ببلاد المغرب من القرن (07–08 هـ/13–14 م)	
* الفصل الأول : **مدارس أبي الحسن**	27
I / السلطان أبو الحسن : سيرته و سياسته الداخلية و الخارجية .	
II / أهم المدارس التي بناها .	
أ ـ مدرسة الصهريج .	
ب ـ مدرسة السبعيين .	
جـ ـ مدرسة أبي الحسن بسلا .	
د ـ المدرسة المصباحية بفاس .	
و ـ مدرسة سيدي أبي مدين " العباد " بتلمسان .	
III / النظام الداخلي لمدرسة السلطان أبي الحسن .	
* الفصل الثاني : **مدرسة سيدي أبي مدين**	55
I / الدراسة الوصفية .	
II / الترميمات التي أجريت على المدرسة	

* الفصل الثالث : **دراسة تحليل و مقارنة** 85

I / الدراسة التحليلية .

أ ـ دراسة معمارية .

ب ـ دراسة زخرفية .

جـ ـ مواد البناء

II / دراسة مقارنة .

أ ـ الخصائص العامة لمدارس السلطان أبي الحسن .

ب ـ مقارنة مدرسة سيدي أبي مدين و المدرسة التاشفينية

* الخاتمة 128

* الملاحق 130

* المصادر المراجع 197

* الفهرس 203